المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

عبد الغني الملاح

المتنبي يسترد أباه

دراسة في نسب المتنبي

المتنبي
يَستردُّ أبَاه

الطبعة الثانية - ١٩٨٠

الإهــداء

ولــدي عمّــار ،

قبل أن تفارقنا بحادثة الدهس المشؤومة مساء ١٢/١٢/١٩٧٣
لم يخطر ببالي أن أهدي هذه الصفحات لأحد ،
تجاوزاً للتقليد في طباعة الكتب ..
وأما اليوم ، وهذا الكتاب لا يزال في المطبعة ، فلم أجد بداً من إهدائه إلى روحك .
فأطمئن في قبرك ؛ فإني لن أنسى شبابك وطموحك وأفكارك الخيرة .
لقد كنت تلميذي وأستاذي ، وكنت ولدي وصديقي في آن واحد .
وقليلون أولئك الذين عرفوا أنك أكبر من عمرك الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة سنة في حساب الزمن ،
بلى إنك أكبر من عمرك بعدّة أجيال .
حتى الذين لم يعرفوك على حقيقتك قالوا : نجم هَوى !.
ويا ليتهم عرفوا ماذا كلن يضم ذلك النجم من كنوز .

والدك

عبد الغـني الملاّح

فَقَد المتنبي أباه في محنته ،
فعثر عليه بعد ألف عــام .

مقدّمة الطبعة الثانية

المتنبي: تلك هي الكلمة التي اصبح مدلولها اسماً علماً على شاعر متميز له من القوة الحضارية والقيمة التراثية ما يدعونا دائماً الى التحدث عنه او به بشكل مباشر او مواسط. لذلك كانت الضجة الجدلية التي لازمت حياته الفذة وانحدرت مع القرون امراً طبيعياً ومقبولاً لا غبار عليه. وفي عصرنا الحالي ارتفعت اصوات المؤرخين بصورة عامة مطالبة باعادة النظر في الأسس القديمة المستندة الى قدسية الرواية وعدم المساس بها واعتبارها جوهراً لا يجوز التعرض له، والمطالبة بتقويم الأحداث التاريخية على ضوء الدوافع السياسية التي تقوقعت في تيارات مذهبية كنتيجة منطقية لسيطرة السلطان المطلقة المستمدة من نظرية الحق الالهي في الملك في تلك العصور، وأرى من المنطق تأييد طلب المؤرخين هذا وقد عملت به في كتابي (المتنبي يسترد اباه) ولكنني جوبهت بعد الطبعة الأولى بردود فعل مختلفة، بعضها منطلق من تقويم موضوعي، وبعضها منطلق من انفعال عاطفي، وبعضها منطلق من حيرة تراثية تتوجس خيفة من التعرض للرواية ومناقشتها لاستخلاص الانفعالات الانسانية في تكوين الشخصية التاريخية.

وقبل التطرق الى صلب الموضوع اود ان اشير الى اني طرحت فرضية عن نسب المتنبي.. مجرد نظرية فرضية أن هذا الشاعر العملاق هو ابن الامام محمد المهدي. ولو أن الروايات تحول دون طرح النظريات بصورة عامة لانطوت الحضارة على نفسها ولبقي الانسان ملتزماً بما توارثه من اقوال كانت لها أسبابها ودوافعها. ولبقي معتقداً ان الأرض قائمة على قرن ثور او ان مردوخ هو سيد الآلهة وأن ابولو هو رب الشعر. ولمر زمن طويل على تحطيم نظرة الانسان في تأثير النجوم على حياته قبل أن يدرك الحقيقة الفيزيائية لحركة النجوم وعلاقتها الرياضية ببعضها.

ومن أجل مثل هذه الحقائق أمتنع عن قبول كل رأي لا يستند الى التطور الحضاري والتقدم الفكري للمفاهيم العامة. وأقبل بكل موضوعية رأياً يستند الى التحليل المنطقي للقضية، فاما يضع نظريتي في مأزق تحت اضواء علمية بعيدة عن التشبث بقدسية الرواية وإما يدفعها الى صف الحقائق الثابتة.

مرة ثانية اقول اني طرحت فرضية (او نظرية) لي قناعة خاصة بصحتها وليس من حقي ان اطلب من الآخرين قناعة بها ما لم تتوافر لديهم الأسس االلازمة لتلك القناعة. ولكن هذا لا يمنعني من الاستمرار في ايجاد القرائن والأدلة التي تعزز صحة نسب المتنبي العلوي الإمامي. وأن احساسي الشخصي يقودني الى تسجيل وجهة نظري بانطلاق غير محدود. بالرغم من علمي المسبق أن هناك قراء ومفكرين يقدرون اهمية الكلمة وما وراءها من قيم انسانية. وهناك أيضاً قراء يفترضون سلفاً أن تكون الكلمة نموذجاً لمنطلقاتهم الفكرية أولاً..

ان ما قرأته حتى الآن من تعليقات على الطبعة الأولى في الصحف والمجلات والرسائل الخاصة وما سمعته من بعض المفكرين يتجه عدة اتجاهات. فمنهم من عرض الكتاب عرضاً ولم يبد رأياً. ومنهم من استقل القرائن وطالبني ببراهين وثائقية تراثية تؤيد وجهة نظري. ومنهم من أيدني تأييداً مطلقاً بلا تحفظ ومنهم من تحفظ في نظرته الى النتائج التي توصلت اليها.

ولكن البعض تشبث في جرّي الى مزالق مذهبية ما قصدتها وعقائد لا علاقة لها بموضوعي الأدبي. وهؤلاء سأناقش في كلمتي هذه وأنا احترم آراءهم التراثية كل احترام.

يقول اصحاب هذا الاتجاه: ان الامام المهدي عاش غيبته الصغرى من أجل قضية روحية ومذهبية لم تشغله بزواج او تملك او أي نوع من انواع الاتصال بالمرأة. ويقولون أيضاً إن الامام المهدي لا يزال حياً في غيبة كبرى، ورفضوا قولي إنه توفي ما بين عامي ٣٢٦ - ٣٢٩ للهجرة. وطالبني المنفعلون منهم ان اذكر لهم قولاً واحداً يثبت زواجه او موته، وذلك من قبيل التحدي او الاحراج.

قد يبدو هذا الاعتراض ساذجاً أمام الحقائق العلمية بصورة عامة، ولكنه مهم وأصيل بالنسبة للتراث العقائدي وقدسية الرواية. لذلك سأناقشه بعناية لا من اجل بعده عن الموضوعية العلمية فحسب بل من أجل محاولة التوصل الى الأسباب التي انبثقت عنها فكرة الغيبة الكبرى والتي كانت الأساس في ضياع نسب المتنبي عبر القرون حسبما أرى.

ولا بأس من العودة الى قدسية الرواية في التاريخ الاسلامي بعد التنبه إلى أنها كانت وليدة أوضاع سياسية. وكانت - بما فيها من روايات الحديث - وسائل اعلامية لادانة سلطة معينة وتأييد سلطة اخرى أو لتقويض حزب وتأييد آخر. ومن هذا المنطلق علينا أن نضع علامة استفهام على كل رواية ونتحرى عن مدى صحتها وعن أسباب ظهورها في عصر معين وظرف معين. ومثل هذا العمل الشاق جداً. لا يمكن له ان يتم ما لم نستخلص الأسس العامة والمبادىء التي نقدر أن نسميها - مجازاً - الأسس الدستورية. فكل رواية لحدث او حديث تناقض الأسس الدستورية يجب ان تكون عرضة للاقتحام الفكري في عصرنا الحاضر.

وعلى سبيل المثال أذكر. أن الخطيب البغدادي سجل أحاديث نبوية كثيرة يتنبأ فيها النبي محمد ببناء مدينة بغداد. واذا رجعنا الى الأساس الدستوري لعلم الغيب وهو الآية القرآنية (لا املك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء) لو رجعنا الى هذا الأساس لوجدنا ان جميع الأحاديث التي قيلت في بناء بغداد موضوعة وإنما وضعت عن قصد لتأييد السلطة العباسية واعطائها صفة القدسية. لأن علم الغيب في بناء بغداد نقيض للدستور الاسلامي في عدم معرفة الغيب. ومثلما يقال في هذا يقال في الأحاديث التي تمثل المعارضة للسلطة العباسية. فكل رواية لها طابع معرفة المستقبل هي نقيض للمبدأ الدستوري (لو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير). وبهذا يجب ان تكون عرضة للتمحيص والتحليل والاقتحام.

وهناك مبدأ دستوري آخر وهو الآية القرآنية (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) فكل حديث او رواية يناقضان هذا المبدأ لا بد أنهما وضعا لأغراض سياسية بحتة ولا يجوز اعتبارهما أساساً. فاذا اتجهنا مثل هذا الاتجاه في اعتبار الرواية صحيحة ولا يجوز مناقشتها نكون قد وضعنا القرآن نفسه ووضعنا النبي محمداً في مأزق. اذ ليس من المعقول ان ينفي عن نفسه علم الغيب ثم يتنبأ بما سيحدث في القرن الرابع الهجري من دخول الامام المهدي في غيبة كبرى. وليس من المعقول أن ينص القرآن على أن اكرمكم عند الله اتقاكم ثم يتحدث الرسول عن مبادىء أخرى للفضل لا علاقة لها بالتقوى. لذلك اجد ان كل رواية تتعارض مع الأسس الدستورية الاسلامية في معرفة الغيب ومقاييس الكرم والفضل انما وضعت لأسباب زمنية خاصة. ومن هذه الروايات ما تحدث به الأقدمون عن ظهور رجل يوماً ما له صفات تخالف الطبيعة البشرية في متوسط العمر، أو له مهمات روحية تبعده عن الاتصال بالمرأة بشكل

مطلق. إن مثل هذا القول لا يشكل أساساً منطقياً لمتطلبات الحياة كما أنه قول تفنده كتب الشيعة نفسها. فقد ورد في كتاب - البحار - الجزء ١٣ ص ١٢٣ الرواية الآتية وقد نقلها محمد الصدر في كتابه تاريخ الغيبة الصغرى ص ٥٧٣ قال: (روي عن الحسن بن الوجناء النصيبي قال: كنت ساجداً تحت الميزاب في رابع أربع وخمسين حجة بعد العتمة. وأنا اتضرع في الدعاء اذ حركني محرك فقال: قم يا حسن بن الوجناي قال: فقمت فاذا جارية صفراء نحيفة البدن).. الى آخر الرواية التي تشير الى ان تلك الجارية قادت ابن الوجناء لمقابلة الامام المهدي في دار خديجة بمكة)..

ويخطر ببال كل انسان يقرأ هذه الرواية ان يتساءل: من هي تلك الجارية؟ وقد تساءل فعلاً السيد محمد الصدر عنها، وتوصل الى انها قد تكون مملوكة للامام محمد المهدي. وهذا استنتاج مقبول. بل صحيح وموضوعي. وهنا نتساءل أيضاً: لماذا يستطيع ان يتسرًى في مكة ولا يتسرًى في الكوفة وينجب المتنبي؟ والشريعة الاسلامية تقر ذلك ضمن نظام ما ملكت ايمانكم.. نعم لماذا؟

ومن المفيد أيضاً مناقشة هذه الرواية من زوايا أخرى اذ اننا نلاحظ كيف أن تلك الجارية لفظت اسم (ابن الوجناء) هكذا (ابن الوجناي) مما يشير بشكل ما الى هويتها. اذ انها ليست ذات صلة بأسرة الامام أي انها ليست من قريباته او المحرمات لأن طريقة الأداء في اللفظ لا بد وان تكون متفقة ضمن نطاق الأسرة الواحدة أو العائلة الواحدة أو حتى الحي الواحد مما يؤكد أنها كانت مملوكة وغير محرمة عليه. هذا من جهة، ومن جهة اخرى اذا اعتبرنا هذه الرواية صحيحة نصاً وموضوعاً وجدنا عنصر المرأة في حياة الامام محمد المهدي أمراً طبيعياً ومقبولاً. وأما اذا اعتبرناها موضوعة لغرض سياسي - كما سنرى - وهي من نتاج مصانع الروايات والأحاديث التي كثرت وتشعبت لأكثر من سبب في تلك الفترة الزمنية من التاريخ الاسلامي فيجب علينا ان نأخذ بنظر الاعتبار الناحية النفسية في مقاصد واضع الرواية فانه لا بد قد صاغها بأسلوب أراد به إقناع السامع بصحتها وقبولها. ولو راوده ادنى شك بأن وجود عنصر المرأة في حياة الامام المهدي سيفسدها ويجعلها عرضة للشك او التشكيك بصحتها لاستبدل المملوكة بتلميذ أو مملوك او صاحب. وهذا ما يؤكد ان وجود المرأة في حياة المهدي كان امراً طبيعياً لا اعتراض عليه. فكيف يحق لنا بعد الف عام رفض وجود المرأة في حياة الامام المهدي بينما كان وجودها في حياته امراً مقبولاً وقتئذٍ؟

وإلى جانب هذه المناقشة توجد راوية أخرى وهي الأهم بنظري وهي تسليط الأضواء على جملة (رابع أربع وخمسين حجة بعدَ العتمة) . فماذا تعني هذه الجملة وماذا قصد بها واضع الرواية . أقترح تأجيل الاجابة عن هذا السؤال الى آخر الكلمة ليتسق الجواب مع ما سأذكره عن اثر الرتل الخامس العباسي في إفساد الحركة المهدوية ومقاومتها .

وأما الآن فسأجيب احد المعترضين على كتابي بقوله : لماذا الزواج السري والتكتم فيه ؟ أو لماذا لم يشر الأقدمون الى زواج الامام المهدي والد المتنبي ؟ فاني اضيف الى ما ورد في الكتاب من قرائن قرينة تاريخية تؤيد بشكل ما أن هذا النوع من الزواج كان سارياً في تلك الأحقاب . فها هو ابن الأثير يروي لنا في (الكامل) (ج ٢ ص ٣٦) رواية عن زواج ابي جعفر المنصور زواجاً سرّياً لم ينكشف امره الا بعد ان اصبح ابو جعفر خليفة . ومحتوى الرواية يقول : ان ابا جعفر المنصور جاء مدينة الموصل في شبابه متنكراً ليتصل بشيعة أبيه في أواخر الدولة الأموية وعمل ملاحاً في نهر دجلة من غير أن يكشف عن هويته وتزوج هناك سراً من جارية موصلية يقال انها كردية فحملت منه ، ولكنه خاف أن ينكشف أمره عند عامل المدينة الأموي فأعطى زوجته خاتمه ورقعة كتبها بخطه وقال لها : إن ولدت غلاماً فسميه جعفر ، وان سمعت بدولة قامت لبني هاشم عليها خليفة يدعى (أبو جعفر) فأرسلي اليه هذه الرقعة وهذا الخاتم فهو يعرفها . ولما قامت الدولة العباسية بعد فترة وآلت الخلافة الى أبي جعفر المنصور أرسلت الجارية ابنها وقد صار شاباً الى الخليفة وحملته الرقعة والخاتم فتعرف عليهما واعترف بابنه وأعاده الى الموصل ليجلب امه ...

ومن هذه الرواية نستخلص ان التستر في الزواج وكتمان امره اثناء الأنشطة السياسية كان امراً اعتيادياً. فزواج أبي جعفر ادى الى نتيجة إيجابية مع ابنه جعفر الصغير لأن القضية العباسية نجحت واصبح أبو جعفر نفسه خليفة بينما زواج الامام من أم المتنبي في الكوفة ادى الى نتيجة سلبية لأن الحركة الامامية فشلت سياسياً ومات الامام من غير ان يحقق لشيعته قلب السلطة العباسية فضاعت انشطته في غياهب الزمن ومتاهاته .

في الحقيقة ما أردت أن اتطرق الى عقيدة كون الامام محمد المهدي لا يزال حياً في غيبة كبرى لولا إصرار بعض النقاد على الانحراف عن موضوع المتنبي ونسبه والتركيز على هذه

النقطة بالذات. وقبل مناقشة هذا الأمر أود أن أعلن على مسؤوليتي الشخصية بأني لست على استعداد عقلي لتصور امكانية أن يعيش إنسان أكثر من الحد الأعلى من العمر المقرر له حسب القوانين البيولوجية التي تحدد أنشطة اجهزته الجسدية مجتمعة أو منفردة كظاهرة حياتية تناولتها العلوم من جميع جوانبها بدقة تشريحية وموضوعية في عصرنا الذي نعيشه. ولكن هذا لا يخولني الانتقاص من القيمة الحضارية بكون انسان معين لا يزال خالداً خلود الدهر من أجل تأييد فكرة تراثية معينة. وقد عالج فرويد بدقة ونظرة صائبة في كتابه (موسى والتوحيد) مثل هذا ويبدو أن عقدة الذنب في توريط الامام الحسين بن علي بن أبي طالب في دعوته الى العراق ومقتله في معركة غير متكافئة لعبت دورها الحاسم في إيجاد وريث خالد يعوض عن الأب المقدس ويحل محله ويحث على التذكر، وهذا هو الحد الأدنى من الشعور بالندم على دفع الأب للتضحية الدموية من أجل خلاص الشعب. فأصبح الامام المهدي الذي اختفى لقيادة حركة سرية ضد السلطة العباسية موروثاً جيداً للخلود كتكفير عن الذنب في مقتل الأب الحسين بن علي.

وحاجج بعض المتقدمين وتشبث بحججهم بعض المتأخرين بأن النبي نوحاً عاش ما يقارب الألف عام. ومحاجحتهم هذه لا تفيد الخلود من جهة لأن نوحاً في النهاية مات. ومن جهة أخرى أن استنادهم الى الأرقام التي وردت عن أعمار أشخاص الأساطير والميثولوجيا كأساس للمحاججة وأنها تمثل حقائق مطلقة لا تخدم نظريتهم فيما إذا دققنا في حقيقة هذه الأرقام. فأمامي أرقام أنقلها نصاً من كتاب الميثولوجيا عند العرب (ص ٥١) للأستاذ محمود سليم الحوت (أن عبادة الأصنام تمتد الى أبعد من نوح فبعثه الله نبياً وهو يومئذ ابن ٤٨٠ سنة فدعا قومه الى الله ١٢٠ سنة فعصوه وكذبوه فأمره الله أن يصنع الفلك ففرغ منها وركبها وهو ابن ٦٠٠ سنة) أفلا نلاحظ أن هذه الأرقام جميعها تقبل القسمة على العدد (١٢) ومن هنا هل يحق لنا أن نستنتج أن كلمة سنة الواردة في أعمار أبطال الأساطير والميثولوجيا تعني الدورة القمرية أي أنها تساوي شهراً قمرياً واحداًفقط. ومعنى هذا أن نوحاً كان ابن أربعين عاماً عندما أصبح نبياً ودعا قومه عشر سنوات فلم يستجيبوا له وفرغ من صناعة السفينة وركبها وهو ابن خمسين ومات وعمره في الثمانين[١].

---

(١) لعل المؤلف الفاضل قد غاب عنه قول القرآن الكريم في نوح (فلبث فيهم الف سنة إلا خمسين عاما) « العنكبوت: ١٤ » : وهو عدد لا يقبل القسمة على ١٢ (الناشر).

لا أقدر أن أقرر أن هذه الاستنتاجات صحيحة قبل دراسة طبيعة كل الأرقام الواردة في الأساطير. ومع ذلك فان خطأ هذه الملاحظة لا يعني صحة بقاء الانسان على الأرض في عمر خيالي يناقض طبيعة الظاهرة الحياتية.

هناك ملاحظة أخرى لها أهميتها وهي أن الأعمار بالأرقام الكبيرة وجدت - على ما يظهر - في حدود الطوفان وما قبله ولكنها اختلفت بعد هذه الفترة فأصبح بعضها طبيعياً يتفق ومتوسط عمر الانسان وبعضها بقي خيالياً كما يتضح من سفر التكوين في التوراة. وتعليل ذلك أن حسابات الأسابيع والأشهر والسنوات لم تأخذ موقعها الحضاري قبل أن يضع البابليون نظامهم الفلكي. فقبل هذا كان الانسان يركز ملاحظاته على ظاهرة الدورة القمرية لوضوحها. فكانت هي المقياس في تاريخ الأعمار. وبعد أن تمكن البابليون من وضع نظام السنة الفصلية حدث تداخل في اللفظ فكلمة سنة التي تعني دورة قمرية واحدة أي شهراً واحداً قبل الطوفان أو في حدوده الزمنية أو قبل التاريخ أصبحت تعني السنة الفصلية بعد الاكتشافات الفلكية في العهد البابلي. ولكن الاصطلاح اللغوي (سنة) بقي متداخلاً ومتداولاً في تاريخ الأعمار فسارت الأرقام الحقيقية والأرقام الخيالية جنباً الى جنب. فمنهم من حسب عمره بـ ٦٠٠ سنة أي ستمائة دورة قمرية أي خمسون سنة فصلية ومنهم من حسب نفس العمر بالحساب الفصلي فقط حسب دورة الأرض حول الشمس. ومثل هذا التداخل في المقاييس موجود في كل العصور عند تداخل الحضارات بعضها ببعض. وهاكم مثلاً بسيطاً عن مثل هذا التداخل في عصرنا الحاضر. فقبل دخول النظام العشري في الأوزان (الكيلو) الى الشرق الأوسط كانت المقاييس تعتمد على (الحقة والوقية) وبدخول هذا النظام الغيت تلك المقاييس من الناحية الفنية. ولكنها بقيت تستعمل كاصطلاح لغوي. فأصبحت كلمة حقة في بغداد تعني أربع كيلوات بالرغم من مفاهيم النظام العشري. وكلمة وقية تعني ٢٠٠ غرام في لبنان و٢٥٠ غراماً في بغداد. وسيمضي وقت طويل حتى يشعر الناس بعدم وجود علاقة بين الكيلو وبين الحقة او الوقية والغرام. وأن كلاً من هذه المصطلحات يمثل اوزاناً لفترة حضارية مختلفة. كذلك حدث - على ما يبدو - بين السنة الدورة الشهرية وبين السنة الدورة الفصلية. التي كان كل منها مقياساً لعمر الانسان في فترة خاصة فاختلطت الأرقام الكبيرة والأرقام الصغيرة بالنسبة لكل نظام ولا يوجد أي تفسير آخر للأرقام الكبيرة في عمر الانسان في العصور القديمة غير هذا بعد ان كشف لنا الآثاريون اعمار الناس الحقيقيين من شواهد قبورهم في العراق ومصر واليمن وغيرها، وكانت جميعها في حدود متوسط عمر الانسان الطبيعي الذي نعيشه. لذلك فان مقارنة عمر نوح بعمر الامام محمد المهدي على ضوء أرقام الأسطورة

يسيء الى عظمة الامام كقائد سياسي وصاحب حركة سرية وإمام لمذهب اسلامي أصيل.

ورب سائل يسأل من اين اذن جاءت فكرة الغيبة الكبرى التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الامامية؟ والجواب عن هذا السؤال يرتبط بنجاح فعاليات السلطة العباسية ورتلها الخامس داخل الحركة الشيعية. لأن العباسيين - كما تشير بعض المؤشرات - هم الذين دسوا هذه الفكرة داخل صفوف الشيعة وأوصلوها الى أعلى مستوياتهم القيادية كأسلوب من اساليب القضاء على ثوراتهم المتواصلة ضد السلطان وكأسلوب لقتل روح المعارضة فيهم. فمن المعلوم ان الحركات الشيعية كانت تمثل اليسار المعارض في المجتمع العباسي، فخافها أرباب السلطان وعجزوا عن مقاومتها عن طريق الارهاب والتنكيل والاغتيال والقتل والسجن والتشريد فابتكروا وسيلة التغلغل في صفوفها لإفسادها فأوحوا بشكل ما عن طريق تغلغلهم في مجتمعات الحركة وتفننهم في صناعة الأحاديث والروايات ان زعيم حركتهم الأخير محمد المهدي لم يمت وانه في غيبة كبرى وسيعود في الظرف المناسب ليملأ الأرض عدلا وبهذا جعلوهم ينتقلون من صفوف الثوار الى صفوف الاتكاليين ينتظرون عودة المنقذ. ولو أنهم ادركوا مقاصد هذا التوجيه السياسي في حينه واعترفوا بموت امامهم لظهر بعده اكثر من زعيم يقود ثورتهم في سبيل الوصول الى السلطة وقلب نظام الحكم الفاسد. وكانت عناصر فكرة المهدي المنتظر متوافرة وجاهزة للقبول فهي متراكمة ومتفاعلة في نفوس جميع الشعوب المظلومة والمضطهدة إلى حد أنها أصبحت من صلب العقائد. فالى جانب تلاحم عقدة الذنب في توريط الحسين بن علي ومقتله قتلة مأساوية فهناك التكرار الحضاري لمثل هذا الاتجاه النابع من أعماق نفسية الشعوب وتطوره الفكري بأوسع أبعاده المكانية والزمانية. فهناك المسيح الحي المنتظر. وهناك الخضر الحي الذي يقول عنه المستشرق الاسباني (انخل جثنالث بالنثيا) في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي هو نفسه اليهودي التائه عند العبرانيين وهناك السفياني المنتظر وهناك غيرهم ممن تطرق اليهم غير كاتب وباحث وناقد وربط وجودهم بحكايات الخلود الميثولوجية.

وقد حدث التباس معقد بين كلمة المهدي ذات الدلالة الروحية وكلمة المهدي ذات المعنى المجازي أو الصفة للانسان العادي. وكان أول من نعت بالمهدي مجازاً النبي محمد نفسه فعندما مات رثاه حسان بن ثابت بقوله:

ما بال عينك لا تنام كأنما ... كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً ... يا خير من وطىء الحصى لا تبعد

وحتى بعض خلفاء بني أمية وصفوا بالمهدي. فقال الفرزدق في مدح سليمان بن عبد الملك:

سليمان المبارك قد علمتم هو المهدي قد وضح السبيل

فمن جراء تطور الكلمة من المعنى المجازي الى اسم العلم ضاعت الحقيقة بين الانسان محمد المهدي الطبيعي الذي يأكل ويشرب ويتزوج ويتزعم حركة سياسية ويختفي حذر القتل ويموت وبين المهدي الروحي الذي يعيش آلاف السنين في غيبة كبرى ولا يموت. وقد ساعدت هذه الملابسات العباسيين على قتل روح الكفاح الذي كان يميزهم في بادئ امرهم فتحملوا بذلك كل حماقات السلطان. وقد انكشف امر بعض الذين اندسوا بين صفوفهم وتوصلوا الى مراتب قيادية معينة من أجل افراغ الحركة الشيعية من معناها الثوري ومحتواها السياسي وأبعادها الاجتماعية. كأبي محمد الشريعي وأحمد بن هلال ومحمد بن علي ومحمد بن علي الشلمغاني. وغيرهم من أخرجتهم الحركة الشيعية من صفوفها بعد اكتشافهم. ولكن انكشاف امر هؤلاء سواء أكان تسللهم للابتزاز المادي وتشويه معاني الحركة أو كان بتشجيع من السلطان أو كان بمبادرات ذاتية حاولوا التقرب بها من السلطة على حساب تخريب حركة الشيعة، لا يعني عدم وجود غيرهم ممن لم ينكشف أمره ولم تنتبه له الحركة فأوحى ما أوحى من الغيبيات لافساد الحركة كواضع رواية ابن الوجناء التي تحدثنا عنها وسنتطرق الى مقاصدها السياسية في نصها (رابع أربع وخمسين حجة بعد العتمة) وقبل تحديد المعنى السياسي بهذا النص علينا ان نفهم دقائق هذا الرقم. وقد سألت أكثر من شيخ مختص في علوم الشيعة وجاءني اكثر من تفسير فقال احدهم أن الحسين ابن الوجناء ذهب الى الحج أربعا وخمسين مرة وحدثت له هذه الحادثة في الحجة الرابعة بعد الخمسين وهذا التفسير لا يفيدنا إلا ان نفهم ان ابن الوجناء كان يعيش بعقلية جاهلية فيؤرخ الأحداث بسلوكه الشخصي ويعتبر بداية ممارسته الحج بداية للتاريخ كما يفعل الجاهليون في تاريخ أيامهم. هذا بالرغم من علامة الاستفهام التي نضعها أمام رجل يحج أربعاً وخمسين مرة ونتساءل متى بدأ يحج وكم كان عمره ونحن نعلم مخاطر طريق الحج في ذلك العصر. ولكننا يجب ان نتذكر أن هذه الرواية وضعت لكي يؤكد ابن الوجناء رؤيته للامام محمد المهدي في دار خديجة. وجاءني من شيخ آخر أن هذه الفقرة تعني الشهر الرابع من سنة ٥٤ أي ٣٥٤ للهجرة باعتبار ان الحجة تعني السنة. فما المقصود بهذا. ان عام ٣٥٤ للهجرة هو نفس العام الذي قتل فيه المتنبي وهو ايضاً نفس العام الذي انتخب الطالبيون فيه لأول مرة نقيباً لهم هو ابو احمد الحسين بن موسى كما ذكر ابن الجوزي. وهنا

اقول نحن متفقون على أن الغيبة الصغرى انتهت في عام ٣٢٩ للهجرة، ومتفقون أيضاً على أن الوكيل الرابع ابو الحسن علي بن محمد السمري لم يخلفه وكيل خامس للامام المهدي ومعنى هذا أن الحركة الشيعية بقيت بدون زعامة ظاهرة حتى عام ٣٥٤. ووجهة نظري التي يخالفني فيها من يخالفني ويؤيدني فيها من يؤيدني أن الشيعة في تلك الفترة انطلت عليها دسائس السلطة العباسية في فكرة المهدي الخالد في غيبة كبرى وخافت قيادتها العليا من انتخاب ممثل زمني لها او نقيب بعد انتهاء الغيبة الصغرى مباشرة حذر ان يطالب المتنبي بحقه فيها مرة ثانية كما طالب في شبابه فسجن بتهمة ملفقة. فساهمت الحركة بشكل مباشر أو مواسط في قتل المتنبي وانتخبوا لهم زعيماً جديداً هو النقيب الأول. ولكن السلطة العباسية لم يرق لها ذلك خوفاً من أن تتركز الزعامة بيد النقيب الجديد فيسبب لها المتاعب فعمدت الى اصدار ما نسميه في العصر الحاضر خبراً سياسياً يشير الى أن الامام محمد المهدي موجود في مكة في هذه السنة ٣٥٤ وقد رآه رجل اسمه ابن الوجناء وبهذا الخبر أو بهذه الرواية الموضوعة قللوا من شأن النقيب ودفعوا الشيعة مرة اخرى الى انتظار ظهور المهدي. واني ارى ان ابن الوجناء أو من روي عنه هذا الخبر احد اعضاء الرتل الخامس العباسي.

مرة أخرى أود اختراق قدسية الرواية وأتكلم عما سجله الرواة عن مقتل المتنبي وما جرى بينه وبين خادمه مفلح وهو يذكره بقوله:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمـح والقرطـاس والقلم

ففي الوقت الذي يتعذر حدوث مثل ذلك الحوار التمثيلي في معركة مصيرية أرى أن تلك الواقعة كانت مؤامرة سياسية ساهم فيها الطالبيون أنفسهم بعد أن قرروا إبعاده نهائياً عن طريق النقيب الجديد الذي انتخبوه وكان لقوله في مدح ابن العميد في نفس السنة الحاسمة ٣٥٤ للهجرة سبب مباشر في اتخاذ قرار قتله وإزاحته من الوجود لأنه بدأ يذكر اباه محمداً المهدي بأسلوب تشكيكي حيث قال:

فان يكن المهـدي من بان هديه فهـذا والا فالهـدى ذا فما المهدي

مما ألب عليه السلطة التي ترى مثل هذا القول يفسد اتجاهها الرسمي في قتل روح المعارضة عند الطالبيين كما الب الطالبيين أنفسهم الذين رأوا في هذا القول عودة المتنبي للمطالبة بحقه

في الامامة فقتلوه ثم وضعوا الروايات للتشهير بجبنه وتخاذله ومحاولة الفرار من المعركة التي كانت معركة إبادة.

أمر آخر لا بد من الاشارة اليه وهو اسلوب شرح معاني الكلام على ضوء تطور الكلمة عبر العصور. فقد قال المتنبي في صغره:

محبـي قيامـي ما لذلـكم النصل بريئـاً من الجرحـى سليماً من القتل

وقد حدد بعض مؤرخي شعر المتنبي تاريخ هذا البيت قبل سفره الى بلاد الشام للمرة الأولى. ومعنى ذلك أنه قاله وعمره دون الثامنة عشرة. ومن هذا المنطلق نضع علامات الاستفهام على ما يأتي:

ما هي اهمية المتنبي في ذلك العمر ليطلب منه القيام بثورة ومن هم محبو قيامه أو ثورته؟ وعلى من أرادوا الثورة؟ ولماذا أرادوا من هذا المراهق بالذات أن يثور؟ ولحساب من ولأي غرض؟

وقبل كل هذه الأسئلة ماذا تعني كلمة قيام؟؟ نحن نعلم أن مدلول الكلمة المفردة يتطور مع التطور الحضاري وأن كلمة قيام كان لها مدلول خاص في القرنين الثالث والرابع للهجرة غير المدلول الذي نفهمه الآن. وعلى سبيل المثال نفترض أن أحد أساطين اللغة أو كبار الشعراء بعث حياً وقلنا له (سيقوم الأسطول الجوي بغارة وهمية هذا المساء) فهل بامكانه تصور المعنى الذي يتبادر الى ذهن المواطن المعاصر فوراً؟ أبداً بالرغم من أن مفردات هذه الجملة سليمة البناء وذلك لأن التطور الحضاري أعطى مدلولاً آخر لكل كلمة. فكلمة قيام كانت تعني الثورة على الظلم أو على السلطان إلى جانب تخطيها المعنى السياسي إلى المعنى المذهبي فنعت الامام محمد المهدي نفسه بالقائم كما نعت بعض أجداده من الأئمة. فعندما استعمل المتنبي هذه الكلمة (محبي قيامي) قصد بكل دقة الثورة بشمولها الزمني والديني. فأي ثورة كانت تجول بذهن ذلك المراهق يشجعه عليها محبو قيامه أهي ثورة السقائين في حي كندة أم هي ثورة تنبثق من أحاديث شخصية ومجالات كثيرة من قبل ناس يعرفون الشيء الكثير عن أهمية المتنبي ونسبه فيطلبون منه أن يثور على السلطان ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملأتها دولة الخدم والجواري ظلماً وجوراً. وهل يجوز أن يكون الذين اختاروا المتنبي لهذا العمل الجليل بالرغم من صغر سنه لا يعرفون حقيقته ومركزه الأُسري والاجتماعي مما يدحض الأسلوب السمج الرخيص الذي قام به بن حجاج بتحريض من المهلبي عام ٣٥٢ للهجرة للتشهير بنسب المتنبي لأول مرة كما رواه الثعالبي حيث خرج الشاعر الماجن من مجلس

الوزير على ظهر بغلة وقد علق في رقبتها شعراً يشتم فيه المتنبي ويزعم أنه ابن سقاء كوفي، وطاف أزقة الكرخ. فهل هذا أسلوب اثبات نسب ام أسلوب تشهير نقصود؟ ثم لماذا أزقة الكرخ بالذات دون أزقة بغداد الأخرى؟ لقد اخبرنا المؤرخون أن الكرخ كان مسكناً للشيعة الامامية فاعلان الخبر في حي الكرخ بالذات له دلالة في إبعاد المتنبي عن نسبه الحقيقي بسابق اصرار.

وأخيراً أود أن أكرر أن الذي طرحته لم يكن غير فرضية قد تخطو لتكون في صف الحقائق التاريخية الثابتة.

وقد تقف عند حدها، ولكن من الجدير بالاشارة إلى أن هناك من دفع هذه النظرية الى الأمام من النقاد كالاستاذ وديع فلسطين وقد كتب لي يقول: (وقد اعجبني استبسالك الفريد في حصر جميع القرائن والأسانيد للوصول الى اثبات هذا النسب الضائع في أحقاب التاريخ) كما كتب لي الدكتور صفاء خلوصي يقول: (فان نظريتك القيمة هذه ستُدرس وتدرّس وستؤدي إلى شرح جديد لديوان المتنبي قد لا يرضي بعض المتنطعين ولكنه يرضي العقل والمنطق). وأكثر من ذلك فقد حدثني الشاعر العراقي رشدي العامل أن النصيرية يحتفلون سنوياً بميلاد المتنبي احتفالاً دينياً ومن المعروف أن رشدي العامل نفسه من الطائفة النصيرية الشيعية.

عبد الغني الملاح

مقدمة الطبعة الأولى

يسرني ان اقدم للقراء هذه الدراسة الطريفة القيمة التي كتبها الاستاذ عبد الغني الملاح عن جانب من جوانب حياة شاعر العربية الكبير ابي الطيب المتنبي. والتي سبق لمجلة «الثقافة» ان نشرتها في سبعة اعداد متتالية ابتداء من عددها الخامس الصادر في مايس ١٩٧٣. ورغم ان المتنبي كان ولا يزال يمثل الصف الأول من شعراء العربية القدماء والمحدثين.. ورغم انه حظي باهتمام الباحثين والمؤرخين والنقاد. ليس بعد موته فحسب وانما في حياته ايضاً فألف عنه ما لم يؤلف عن غيره من الكتب والدراسات وكتب حوله ما لم يكتب حول سواه من البحوث والمقالات، فان الجانب الذي تناوله الاستاذ الملاح ونعني به نسب المتنبي بل وعلى وجه التخصيص والد المتنبي بقي محوطاً بالغموض والابهام. يمر عليه الباحثون مر الكرام، مكتفين بذكر الروايات المختلفة والمتضاربة حول هذا الموضوع والتي لا تنسجم مع ما جاء في شعر المتنبي نفسه عن نسبه غير مكلفين انفسهم عناء تفسير هذا التناقض وحل اللغز المحير الذي خلقته احاديث الرواة والمؤرخين المبهمة عن الأديب المغمور الذي كان يسقي الماء في الكوفة والذي اطلق عليه آنا الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي وطوراً عبدان السقاء وحيناً غير هذا وذاك.. وبين اشارة المتنبي الى ابائه وجدوده الواضحة رغم ما فيها من حذر.. حين يقول:

وبهم فخر كل من نطق الضا   د وعوذ الجاني وغوث الطريد

أو حين يقول:

سيعلم الجميع ممن ضم مجلسنا   بأنني خير من تسعى به قدم

او حين يقول مخاطباً جدته :

ولــو لم تكونــي بنــت اكرم والد ... لكان أبــاك الضخــم كونــك لي اماً

وغير ذلك مما أورد الاستاذ الباحث وحلله بأسهاب في دراسته هذه ...

لقد ولد المتنبي وعاش في العصر الذهبي للحضارة العربية الاسلامية (القرن الرابع الهجري) عصر الكتابة والتدوين والتقدم الفكري والأدبي وازدهار حركة التأليف واستطاع ان يقيم له مجداً أدبياً شامخاً اعترف به عصره والأجيال التي جاءت بعده حتى الوقت الحاضر، أليس هو القائل :

أنــا الــذي نظــر الأعمــى الى ادبي ... وأسمعــت كلماتــي من به صمم
أنــام ملء جفونــي عن شواردها ... ويسهــر الخلــق جراهــا ويختصم

والقائل :

ومــا الدهــر الا من رواة قصائدي ... اذا قلت شعــراً اصبـح الدهــر منشدا
فســار به من لا يســير مشمراً ... وغنــى به من لا يغنــي مغردا

ومع ذلك فقد اسدل ستار كثيف على نسب المتنبي وعلى والده .. وكأن ارادة خاصة قد تعمدت ذلك وسعت اليه . بل وحرصت كل الحرص على ان تبقيه مسدلاً لا ينفذ منه ضوء .. وقد اسهم المتنبي لحد كبير في هذا التآمر على نسبه . رغم انه كان يضيق احياناً فتنفلت منه الكلمة او البيت ليثقبا هذا الستار..ومن هذه الثقوب تطلع الاستاذ الباحث ليكشف بعض ما وراءه .. وكان لذلك كله ما يبرره . فقد كان نسب المتنبي مرتبطاً بقضية كبرى تهون في سبيلها التضحيات ..

لقد اخذ الاستاذ عبد الغني الملاح على عاتقه مهمة عسيرة وشاقة . وهي ازاحة هذا الستار الكثيف عن والد المتنبي وكشف طبيعة المؤامرة التي جرت على نسبه . بعد الف عام من وفاة شاعرنا الكبير زادت في تراكم الغبار على هذا الجانب من حياته وضاعفت في العقبات التي تحول دون كشفه وقد استخدم الباحث بذكاء حاد وحس مرهف اولاً الأخبار القليلة المتناثرة في كتب التاريخ حول نسب المتنبي وحياته وعلاقته بجدته . وهي الشخصية الوحيدة المعروفة من اسرته . واستعمل ثانياً التواريخ ببراعة فائقة جعلت من آرائه في هذا الموضوع حلقات متماسكة وممكنات تاريخية ليس من اليسير دحضها . ولجأ ثالثاً الى شعر المتنبي يحلله بلباقة وعمق ويجعل منه لساناً بليغاً للتواريخ ومصدراً اساسياً للمعلومات واستخدم رابعاً لملء

الفراغات التي بقيت بعد كل ذلك المنطق والعقل لربط الأحداث والأقوال مع بعضها البعض للوصول الى الحقيقة وكشف ما لم يرد صراحة في النصوص. كما استعان خامساً بالنظريات النفسية الحديثة لفهم ظواهر قد تبدو غامضة لأول وهلة. فاذا بالتحليل النفسي يجعل منها اموراً واضحة عادية وجزءاً من الواقع المألوف.

وبعد ذلك كله توصل الباحث الى نظريته وهي ان المتنبي هو ابن لمحمد المهدي الامام الثاني عشر حرص ذووه المشرفون على نشأته كما حرص هو نفسه على كتمان نسبه تحت ضغط الظروف التاريخية التي احاطت به وبالحركة الشيعية التي يرتبط بها..

ارجو من القارىء ان لا يتعجل الحكم على هذا الرأي او هذه النظرية قبل قراءة هذه الدراسة واستيعابها استيعاباً تاماً. فما يبدو غريباً مذهلاً الآن. قد لا يبدو كذلك بعد ذلك.. واذا كنت واثقاً ان ما ذكره الاستاذ عبد الغني الملاح من ادلة وما قدمه من اسانيد لنظريته هذه قد لا يجعل منها في نظر كثير من القراء حقيقة علمية ثابتة. فان الشيء الذي لا شك فيه ان ينقلها من مجرد فرضية الى نظرية علمية لها ما يبررها وانها كأي نظرية علمية تحتاج الى المزيد من الدراسة والتتبع والبحث لكي تأخذ صفة الحقائق العلمية.

لقد اسهم الاستاذ الملاح بهذه الدراسة اسهاماً كبيراً في دراسة جانب مهم من جوانب حياة اكثر شعراء العربية. ووضع معالم الطريق لدراسات اخرى في هذا الاتجاه ستزيد دراساتنا الأدبية دون ريب ثراء وتغنيها معرفة وعمقاً. فله على كل حال فضل الرائد وأجر البادىء.. وتبقى الكلمة الآن لباحثينا والمتخصصين بدراسة تاريخنا وأدبنا ليقولوا هم ايضاً كلمتهم في هذا الموضوع فذلك هو طريق الوصول الى الحقيقة ليس غير.

الدكتور صلاح خالص

الفصل الأوّل

« الشاعر أحمد بن (...) ينطوي على أمر ابيه »

ان معظم القدماء لم يعيروا أهمية لمثل هذا السؤال : - ما سبب كتمان الشاعر احمد بن (...) الملقب بأبي الطيب المتنبي لاسم ابيه وأمه ولم يذكرهما بخير أو بشر في أدبه وشعره طول حياته سوى مرة واحدة يوم حاول أن يطالب بحقه من أب ونسب معينين فأخذ بذلك وأودع السجن بتهمة ، ادعائه النبوة .

وحتى معظم المحدثين الذين درسوا جوانب متعددة من جوانب حياة المتنبي وأدبه لم يحاول أحدهم ملء القوسين الخاليين (باسم) يصلح أن يكون (أباً) لهذا الشاعر مكتفين بسرد ما رواه الرواة والأخذ به أو ببعضه على علاته .

وفي كتابي هذا أود أن اتساءل مع المتسائلين عن نسب أحمد بن (...) الشاعر الكوفاني المعروف بأبي الطيب المتنبي . واضيف على هذا التساؤل سؤالاً آخر.

هل بمقدورنا أن نضع بدل هذه النقاط (...) المحصورة بين قوسين اسماً حقيقياً لوالد حقيقي للمتنبي متجاوزين بذلك كل الاعتبارات التي دفعت المتنبي الى الانطواء على إظهار اسم ابيه ونسبه فيموت في غصة من امره ، وجعلت أهل زمانه من وراء ذلك الانطواء ينفذون أخطر مؤامرة وأقذرها في ابعاد الابن عن ابيه وهضم حقه فيه من أجل تحقيق أغراض طبعت ذلك العصر بطابع التناقضات السياسية والاجتماعية والمذهبية ؟

قد يكون الجواب صعباً ، وخصوصاً عندما نجد الرواة قد وضعوا بين أيدينا عدة أسماء في آن واحد . فبعضهم قالوا انه : -

احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي .

وغيرهم قالوا انه : -

احمد بن الحسين بن مرة .بن عبد الجبار الجعفي .

وآخرون قالوا انه : -

احمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي[1] .

وزعم غير اولئك أن أباه كان شيخاً يسمى عبدان السقاء وكان جعفياً صحيح النسب.

وتجاه تعدد هذه الروايات وهذه الاختلافات في اسم الأب واسم الجد واسم جد الجد. على المنصف أن يقف متأملاً في سبب ذلك الاختلاف. وخصوصاً ان المتنبي لم يعش نكرة بين الناس ليجهلوا اسم ابيه الحقيقي، ولا مغموراً في صف الطفيليين او المتطفلين ليهمل اسم والده ولا يستقصي خبره من خلال حياة ابنه الذي شغل الدنيا. هذا بالاضافة الى أن (المتنبي) شخصياً لم يرو عنه أنه ذكر اسم أب انتسب اليه طيلة حياته الحافلة في قصور الملوك والأمراء والوزراء والسراة .. فما المانع ـ اذن ـ ان تكون هذه الأسماء كلها لرجل واحد استعارها بفترات مختلفة متنكراً بها او مختفياً وراءها تقية من أهل زمانه وحذراً من السلطان وخوفاً على نفسه من الهلاك وعلى قضية كان يعمل لها او ينتمي اليها من الفشل ؟.

من هذا المنطلق سأجرب أن اضع الاسم المعقول بين القوسين الفارغين ليكون اسماً لأبي (احمد) الشاعر الكوفي. ورائدي في هذه المحاولة علم النفس ومشتقاته التي تحتم على الباحث أن يسأل دائماً لماذا ؟.. وعلى ضوء هذه الـ (لماذا) نرفض الأخذ بظاهر القول ومعانيه اللفظية المجردة كما نرفض الأخذ بظاهر السلوك ومعانيه الآنية أو الظرفية المجردة. وإنما يتحتم على الباحث أن يتجاوز النواحي اللفظية والبلاغية في القول والنواحي الظرفية والمناسبات المباشرة في السلوك.

إن الجواب المنطقي للسؤال : لماذا ؟ يتعلق بالتغلغل في اعماق النفس الانسانية لفهم الدوافع الحقيقية للكلام المعين أو السلوك المحدد.

لماذا قال المتنبي (كذا) في الموقف الفلاني ؟

لماذا قال المتنبي (كذا) من غير اعارة اهتمام لرضى أو غضب اصحاب العلاقة بذلك القول ؟

---

(١) مجلة المقتطف العدد الصادر في ١/كانون اول/١٩٣٦ محمود محمد شاكر. انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي

لماذا قال في مجلس سيف الدولة امام الأمراء والوزراء والسراة والشعراء الآخرين:

سيعلـم الجمع ممـن ضم مجلسنا   بأننـي خـير من تسعـى به قدم

ما سبب هذه الصلافة؟

ما سبب هذا التعالي؟ وسبب هذا الترفع والتنبؤ[١].

ما سبب أزمته النفسية الذي دعاه الى هذا الصراخ في وجه سيف الدولة وحاشيته؟

ما سبب هذا التحدي؟

لقد اصبح من المسلم به في علم التاريخ الحديث أن القدامى اساءوا الى الكثير من الشخصيات التاريخية والأحداث التاريخية بسردهم الواقع سرداً معتبرين مظاهرها العامة من مبررات وجودها أو حدوثها، مستندين في ذلك إلى الرواية - المبالغ بها - حباً للشخص أو تأييداً للحادثة أو كرهاً للشخص أو معارضة للحادثة. وفي كل الأحوال كان الرواة ينقلون الكلام على علاته أو يضيفون عليه شيئاً من عندهم انسياقاً مع اسلوب عصورهم دون تقدير لخطورة مثل هذا التزييف على الشخص المتحدث عنه أو الحادثة المتكلم فيها - حتى لو كانت الدوافع حسنة - وكان للانفعالات الشخصية عند الرواة أثرها الكبير في طمس معالم كثير من الحقائق المهمة او تجسيد كثير من التوافه العرضية. وكان أكثر المؤرخين القدامى انصافاً وثقة والتزاماً يعمد الى تسجيل كل الروايات على علاتها وتناقضاتها. وينسب كل رواية الى صاحبها بتقصٍ ومجهود وحافظة ذكية وأما الأكثرية من اولئك المؤرخين فكانوا يمجدون من يمجدون ويشهرون بمن يشهرون استناداً الى ما يتطلبه التاريخ الرسمي من مداهنة صاحب الأمر أو معارضة القائمين عليه وبالعكس.

وأمام هذه البديهيات اصبح من واجب المؤرخ الحديث أن يعيد النظر جذرياً وموضوعياً بكل ما وصل الينا من معلومات (مروية) على ضوء العلوم الحديثة والبحوث التحليلية في السلوك وعلم النفس.

صحيح أن علم النفس اكتشف حديثاً ولا يزال البحث فيه مستمراً لاكتشاف مجاهل أصوله وفروعه وتشعباته. ولكن هذا لا يعني أن قواعده وتأثيراتها على السلوك الانساني لم

---

(١) التنبؤ من النبوة وهي المرتفع من الأرض

ـكن موجودة أو لم يكن لها تأثير على تكوين الشخصية بصورة عامة منذ ظهور الانسان يحبو ـب ويمشي على قشرة الكرة الأرضية . ان اكتشاف غاز ثاني اوكسيد الكاربون - مثلاً - ـي كوكب الزهرة مؤخراً لا يعني عدم وجوده منذ نشوء المجموعة الشمسية قبل بلايين السنين . ـ ـ عـي الأفـكار واحـلام اليقظـة والشعـور، واللاشعـور، والكبـت، والانفعـالات ، ـ ستجابات ، وغير ذلك من الاصطلاحات العلمية الحديثة وأثرها في تكوين شخصية الفرد ـعد كتشافه قواعد علم النفس لا ينفي أثرها في تكوين شخصية الفرد قبل اكتشافها ، بالرغم ـن جهل الأقدمين بتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على سلوك الانسان .

من هذه الزاوية علينا أن نبحث عن حقيقة الشخصيات الغامضة في التاريخ من أمثال ـ لمتنبي ، الذي انطوى الابن على امره ولم يذكره من قريب أو بعيد واختلف المؤرخون ـيه واختلف الرواة . والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو:

لماذا يكتم الانسان اسم ابيه او نسبه في عصر يكون فيه لاسم الأب وذكر النسب شأن يرتفع فيه الانسان أو ينخفض ؟ .

إن الجواب عن هذا السؤال لا يخرج عن نطاق حالة من الحالات الآتية : فاما أن يكون ـك الأب أو ذلك النسب من التفاهة المخجلة او الضعة غير المشرفة - بالنسبة لمفـاهيم عصر - مما تجعل (الابن) يتحاشى ذكر اسم ابيه أو التنويه به او يتحاشى ذكر نسبه أو لاشارة اليه تعزيزاً لوجوده الذاتي في مكان معين أو زمان معين ، وإما أن يكون ذكره أو تحدث عنه خطراً على (الابن) أو على (الأب) او عليهما معاً من قبل السلطان او من قبل هل الزمان أو من قبل خصوم يتعقبون ويترصدون الابن او الأب أو كليهما . وإما أن يكون ذلك الأب صاحب (قضية) كبيرة اصبح التستر عليها وعلى صاحبها واجباً تحتمه أهميتها وعلاقتها بناس آخرين كما اصبح ابعاد صاحبها عن الأضواء أمراً تستوجبه القضية من خصوم القضية ذاتها حتى لا يقع بيد خصوم في عصر تعصف به التناقضات - كالقرن الرابع لهجري - الذي عاش المتنبي نصفه الأول .

فمن أي صنف من هذه الأصناف كان والد المتنبي ؟ هل كان رجلاً تافهاً فخجل ابنه من ذكر اسمه وطمس حقيقته في جوف الزمن ؟ .

هل كان هارباً من العدالة فتستر عليه خوف العقاب أو الهلاك أو الوقوع بيد سلطان جائر ؟ .

هل كان رجلاً مهماً وصاحب قضية فانطوى على سره الكبير باراً بوعود قطعها على نفسه في صباه أو شبابه بعد أن أدرك خطورة البوح باسمه او الانتساب اليه ؟

وإذا أردنا الاجابة عن هذه الأسئلة بدقة علينا أن نتجول في ديوان المتنبي نفسه الذي يكاد يكون هو المصدر النزيه الوحيد الذي يفسر لنا دوافع الانفعالات التي عاشها احمد ابن (...) والأزمات التي جاشت في نفسه وهو يقبض على اسم وعلى سر كما يقبض المؤمن على جمرة من نار. إن كل المنطلقات التي انطلق منها الشاعر في تحديه للآخرين وفي غروره الذاتي وكبريائه الشخصي وهجائه للملوك ورضاه عنهم تشير إلى أنه لم يكن ابن رجل تافه ولا ابن رجل هارب من العدالة.

فها هو يقول في شبابه :

شمس اذا الشمس لاقته على فرس   تردد النور فيها من تردده
لن يقبح الحسن إلا عند طلعته   فالعبد يقبح إلا عند سيده
قالت عن الرفد: طب نفساً فقلت لها   لا يصدر الحر الا بعد مورده
لم اعرف الخير إلا مذ عرفت فتى   لم يولد الجود الا عند مولده
نفس تصغر نفس الدهر من كبر   لها نهى كهله في سن امرده

ولا يهمنا السبب المباشر في نظم هذه الأبيات أو غيرها من قبل المتنبي، وهل كان حقاً يمدح بها ممدوحاً أم كان يتكلم عن نفسه وجدانياً من وراء ممدوحه. وإنما وبكل تأكيد يهمنا أن نعرف لماذا تداعت مثل هذه الأفكار من أعماق نفسه الى لسانه ؟ بغض النظر عن كون مثل هذه الأبيات جيدة أو رديئة من نواحي اللغة والبلاغة والوزن. لأن مثل هذا التداعي النابع من أعماق النفس يكشف عن (دفائن) في نفس الفتى، وكيف أن هذه الدفائن تنفجر تعبيرات في وجه الآخرين للدلالة على أنه ينطوي على (حسن) يقبح ضوء الشمس وعلى نهى كهل يحمله شاب أمرد وعلى شرف الكرم الذي لم يكن موجوداً قبل مولد انسان معين تمثله المتنبي في شخص ممدوحه رمزاً لدفائن نفسه.

وقد أيد ادلر[٢] تأثير التعاون الاجتماعي في الاسرة على تكوين شخصية الانسان منذ

---

(٢) من تلامذة فرويد ولد في احدى ضواحي « فيينا » في النمسا عام ١٨٧٠ وتوفي في الولايات المتحدة الاميركية عام ١٩٣٧م ويعتبر المؤسس الحقيقي لعلم النفس الفردي وله عدة نظريات في علم النفس والاجتماع.

طفولته وذلك بقوله (إن الشخص يعيش داخل السياق الاجتماعي منذ اليوم الأول لحياته ويفصح التعاون عن نفسه في العلاقات بين الطفل وأمه ومن ثم يدخل في شبكة من العلاقات الشخصية المتبادلة التي تكون شخصيته وتزوده بالمخارج التعويضية للكفاح من أجل التفوق[٣]) . وهذا يعني أن المتنبي صاحب الأبيات أعلاه كان قد نما في بيئة أسرية ذات أبعاد اجتماعية تتصف بمفهوم الخير والشرف والجود الذي يدل قبل او مع مولد أطفال الأسرة التي ينتسب اليها والتي يحمل أفرادها نفوساً تصغر في عينها نفس الدهر وتحمل عقولاً منذ شبابها بنضوج عقول الكهول فاستغل صاحب الكلام المناسبة بوجود ممدوح معين ليفجر امامه هذه المعاني المكبوتة في أعماق نفسه . ومن أمثال هذه المتنفسات نقدر أن نتتبع تشعب شبكة العلاقات الشخصية التي زودته بالمخارج التعويضية في أفكاره ومفرداته في شعره . وقد استمر هذا الأسلوب في تعامله مع الآخرين ومع جميع ممدوحيه . وليس من حقنا الاعتراض على المتنبي في اختياره سبيل الشعر والمدح بالشعر لتأكيد تفوقه العقلي والأسري . وقد أعطى (الأستاذ ابراهيم العريض) تفسيراً دقيقاً ومنطقياً لذلك الاتجاه بقوله[٤] : (إن القضية كانت نوعاً من المقايضة لمعنى من معاني (المجد) بين الشعراء وممدوحيهم . فلا الشاعر كان بذي غنى عن محافل السراة لأنهم الطريق الأوحد الى مجده . ولا السراة هم في غنى عن تردد الشاعر عليهم أو توظفه عندهم ... فهذا الالتزام من قبل الشاعر لمذهب المديح - اذن - له عذره) . إلا أن احمد بن (...) كان قد سلك بدافع الكبت المتراكم في أعماق نفسه عن قضية (أب) حزم عليه الانتساب اليه . فسلك مسلك التعالي والتحدي والمفاخرة تعويضاً لحق مهدور في (نسب) وقد احتلت هذه التراكمات المكبوتة حيزاً في نفسه بالنسبة لظروف اسرته وظروف بيئته (الأولى) وتشعباتها في العلائق الاجتماعية . مما جعلها تنفجر بين آونة وأخرى متنفسات صارخة للاعلان غير المباشر عن مجد وشرف وأب وأسرة ، وذلك بعوامل تداعي الأفكار . وكان هذا الاتجاه غير الارادي بمثابة تبرير للتفوق الذاتي المنغلق على قضية عميقة الجذور تتعلق بحياة رجل يجب ان يبقى اسمه سراً ولا يصرح به ويبعد عن الأضواء خشية عليه .

ويجب ان ننتبه الى ذهنية ، أهل القرن الرابع الهجري وأعرافهم ومفاهيمهم لمعنى المجد

(٣) النظريات الشخصية ص ١٦٧ .

(٤) فن المتنبي بعد الف عام ص ٣٤ - ابراهيم العريض .

والشرف والكرم وعلى ضوء هذا الانتباه اننا نتساءل مرة أخرى عن الدوافع التي دفعت المتنبي الى القول من وراء مدح الحسين بن علي الحمداني الملقب بأبي العشائر:

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البا	حث والنجل بعض من نجله
وإنما يذكر الجدود لهم	من نفروه وانفذوا حيله
فخراً لعضب أروح مشتمله	وسمهري أروح معتقله
وليفخر الفخر اذ غدوت به	مرتدياً خيره ومنتعله
أنا الذي بين الاله به ال	أقدار والمرء حيثما جعله
جوهرة تفرح الكرام بها	وغصة لا تسيغها السفلة[٥]

إن هذه الأبيات تعطينا تفسيراً مقبولاً للألم الممض الذي كان المتنبي يحمله من شدة كتمان نسبه وحقيقة ابيه وأجداده فهي بمثابة تصريح بأنه ابن من بعضه يفوق أبا الباحث لأن النجل هو بعض من الذي نجله. فحاله اشبه بقدر أراد به الله ان يبين به المعجزة التي تضطر مثله على كتمان امر ابيه وشأنه ومثل هذا القول يشير بقوة الى علو نسب المتنبي اكثر مما يشير الى غروره. كما يشير الى قناعة الممدوح بصدق المتنبي في صيحته اكثر مما يشير الى تحمل ذلك الممدوح غرور شاعر يرمي الكلام على عواهنه طمعاً في جائزة. لأن مثل هذا الموقف يحتم على الشاعر ان يسلك مسلك المديح المطلق دون المفاخرة بالذات والظهور بمظهر يوحي بأن المادح اكبر شأناً من الممدوح. وهذا السلوك من قبل المتنبي تجاه الأمير الحمداني ابي العشائر يفسره لنا (هنري. أ. موراي)[٦] على أساس اعتبار ماضي الفرد وتاريخه لهما من الأهمية في سلوك الفرد ما يوازي اهمية سلوكه الحاضر في بيئته. ويجري التحليل النفسي بافتراض الأحداث - التي تقع في بداية العمر - محددات حاسمة لسلوك الراشد. ويؤكد (موراي) الأهمية الكبرى التي تعزى الى الدوافع (الاشعورية) للاهتمام الشديد والواضح بالألفاظ الذاتية أو الفاظ العفوية عند الفرد والتي تتضمن تقاريره وتصوراته. فعندما تكلم المتنبي عن (القدر) الذي جعله يقف مثل تلك المواقف في مدح رجال هم أقل منه شرفاً وانتساباً - حسب الأعراف المرعية - كان ينزح من أعماق نفسه حقيقة كونه جوهرة يفرح بها الكرام

---

(٥) ويقرأ هذا البيت في رواية اخرى (جوهرة تفرح الشراف بها)

(٦) هنري. أ. موراي: من اصحاب نظريات الشخصية بطريق الحذق في علم الحياة.

وأهل الشرف وغصة لا يسيغها السفلة. وكان يمتد بعمقه النفسي الى عهد طفولته ومولده من والد (غائب) عن أعين الناس مختف عن أعين الخصوم والرقباء ذي شأن كبير. ومثل هذا (القدر) جعله يطالب بنسب مهدور ومجد كان مرشحاً له بحكم صلته المباشرة بذلك النسب وذلك المجد ولكن الأقدار التي هي من إرادة الله جعلته يكافح بمرارة من أجل استرداد حقه :

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ ... كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا ... قليل اذا عدوا كثير اذا شدوا

فحقه اذن يرتبط بناس متلثمين باستمرار أو بتعبير آخر بناس متنكرين أو متخفين أو غائبين ومن كثرة اختفائهم وطول غيبة وجوههم وراء اللثام الحقيقي او (المجازي) صاروا كالمرد ولما ينبت الشعر في وجوههم. وهؤلاء المتلثمون الذين ذكرهم المتنبي بما يشبه التصريح ضمن سلوك تحدده الروابط التي يعمل الفرد على ايجادها لربط تاريخه بحاضره ربطاً مباشراً من خلال سلوك واع أو ربطاً غير مباشر خلال تأثير السلوك غير الواعي المتدفق من أعماق النفس والتراكمات المكبوتة. لا بد ان يكونوا اصحاب (قضية) تدعوهم الى الاختفاء او (الغيبة) وهم ثقال لا يزحزحون إذا لاقوا خصومهم وهم خفاف إذا دعوا ليوم كريهة في طلب مجد وصيانة (قضية) ورغم قلة عددهم فهم كثيرون إذا شدوا.

ومن أعمق التعبيرات النفسية التي انطلق منها المتنبي ضمن سلوك يفضح حقيقة صمته المتواصل تجاه أبيه أو تجاه (قضية معينة) أو تجاه اضطراره الى كتمان أمر ما، هما البيتان اللذان جاءا في قصيدة مدح بها سيف الدولة الحمداني :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ... ضعيف يقاويني قصير يطاول[٧]
لساني بنطقي صامت عنه عاذل ... وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل

وتجاوزا لكل الشروح التي قيلت في هذين البيتين فانهما لا يخرجان عن دائرة كونهما انسياقاً لواقع المتنبي الناطق بصمته والصامت بنطقه عن (قضية) فتداعت أفكاره من وراء أحجامه عن مجابهة أقزام الشعراء الذين أرادوا مطاولته فصمت لسانه عنهم ونطق قلبه ساخراً بهم ضاحكاً من جهلهم ومن جهل الناس بحقيقته فهم والناس في واد وهو وأمره في واد. وهذا

---

(٧) الضبن : تحت الابط.

الاتجاه في تحليل مقاصد المتنبي في شعره مبني على تجاوز (الموقف الآني) او (المناسبة المباشرة) للكلام المعين. لأن سلوك الشخص ما هو غير نتيجة حتمية لسلسلة من الانفعالات تمتد من حاضر الفرد حتى عهد طفولته. وتستخلص القيمة الحقيقية للكلام من دراسة الدوافع لمثل ذلك الكلام ولا يجوز مطلقاً الاكتفاء بالموقف او المناسبة. فاذا تكلم المتنبي عن السكوت والصمت فانه لم يقصد الموقف من شعراء معينين ولم يقصد مدح سيف الدولة للتعرض وإنما انفجر (لا شعوره) عن متنفس لشرح واقعه الاجتماعي الذي حتم عليه السكوت والصمت. غير أن الانفعالات المستمرة ذات الطاقة غير المحدودة تجعله في أكثر الأحيان يفصح متألماً عن (حقيقة) مغروسة في أعماقه.

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا ... د وعوذ الجاني وغوث الطريد
ان اكن معجباً فعجب عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد

إن كل التفسيرات لمثل هذا الكلام في الماضي وحتى الحاضر في شعر المتنبي لم تلمس الجانب الانفعالي فيها وبذلك لم تدرك مدى معالم ثورة نفس المتنبي فيها، تلك الثورة القائمة على كتمان شديد لأمر ما أو اسم او قضية ما. وهذا الأمر أو هذا الاسم أو هذه القضية يتعلقون مجتمعين أو منفردين بأجداد بهم فخر كل من نطق الضاد وهو من صفوتهم فحق لقومه أن يتشرفوا به كما حق له أن يفخر بنفسه التي تهب الشرف والمجد لقومه. وهذا المجد وهذا الشرف جزء من حقه في الحياة بل هو حقه كله فراح يطلبه بالقنا. (سأطلب حقي بالقنا ومشايخ: كأنهم من طول ما التثموا مرد).

غير أن معاملة أهل زمانه له كانت لا تليق بحقيقة انتسابه الى أجداد بهم فخر كل من نطق الضاد وحقيقة قضية اضطرته إلى الاحجام عن ذكر ابيه وأمه وعشيرته. وبدل أن ينصفه أهل زمانه جعلوا من انفعالاته وسلوكه في سن مراهقته مقارنة بينه وبين الأنبياء الذين اضطهدوا في أيامهم من غير انتباه الى العوامل الخفية التي دفعته دفعاً لا إرادياً إلى تشبيه حاله بحال الأنبياء مستنداً في ذلك الى قناعته الذاتية بحق له هو منه في مقام الصدارة:

ما مقامي بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود
أنا ترب الندى ورب القوافي ... وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الله ... «غريب» كصالح في ثمود

إن الانسان الذي يعجز عن الافصاح عن أمر ما لسبب قسري أو اضطراري فلا شك انه يستطيع الحصول على تعويض عادل بطريقة تحقيق التفوق على الآخرين. وقد يصبح هذا التفوق احد الأسباب القوية على اثبات الشخصية)[8] وقد كان هذا التعويض العادل في تفوق المتنبي مثيراً للدهشة ومستمراً ضمن انفعالاته المعبرة عن سمو اصله ومجد انتمائه الأسري في جميع فترات حياته.

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أني الفتى
واني وفيت واني ابيت واني عتوت على من عتا

وهذا الخطاب الموجه لأهل مصر وأهل العراق وأهل العواصم الذي اعلن فيه «المتنبي» بأنه (الفتى) وهو في معرض هجائه (لكافور الأخشيدي) لم يكن اكثر من بطاقة هوية. فكلمة (الفتى) هنا تعني بكل دقة أنه الانسان الذي يجب أن ينظر اليه من جوانب اصالته بعد ان وفى بوعده على كتمان امره وامر نسبه. وبعد ان ابى أن يكون شاعراً نهازاً أو مرتزقاً وبعد أن عتا على الحاكم الجائر. ان هذه الانفعالات الحادة توضح المنطلقات التي ينطلق منها المتنبي وهي منطلقات قائمة على مجد وشرف وسمو طبقي تخول له مخاطبة أهل مصر وأهل العراق وأهل العواصم كما يخاطب الملوك رعاياهم أو كما يخاطب الامام اصحابه. وهذا ما يجعلنا أن نستبعد بصورة نهائية احتمال كون المتنبي ابن «سقاء»، ابن «حرفي» في القرن الرابع الهجري كما زعم بعض الرواة. وقد أغنانا قاموس المحيط للفيروز أبادي عن ذلك في شرحه لمعنى كلمة عود وجمعها «عيدان» حيث جاء في شرحه هذا ان «عيدان السقاء» بالكسر كانت لقباً لوالد المتنبي. وأكد هذا الشرح وأضاف اليه كلمة (الامام) (تاج العروس)[9]. فقد جاء فيه ما نصه (وعيدان السقاء - بالكسر لقب والد الامام - أبي الطيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد المتنبي الكوفي الشاعر المشهور. وهكذا ضبطه الصاغاني. وقال كان أبوه يعرف بعيدان السقاء «بالكسر قال الحافظ وهكذا ضبطه بن مأكولا أيضاً». وقال أبو القاسم بن برحان هو احمد بن عيدان وأخطأ من قال بالكسر فتأمل).

وعلى ما يبدو أن والد المتنبي أو الشخص الذي اعتنى به في طفولته كان دقيق الأطراف فشبه بعيدان السقاء. ولكن التصحيف في النقل الذي حذف (نقطة) من حرف الياء

---

(٨) كارين هورني: صاحبة هذه النظرية، ولدت في هامبرغ عام ١٨٨٥م وماتت في نيويورك عام ١٩٥٢ وتلقت دراستها الطبية في جامعة برليت والتحقت بمعهد برلين للتحليل النفسي ما بين عامي ١٩١٨ - ١٩٣٢.

(٩) تاج العروس ج ٨ ص ٤٤٩ طبعة الكويت.

فأصبح باء وأصبحت الصفة اسم علم وأصبح المضاف اليه «مهنة» يمتهنها الأب المزعوم (عبدان السقاء).

ومن هذا نتوصل أن سكوت المتنبي عن نسبه واسم ابيه كان لسبب آخر لا علاقة له بأب مزعوم يمتهن حرفة السقاية.. وقد أشار بشكل غامض كتاب (الكنى والألقاب بجزئه الثالث) إلى كون المتنبي سليل قوم محترمين فيما إذا لم يكن علوياً.

ولأجل فهم طبيعة سلوكات المتنبي علينا أن نرجع به الى عهد طفولته وحتى عهد ولادته عام ٣٠٣ للهجرة في الكوفة التي كانت الحصن الحصين للعلويين (وعوذ الجاني وغوث الطريد) وملجأ المعارضين للسلطان العباسي الجالس في بغداد يأتمر بأمر قواده وجواريه وحاشيته الفاسدة. ويكاد يجمع المؤرخون ان هذا المولود بعد أن شب عن الطوق تثقف في مدارس اشراف العلويين في الكوفة. وهذا ما يدعونا الى التأمل الجدي بحقيقة هذا الطفل أو هذا الصبي كما يدعونا إلى التفكير العميق في المبررات التي جعلت المدارس الخاصة باشراف العلويين توافق على قبوله في مدارسها لو لم يكن في نسبه ذا مستوى يوازي المستوى الطبقي الذي يقبل فيه الطلاب وفي تلك المدارس (الخاصة).

ويجب أن لا نخضع تأملاتنا لتبريرات سطحية أو تبريرات تتفق وعصرنا الحالي. حيث ان لكل عصر قواعده ومفاهيمه العامة. ونحن نعلم جيداً أن مسألة قبول الطلاب في المدارس الخاصة حتى في عصرنا هذا تخضع لبعض الاعتبارات الاقتصادية أو الاسرية أو الفكرية يجب ان يتصف بها الطالب وتحظى بقناعة مسؤولي المدرسة بصحتها. فكيف في ذلك العصر الذي كان للمسألة الطبقية أو المذهبية أو الدينية القدر المعلى في الاعتبارات؟ فدراسة أحمد بن (...) اثناء طفولته في مدارس العلويين يؤكد بشكل واضح بأنه منهم أو من مستواهم. هذا ان لم يكن هو ابن نقيبهم أو ابن رجل مهم من رجالهم حتمت عليه ظروفه أو قضيته أن يغيب عن الأنظار ويبتعد عن الأضواء. وفي أسوأ الاحتمالات لا بد من وجود (شخص) يهمه شأن هذا الطفل أو الصبي فأوصى بقبوله في تلك المدارس وأراد له الانخراط بها والسير باتجاهها كما يتجه ابناء الأشراف العلويين. وكان المتنبي نفسه يعلم حقيقة امره فراح منذ صغره مندفعاً بأنفته واعتزازه بنفسه ساخراً من الناس أو (العامة) بفطرة شعرية قوية وعنجهية طبقية. فمر ذات يوم في صغره برجلين من أهل الكوفة قد قتلا جرذاً وأبرزاه يعجبان الناس من كبره فقال:

لقد اصبح الجرذ المستغير ... أسير المنايا سريع العطب
رماه الكناني والعامري ... وتلاه للوجه فعل العرب

كلا الرجلين أتلى قتله فأيكما غل حر السلب
وأيكما كان من خلفه فان به عضّة في الذنب

ومثل هذه السخرية التي نشأت معه كانت هي المنفذ لآلامه وما يضيق به صدره من آراء واحقاد[١٠]. ومن ضغوط عائلية من قبل (جدته) أو قبل الذين يعنون بتربيته تتطلب منه أن لا يبوح بشيء عن امر ابيه. ومنذ ذلك العهد بدأ يحس بخطورة القضية التي راحت تجسد عنده الأحقاد وتبلور الأفكار ضد خصوم كان المطلوب منه أن يكتم أمره عنهم. ولكن متنفسات عبقريته وانفعالاته لا بد لهما ان يتفجرا عن طموحات ذات صلة بأسرته - أبيه وأمه - ومن أحاط بهما. فقال مخاطباً احد العلويين وكان هذا العلوي قد قال له (ما أحسن هذه الوفرة) مشيراً الى خصلة الشعر المتدلية وهو لا يزال يافعاً في المكتب:

لا تحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة يعلها من كل وافي السبال

فهذان البيتان بمثابة صفعة للرجل الذي نظر الى (الوفرة) من الناحية الجمالية. بينما كان المتنبي يطمح نتيجة للضغوط الواقعة عليه منذ صغره الى القتال كي يعل ويسقي رمحه من دم كل طويل لحية. ومن المؤكد أنه لم يقصد جميع الرجال لأن اللحى الطويلة كانت من طابع العصر. وإنما كانت كلمة كل (كل وافي السبال) كناية عن الرجال الرسميين أو الحكوميين الذين - راح يحس - بأنهم يتربصون برجل غائب هو بمنزلة الأب الى الابن... أو أن هذه الكلمة (كل وافي السبال) كناية عن أولئك الذين يضغطون عليه بعدم ذكر نسبه فشعر وهو - في ذلك السن - انهم يتقصدون إبعاده عن أبيه ونسبه. فهذان البيتان يعطيان تفسيراً صادقاً لسبب اعتزازه بمجد يخوله أن يتباهى بوفرته يوم القتال، باندفاعات ـ وربما - بتهورات ناجمة عن صبي معتد بنفسه وبأسرته يعيش بداية مراهقته ضمن علاقات وثيقة متبادلة بين أوجه نشاطه العقلي المشتق من بيئته الخاصة ومجتمعه العام وبين قناعته الذاتية بعلو نسبه. وسمو أصله.

وقد اتضح لنا من سخريته (المعقولة) من الرجلين اللذين قتلا جرذاً وفاخرا بفعلتهما بسماجة وغباء المستوى الطبقي الذي خوله السخرية بدون تردد ولم يخولهما مستواهما الطبقي

---

(١٠) المقتطف عدد ١/كانون الثاني/١٩٣٦ ص ٤١ محمود محمد شاكر.

من إظهار الغضب أو الاقدام على التصدي لصبي هدم فخـرهما ببضـع كلمات وعرضـهما لاستهزاء الناس.

ومثل هذا الاتجاه العنيد او (العنجهي) لم يكن ليصدر - في ذلك العصر - من سليل طبقة. حرفية كطبقة السقائين ويمر صاحبه بدون زجر أو تعنيف من رجلين تعرضت هيبتهما ومباهاتهما بقتلهما جرذاً كبيراً للسخرية من صبي صغير. أو يمر صاحبها بدون عقاب من علوي في الكوفة[11]. قال له يا أحمد[12] (ما احسن هذه الوفرة) مشيراً إلى الناحية الجمالية فيها.

وهذه الـ (يا أحمد) المطلقة في مخاطبته - في المكتب - الذي يضم ابناء اشراف العلويين تكفي للدلالة على منزلة الصبي عند اترابه أو أساتذته. فالمناداة بالاسم المجرد عن الكنية توحي بتملق ذلك العلوي الصغير للشاعر الصبي نتيجة معرفته له ومعرفـة منزلتـه ولـكن (الصبي احمد) زجر ذلك العلوي بالبيتين المشار اليهما ليفهمه أن شأنه في الحياة غير شأن الآخرين.

---

(١١) البرقوقي ج ٣ ص ٣٤٩.

(١٢) المقتطف ١/كانون الثاني/١٩٣٦ ص ٣٣.

الفصل الثاني

مؤامرة الرواة على نسب أحمد

« أحمد » هي الكلمة الوحيدة التي أجمع عليها الرواة لتصبح الاسم الأول للشاعر ابي الطيب المتنبي. وأما اسم ابيه. واسم جده. فقد اختلف الرواة فيهما وتعددت الأسماء.

فمن هو أبوه ؟

ومن هي أمه ؟

ولماذا سكت « احمد » عن ذكرهما.

ولماذا تعددت اسماء أبيه وتباينت اسماء جده ؟

كل هذه الأسئلة تخطر ببال الباحث عن نسب « المتنبي » ويزيد عليها سؤالاً آخر.

هل يعقل أن احداً لم يسأله « من أنت » ؟ أو ما أنت ؟ وابن من أنت ؟ خلال السنوات التي عاشها متنقلاً في العراق وفي سوريا وفلسطين ولبنان[1] وخلال السنوات التي عاشها في بلاط الحمدانيين في حلب أو السنوات التي عاشها عند كافور في مصر وهل يعقل ان انصاره أو خصومه المعاصرين لم يستقصوا أخبار نشأته وهو الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس. ومدح وهجا وغضب ورضي ؟

اني ارفض الرأي القائل ان مثل هذه الأمور لم تكن تهم الناس يومئذ. بل العكس هو الصحيح لأن الانتساب والانتخاء، والانتماء العشائري كانت من أهم تقاليد ذلك الزمن وما سبقه وتبعه.

---

(١) كانت هذه البلاد تعرف ببلاد الشام واستعملتها هنا بهذه التجزئة تمشياً مع جغرافية العصر الحاضر.

وقد اعترف لنا أحمد بن (...) نفسه بأن هذه الأسئلة أو ما يشبهها كانت توجه اليه في كل بلدة يمر بها .

يقولون لي : ما أنت في كل بلدة ؟ وما تبتغي ؟ ما ابتغي جل أن يسمى

قالوا له - باعترافه - ما أنت ؟ وبحكم تداعي الأفكار اثناء الأحاديث الشفوية التي يوجه فيها مثل هذا السؤال لا بد وأنهم كانوا قد سألوه أيضاً ومن أبوك ؟ ومن هي عشيرتك ؟ وماذا تبتغي ؟

وقد أجابهم مؤكداً تهربه من الاجابة الصريحة فيما يخص أباه وأمه ونسبه وعشيرته انطواء على « امر جليل » افصح عنه بطريق اللاشعور وهو في معرض الاجابة عن الشق الأخير من كل هذه الأسئلة الملحاحة - في كل بلدة - فقال : « ما ابتغي جل أن يسمى »(٢) وهذه الجملة المقتضبة المختارة مفردات كلماتها اختياراً من قبل المتنبي الضليع بمعاني اللغة توضح للباحث التاريخي وللعالم النفسي « جلالة الأمر » الذي يكتمه هذا الرجل ويبتغيه من وراء كتمانه لاسم ابيه وحقيقة نسبه . وأي امر « جل أن يسمى » في مطلع القرن الرابع الهجري هو أعظم وأجل من امر ذي صلة بقضية لانقاذ الانسان من ظلم السلطان العباسي ونزواته وسيطرة « بني بويه » على مقاليد أمور الدولة وانهيار الخلق الكريم تحت وطأة ترهات الحياة ومباذلها ؟ وأي قضية كانت تنطبق عليها هذه الأبعاد في ذلك الزمان والمكان غير قضية « غيبة » الامام محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي ، للتفرغ وتهيئة الظروف الموضوعية لقلب نظام السلطة العباسية الفاسد وانقاذه من الهوة التي سقط فيها بعد سيطرة (الغرباء) وتفسخ المجتمع وانحراف الوزراء والولاة عن الشريعة الاسلامية والقومية العربية ؟ ومن هذا المنطلق صرخ الشاعر أحمد بن (...) ضمن قصيدة قالها يمدح فيها علي بن ابراهيم التنوخي في أوائل عام ٣٢٧ للهجرة .

وإنما الناس بالملوك وما يفلح عرب ملوكهم عجم
بكل أرض وطأتها امم ترعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه وكان يبرى بظفره القلم
اني وان لمت حاسدي فما انكر اني عقوبة لهم

(٢) شرح احمد امين هذه الفقرة نقلاً عن البرقوقي بما يشبه المأساة في الفهم من حيث قال « يريد المتنبي بذلك قتل الولاة والاستيلاء على املاكهم » راجع ظهر الاسلام ج ١ ص ١٥٥ ط ١٩٤٥ .

وكيف لا يحسد امرؤ علم   له على كل هامة قدم

وقبل الاسترسال ادعو القارىء إلى التأمل بالبيتين الأخيرين اللذين قالهما وهو في معرض مدح رجل من السراة المعروفين.

انـي وان لمت حاسدي فما   انكر «اني عقوبة لهم»
وكيف لا يحسد امرؤ «علم   له على كل هامة قدم»

ومن أجل ادراك المنعطفات التي كونت شخصية المتنبي لا بد من الرجوع ثانية الى عهد نشأته وطفولته في الكوفة ومناقشة الرواة فيا ذهبوا اليه عن تلك النشأة بعد المرور أولاً (بهوية) أولئك الرواة وحقيقتهم.

قالوا: «انه ولد بالكوفة في كندة سنة ثلاث وثلاثمائة»[٣] «وكان أبوه يعرف بعبدان السقاء».

ومن المعروف أن دعوى كونه «ابن سقاء» وأن هذا الأب اسمه «عبدان» أو انه كان يعرف بهذا الاسم لم يتردد صداها في التاريخ قبل عام (٣٥٢) وعلى وجه التحديد بعد أن «ترفع عن مدح المهلبي الوزير ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك «فشق» ذلك على المهلبي فأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه (وتباروا) في هجائه وفيهم ابن الحجاج وابن سكرة واسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادوا عليه فلم يجبهم ولم يفكر في اجابتهم وقيل له في ذلك فقال: اني فرغت من اجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء:

أرى المتشاعرين غروا بذمي   ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا[٤]

«وبلغ ابا الحسن بن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقيعة شعراء بغداد فيه واستحقارهم له وكان «حاسداً» له وطاعناً عليه هاجياً» زاعماً[٥] أن أباه كان سقاء بالكوفة فشمت به وقال:

---

(٣) يتيمة الدهر جـ١ ص ٥٢.
(٤) يتيمة الدهر جـ١ ص ٩٩.
(٥) كلمة «زعموا» انه ابن سقاء وردت في اكثر من مصدر من المصادر القديمة مما يدل على عدم ثبوت كون المتنبي ابن سقاء عند الرواة انفسهم او مما يدل على التشكيك بصحة ذلك وعدم الجزم به.

قولا لأهــل زمـــان لا خلاق لهم ضلوا عن الرشد من جهل بهــم ، وعموا
أعطيتــم المتنبــي فوق منيته فزوجــوه برغــم امهاتكم
لكن بغــداد جاد الغيث ساكنها نعالهــم في قفــا السقــاء تزدحم

وقال فيه أيضاً :

متنبيكم ابــن سقـــاء كوفا ن ويوحــى من الــكنيف اليه

ونلاحظ ان بعض شعراء (طغمة الوزير المهلبي) ادعوا انه هو نفسه كان السقاء الذي يسقي الماء بالكوفة :

أي فضــل لشاعــر يطلــب الفضــل من النــاس بكرة وعشيا
عاش حينــاً يبيع بالكوفــة المـا ء وحينــاً يبيع ماء المحيا

وللتعرف على طغمة المتآمرين وموتوريتهم ومنزلتهم الاجتماعية ومستواهم الأخلاقي لا بد من الاشارة الى بعض الحقائق المتعلقة بهم وعلى رأسهم المتآمر الأول (حســن بن محمـد المهلبي) الوزير. وقد نقل لنا المستشرق آدم متز عن بن مسكويه قوله[٦] (وكان الأمير معز الدولة امير العراق سريع الغضب بذيء اللسان يكثر من سب وزرائه . وكان يلحق (المهلبي) من فحشه وشتمه ما لا صبر لأحد عليه . بل كان يضربه بالمقرعة (وقد ضربه بالمقارع مائة وخمسين مقرعة) . ولكنه لم يعزله عن الوزارة . وشاور معز الدولة البويهي من حضره وقال : هل يجوز ان اطمئن الى هذا الرجل وقد لحقه مني هذا المكروه العظيم فقيل له (هناك من ضرب وزيره أعظم من هذا الضرب حتى كاد لا يطيق المشي ولا يقدر على الجلوس لما حل به)[٧] وروى لنا الثعالبي في يتيمة الدهر عن المهلبي هذه الرواية قبل استلامه الوزارة واننا اذ نسجلها إنما لحاجتنا اليها بعد قليل . قال الثعالبي (قالوا كانت حالة المهلبي الوزير قبل الاتصال بالسلطان حالة ضعف وقلة وكان يقاسي منها قذى عينه وشجى صدره . فبينا هو ذات يوم في بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الجراب والحراب إلا انه من أهل الآداب إذ لقي في سفره نصباً واشتهى اللحم . فلم يقدر على ثمنه ... فاشترى له رفيقه بدرهم واحد لحماً)[٨] .

(٦) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص٤٠ آدم متز.
(٧) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٨٥ .
(٨) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠٣ .

فمن هاتين الروايتين نفهم أن المهلبي الوزير كان قبل اتصاله بالسلطان يستجدي حتى اللحم فيشفق عليه رفيق سفر ويشتري له (بدرهم واحد لحماً وأصبح بعد اتصاله بالسلطان وزيراً يضرب بالمقارع ولا تهتز كرامته ولا تثور نفسه . ومن اخلاق العرب التقليدية يعتبر التصريح بالجوع أمراً معيباً والتصريح بالعطش أمراً غير معيب. فكيف يراد بنا أن نصدق الروايات التي خرجت من أو عن مجلس المهلبي هذا . وقد حرض بها شعراء بغداد وأغراهم للنيل من المتنبي باعتراف الرواة القدامى أنفسهم . وهل توجد دوافع لتحريضاته تلك وتآمره على نسب المتنبي غير شعوره بعقدة النقص من ماضيه المعيب وحاضره المقروع بالمقارع وبعد أن ترفع أبو الطيب عن مدحه ولم يأبه (بمركزه الوزاري) فأثار أحقاده وكوامن ضعفه فسعى للتشهير به .

وقد ساعد (المتآمر الأول) على حبك المؤامرة للطعن في نسب المتنبي زمرة من « المجان » كانوا يرتادون مجلسه ويلتفون حوله وكان شغلهم الشاغل صناعة الشتائم بأقذر الألفاظ ويسمون ذلك ظرفاً تمشية مع تفسخ العصر . من أمثال الخالديين وابن سكرة وابن الحجاج والأخير يقول عن نفسه معترفاً بسخفه :

وشعري سخفه لا بد منه فقد طبنا وزال الاحتشام
وهل دار تكون بلا كنيف فيمكن عاقلاً فيها المقام

ويقول أيضاً :

سيدي سخفي الذي قد صار يأتي بالدواهي
ـت تدري أنه يد فع عن مالي وجاهي

ويقول :

قد قلت لما غدا مدحي فما شكروا وراح ذمي فما « بالوا» ولا شعروا
علي نحت القوافي من معادنها وما علي إذا لم تفهم البقر

ومن أخطر المتآمرين على - نسب المتنبي - وربما من أذكاهم كان القاضي (أبو علي ـتوخي) الذي كاد أن يكون هو المصدر الوحيد للروايات الموضوعة عن المتنبي وأبيه ـسقاء) ومن الجدير بالذكر أن (أبا علي) هذا قد استدعاه (المهلبي) الوزير لصداقة

كانت بينه وبين أبيه وقلده عملاً وكان يلازمه دائماً[٩].

وهؤلاء بالاضافة إلى أن أبا الفرج الأصفهاني الذي ذكر (أحمد بن عبدان السقاء) الشاعر والكوفي والذي كان نفسه من أصحاب المهلبي الوزير، هم المتآمرون الذين ترددت صدى دعواهم بعد عام ٣٥٢هـ وليس قبل هذا التاريخ.

ومن هنا نجد أن مصدر كون المتنبي ابن سقاء هو مجلس المهلبي الوزير ومن لف لفه، ذلك الوزير الموتور من الاشراف من كثرة المقارع التي كانت تلحقه من (الأمير) لذلك لم يتردد عن التشهير بالناس عندما يترفعون عن مجاملته أو مدحه كما فعل المتنبي ولكي نعطي فكرة أوضح عن رأي المعاصرين بالمهلبي ومجلسه ورهطه نذكر ما سجله لنا ابن مسكويه في تاريخه حيث قال: عندما قدم بغداد الصاحب بن عباد وقصد المهلبي لزيارته منعه الحاجب من الدخول لانشغال المهلبي في بعض الأمور فكتب له بيتاً من الشعر وقال للحاجب ادخل هذه الورقة عليه. فقرأ المهلبي فيها:

أأترك محجوباً على الباب كالخصي ويدخـــل غـــيري كالأيور ويخرج؟

وعندما يصدر مثل هذا الحكم الماجن على مجلس المهلبي من قبل (الصاحب بن عباد) فذلك يعني بكل تأكيد ما يحمله بن عباد من الاستخفاف بزميله (المهلبي) وزمرته الماجنة ومجلسه الوضيع المتفسخ.

وبعد أن تعرفنا على هوية المتآمرين على نسب أحمد بن (...) ووضاعة سلوكاتهم وسلوك كبيرهم (المهلبي) في تحريض شعراء بغداد ومن تبعهم تقليداً أو محاكاة أو طماعاً بجائزة لا بد أن نسأل. لماذا اختاروا حرفة السقاية دون غيرها من الحرف الأخرى ذات المدلول الطبقي المهان في ذلك العصر.

إن الجواب عن هذا السؤال يتعلق بكوامن عقدة الذنب التي كانت تتفاعل في أعماق نفوس (المتآمرين) وتأثير اللاشعور على سلوكهم. فتركوا بصمات جريمتهم عند اقترافهـا. لأنهم كانوا يعرفون في قرارة انفسهم أن (الرجل) من سلالة شريفة. فأدت عقدة الذنب مفعولها الكامل في نفوسهم من غير إرادتهم فتركوا بصمة جريمتهم في اختيارهم - اللاواعي -

---

(٩) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ١٨٧ آدم متز.

حرفة السقاية لوالد هذا الرجل. وذلك لأن حرفة السقاية بالـذات تحمـل مدلـولاً رمـزياً لاستشهاد الحسين بن علي بن ابي طالب. فتكاد هذه الحرفة أن تكون لصيقة بالمعنى الديني العميق بعد استشهاد الحسين بن علي بن أبي طالب وهو يتحرق الى جرعة ماء وخصومه يمنعونها عنه. وأهل العراق حتى يومنا هذا. نجدهم في ذكرى الشهيد بعد العاشر من شهر محرم الحرام يسقون الماء في الدروب والطرقات والأحياء كسباً للأجر وتذكيراً بغدر جيوش يزيد بن معاوية في معركة الطف غير المتكافئة واضافة الى ذلك أن مهنة السقاية ذات صلة بالعطش ومن التقاليد العرفية يعتبر الاعلان عن الجوع امراً معيباً. ويعزى للحسين اعلانه عن عطشه خلال معركة الطف. ولم يعلن عن جوعه الذي كان لا بد قد اصابه. وهنا لنتذكر أن الوزير المهلبي قبل استلامه الوزارة كان لا يتورع عن اعلان حاجته لقطعة لحم فيشتريها له بدرهم رفيق سفر. وهذه النقيصة - حسب الأعراف - لا بد وأنها كونت شعـوراً بالنقص لدى المهلبي وهو في مرتبة الوزارة فسعى للانتقاص من غيره تحت تأثير كل ترسبات مفاهيم الجوع والعطش ومعنى السقاية فاختار ورهطه حرفة السقاية لوالـد المتنبـي عن طريق (العقـل الباطن) وعن شعور لا واعٍ.

وهناك ثمة بصمة أخرى - تركها الرواة - تفضح قصدهم في مؤامرتهم. وهي ادعاؤهم ان حي كندة الذي ولد فيه المتنبي كان يسكنه ثلاثة آلاف سقاء ونساج. فكم هو عدد السقائين - اذن - في الكوفة. إن كان هذا الرقم يشمل حياً واحداً. إن هذا الرقم الخيالي بمثابة تأكيد الكذب على صحة ادعائه ذلك التأكيد الذي يفضح الكذبة أكثر من تأكيدها فكأنما أراد الرواة بهذا الرقم أن يقولوا أنه سقاء ابن سقاء جار سقاء حتى الثلاثة آلاف جار. وكانت الفرصة المباشرة مهيئة لاخراج المؤامرة الى حيز التنفيذ من حيث أن (أبا المتنبي المباشر) أو ان الشيخ الذي رباه كان دقيق الأطراف فلقبه الناس بلقب عيدان السقاء (بالكسر) وما أسهل على المتآمر ان يصحف (عيدان) فيجعلها (عبدان) ويصحف السقاء (بكسر السين) فيجعلها (السقاء) بفتح السين وتشديد القاف. وقد انتبه ابراهيم العريض الى هذه المؤامرة بعد اطلاعه على اكتشاف عمر فروخ لشرح كلمة عيدان السقاء في قاموس المحيط للفيروز أبادي وكيف كانت لقباً لوالد احمد ابي الطيب المتنبي وليست اسماً له(١٠) وأكد هذا المعنى تاج العروس - وقد اطلعت عليه شخصياً - وزاد على صاحب المحيط كلمة

---

(١٠) مجلة العلوم اللبنانية عدد شهر مايس ١٩٦٣ مقال لابراهيم العريض.

(الامام) التي وصف بها شاعرنا ومن المعلوم أن كلمة امام لا تطلق جزافاً في قاموس لغوي أعد في عصر لا يمكن أن يوصف شخص بها ما لم يكن ذا صلة حقيقية بمدلولها من الناحية الدينية أو من الناحية الموروثة سلالياً. ولم يعرف عن المتنبي في حياته كلها أنه كان إماماً لمسجد أو جامع أو إماماً يأتم به الناس عند الصلاة أو مجتهداً في فقه أو حديث أو تفسير. مما يجعلنا نفكر جدياً بالناحية السلالية دون غيرها فدخلت الكلمة الى القواميس القديمة بتواتر مهموس حتى أخذت مكانها الحقيقي لتكون شاهداً (يتيماً) على أن المتنبي امام سليل امام وابن ائمة. فثبوت هذه الكلمة صفة لشخص المتنبي في قاموس موثوق بدقة اطلاع صاحبه وسعتها تؤيد وصولها اليه من مصدر يثق المؤلف نفسه به فسجلها مطمئناً في عصر لم يعد فيه حذر من إعادة الحق لصاحبه.

وكان محمود محمد شاكر قد اهتدى بثاقب بصيرته وجهد بحثه ودقته الى أن المتنبي كان ابن احد العلويين « ولا جرم من أن يكون من كبارهم » ففتح بذلك لنا الباب على مصراعيه للتعرف على ذلك العلوي الذي انجب المتنبي. يقول محمود محمد شاكر:

« ووجه القضية عندنا هو هذا: - تزوج رجل من العلويين - ولا جرم أن يكون من كبارهم - بنت جدة المتنبي - فحملت منه ووضعت أحمد بن الحسين (وهذا الحسين هو غير عبدان السقاء) ولأمر ما أراد هذا الرجل طلاق امرأته وفراقها ففارقها وطلقها فرجعت الى أمها بجنينها أو طفلها وحزنت حزناً أهلكها فاستلها الموت وذهب بها وبقي الطفل وكفلته جدته. ثم صرحت له بحقيقة امره وصحيح نسبه وحذرت الفتى من عواقب التصريح بنسبه حتى كان من أمره ادعاؤه العلوية بالشام فقبض عليه فاضطر الى الاخلاد والتسليم)[١١] ويناقش الأستاذ ابراهيم العريض هذا الرأي بقوله: « لا يا أخي محمود إن عيدان السقاء لا السقاء كما تحقق للدكتور عمر فروخ هو الحسين هذا الذي ينتهي نسبه الى جعفي بن سعد العشيرة » فهو الذي كان يتعهد المتنبي طفلاً في صغره - تحت - إرشاد جدته الصالحة - ويتنقل به كما تقول الروايات في البوادي حتى مات عنه صغيراً ولكنه لم يكن أباه ».

وإذا أردنا أن نجد صيغة تؤكد ما ذهب اليه الأستاذان (شاكر) و(العريض) في آن واحد. فعلينا أن نستقبل المولود الجديد الذي انجبه رجل من كبار العلويين ولا جرم أن يكون

---

(١١) المقتطف عدد ١/كانون الثاني/١٩٣٦ محمود محمد شاكر.

شيخهم أو امامهم من فتاة تزوجها (سراً) بطريقة متعارف عليها - في ذلك العصر - في الزواج كالتسري أو المتعة أو عقد المهر بمعزل عن ضجة الاحتفالات. وذلك لأهمية الرجل المتزوج ولوجوب او ضرورة كتمان امره أو وجوب وضرورة كتمان وجوده في الكوفة فولدت تلك الفتاة الطفل احمد. وعندئذ شعر أصحاب الوالد أو اصحاب قضية الوالد بحراجة موقفهم تجاه جوهر قضيتهم فأبعدوا الأم وطفلها عن الأب. إما بالطلاق وإما بحرمانها من مقابلة الأب المتخفي من أجل القضية الكبرى و(الغائب) عن أعين كل الناس حتى عن عين زوجته والمتنقل من بلد الى بلد خفية يعد العدة ليوم منتظر يملأ فيه الأرض عدلاً بعد جور السلطان العباسي ووزرائه الأغراب. وليس بمستبعد عن أصحاب (قضية سرية) ومهمة مصيرية أن ينذروا ام الطفل بالهلاك ان أباحت بسر والد طفلها أو علاقتها به. فماتت كمداً من الحزن وتركت طفلها الرضيع أو بعد ان شب عن الطوق مكفولاً عند أبيها وأمها فترعرع الطفل في كنفهما. ومات (الشيخ) جده لأمه الذي قد يكون هو نفسه حسين الجعفي الذي كان يتنقل به في البوادي فظنه الناس أباه أو هو قال انه ابني. وتركه بعد موته صغيراً برعاية جدته الصالحة وحدها فتشبثت ببعد نظرها وحصافة عقلها لدى من يعرفون حقيقة نسب حفيدها وأدخلته مدارس يدرس فيها ابناء اشراف العلويين. مما جعل (الأصفهاني) يقول بعد ذلك بزمن (ودخول احمد ابن عبدان السقاء بين ابناء العلويين في كتاب لهم غريب عجيب) وهذا العجب الذي أبداه الأصفهاني يكشف جانباً مهماً من جوانب مؤامرة الرواة على نسب احمد ابن (...) وقبل الانتقال عن تثبيت هوية (الشيخ الذي تعهد بتربية الطفل. ذلك الشيخ الذي سماه الرواة (عبدان السقاء) ، وكشفت حقيقته القواميس باعتباره كان يلقب (بعيدان السقاء) بالكسر أود أن اذكر القارئ بأني كنت قد افترضت في الفصل الأول أن الأسماء المتعددة التي تناقلها الرواة عن والد المتنبي قد تكون اسماء مستعارة لرجل واحد اختفى وراءها بظروف متعددة. وأما الآن فأرى أن استل منها اسماً واحداً تعرفنا عليه هو (حسين الجعفي) ونقول مرة اخرى ما المانع أن يكون هذا الشيخ الطاعن بالسن والملقب بعيدان السقاء لطول اطرافه أو دقتها هو جده لأمه وقد كفله ورعاه رعاية اب لابنه بعد افتراق الأم عن زوجها لسبب اقتضته ظروف الأب الزمنية والموضوعية بالنسبة لقضية القائم عليها. وخرج معه الى البادية حتى مات وتركه لجدته ترعاه برجحان عقلها وصلاحها. والذي يجعلنا أن نذهب هذا المذهب هو إجماع الرواة تقريباً على أن حسين الجعفي الملقب بعيدان السقاء كان شيخاً كبيراً. وفارق السن بين الشيخ الكبير والطفل الرضيع يشير الى علاقة جد بحفيد اكثر من إشارته الى علاقة أب بولد. وأن الروايات التي طبخها (التنوخي) في مطبخ المهلبي

الوزير عن الشيخ الذي يستقي الماء على بعير في الكوفة وعن نشأة المتنبي وما احتوته من التزويرات يفضحها الاضطراب والغموض والتناقض[١٢] وتنقصها الخبرة في الصياغة وقد كشف لنا ذلك محمود محمد شاكر بموضوعية معقولة.

إلا أننا نود ان نسجل تحفظاتنا فيما ذهب اليه الأستاذ شاكر في شرحه للبيتين التاليين اللذين قالهما المتنبي في صغره. من أنهما يدلان على تأثر المتنبي بالمعاني الصوفية والفلسفية:

كتمت حبك حتى منك تكرمة ثم استوى فيك اسراري واعلاني
كأنه زاد حتى فاض من جسدي فصار سقمي به في جسم كتماني

ان هذين البيتين جزء لا يتجزء من محنته في نسبه ومحنته في كتمان اسم ابيه بالرغم من اسلوبها في الأداء المتفق مع اسلوب المتصوفة. لأن اسلوب التعبير لا يخلو من وسيلة للافصاح عن المكبوتات في اعماق النفس ولا يصح ان نعتبره اسلوباً متميزاً في الأداء قبل الرجوع الى انطواء الشخص المعبر على أمر من الأمور في قرارة نفسه. وخصوصاً عندما نعلم أن المتنبي قال هذين البيتين - في صغره - أي في فترة (مراهقته) حيث يختار المراهق مفردات تعبيره للدلالة على كوامن نفسه العاطفية قبل العقلانية. تلك الكوامن التي تتفاعل بأعماق نفسه وتندفق ولا يختارها من قاموس إدراكاته المتأثرة بفلسفة أو ثقافة[١٣]. وحتى المتصوفين أنفسهم فان الرموز التي سطعت في أقوالهم لم تكن اكثر من تدفقات تعبيرية عن شعورهم لحاجات غيرمتوافرة لعقلهم الواعي. والمتنبي لم يكن في موقع اجتماعي يجعل عنده التصوف ذا أثر في تعبيراته أو يترك عنده الكبت الجنسي أو الحرمان من اللذة أثراً في تلك التعبيرات. (فالكتمان) الذي جاء في هذين البيتين يتعلق بجوهر محنته من شدة الضغوط من جدته الصالحة الواقعة عليه لكتمان امر نسبه. وقد سارت هذه الضغوط بين أسراره واعلانه. فعبر عن هذا التساوي بالتلميحات الكثيرة التي رددها في شعره على مدى تجواله وتنقلاته بعد خروجه من الكوفة.

---

(١٢) ناقش محمود محمد شاكر تلك الروايات باسهاب وفند المزاعم التي وردت فيها وفضح اغراض اصحابها فلم اجد ضرورة لاعادة سردها وانا اتفق مع رأي (شاكر) تماماً.

(١٣) يشرح ابو الفتح عثمان بن جني هذين البيتين هكذا: يقول: «اي تكرمة مني لك كتمت حبي اياك فكيف غيرك؟ يقول: كان الكتمان فأضمره وان لم نجد له ذكراً، لأن قوله كتمت يدل عليه، وفاض جسدي فيفشاه فانستر سقمي باستار جسمي بما غشيه من الكتمان الفائض عليه وجعل الكتمان لما اشتمل عليه كالجسم المؤلف من الكتمان والقسم الذي تحت هذا الكتمان الفائض من جملة جسمه كسقم حل جسماً من الكتمان.

راجع كتاب الفتح الذهبي في مشكلات المتنبي لابن جني سلسلة كتب التراث طـ وزرازة الاعلام ١٩٧٣

ومما توصل اليه الأستاذ محمود شاكر بعد دحضه لكل الروايات الموضوعة عن نسبه هو مكوث المتنبي في الكتاب الذي يدرس فيه أولاد أشراف العلويين حتى عام ٣١٧ وكان عمره عندئذ ١٤ عاماً. ومعنى هذا انه كان في سن المراهقة. عندما ترك الكوفة في طريقه إلى البادية لأمر لا يزال مجهولاً. واننا لا نستبعد خروجه من الكوفة كان تقية من خصوم. ومما لا شك فيه أن الأحداث السياسية وتناقضاتها كانت قد هزت عقل هذا الصبي وعواطفه هزاً فمن المعروف أن القرامطة غزوا الكوفة مرات في ذلك العهد وفعلوا فيها الأفاعيل وكانت الأمة العربية قد فشلت في إعادة غابر عزها السياسي لما لحقها من اختلاف الأمم وسيطرة الغرباء على مقاليد الأمور فكانت الحركات السرية المتسترة وراء المذاهب المتعددة وكثرة الثورات والانتفاضات ضد السلطة العباسية في كل بقعة من بقاع الدولة وكل حركة كانت تطمح إلى تقويم امور المسلمين وتقويم نظام السلطان المتداعي القائم على اضطهاد الناس بشعارات مذهبية كما حدث عام ٣١٣ عندما امر الخليفة (المقتدر) بهدم مسجد (براثا) في بغداد لظنه أو اعتقاده أن هذا الجامع قد اصبح مقراً للطالبيين الملتفين حول الامام محمد المهدي بن الحسن العسكري. وهذه الحادثة وغيرها مما تناقلته الألسن همساً أو صراحة لا بد ان يكون المتنبي قد سمعها مع أترابه العلويين في مدرستهم فاتسع خيال (الفتى المراهق) وهو يعلم حق العلم بعلاقة مثل هذه الحادثة بأسرته وآبائه واجداده ولكن الضغوط من قبل جدته الطيبة الصالحة والتي لا تزال تؤكد عليه خطورة البوح بحقيقة نسبه بدافع من حرصها عليه وحبها له جعلته يتمرد تأكيداً - لرجولته - كما يفعل كل المراهقين الذين في عمره ويسافر الى بغداد. وكانت أولى تجاربه القاسية ما حدث له في بغداد مع فكهاني وتاجر يملك مائة الف دينار. فقد روى بعض الرواة عنه قوله :

« أذكر وقد وردت في (صباي) من الكوفة إلى بغداد فأخذت بجانب منديلي خمسة دراهم وخرجت امشي في أسواق بغداد فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة. فاستحسنتها. ونويت ان اشتريها بالدراهم التي معي فتقدمت اليه وقلت : -

- بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ ؟ فقال بغير اكترات
- اذهب فليس هذا من اكلك. فتماسكت معه وقلت : -
- يا هذا دع ما يغيظ واقصد الثمن. فقال : -
- ثمنها عشرة دراهم.

فلشدة ما جبهني به. ما استطعت أن اخاطبه في المساومة فوقفت حائراً ودفعت له خمسة

دراهم فلم يقبل . وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهباً الى داره . فوثب اليه صاحب البطيخ من الدكان ودعا له وقال :

- يا مولاي هذا بطيخ باكور باجازتك احمله الى البيت .

فقال الشيخ : -

بكم هذا ؟ قال :

بخمسة دراهم . قال : -

- بل بدرهمين ..

فباعه الخمسة بدرهمين وحملها الى داره وعاد الى دكانه مسروراً بما فعل . فقلت له : -

يا هذا ما رأيت اعجب من جهلك ؟ استمت علي في هذا البطيخ وفعلت فعلتك وكنت أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولاً .

فقال : -

- اسكت هذا يملك مائة الف دينار .

قال المتنبي : فعلمت أن الناس لا يكرمون احداً اكرامهم من يعتقدون انه يملك مائة الف دينار وأنا لا أزال على ما تراه حتى اسمع الناس يقولون ان أبا الطيب قد ملك مائة الف دينار»(١٤) .

إن هذه التجربة التي رواها المتنبي عن نفسه بعثت في نفس الفتى ذي الأربعة عشر عاماً كثيراً من المرارة من واقع الحياة واصطدام خياله بالمفاهيم السائدة حينئذ في تكريم الثروة وتقديسها والاستعداد للاستذلال لها . ولا نستبعد ان تكون هذه التجربة وغيرها قد أثرت في نفس الفتى وعقله تأثيراً ايجابياً ، فقدر بعد نظر جدته وصواب رأيها بضرورة كتمان امره وأمر نسبه عن أهل زمن يبيعون الخمسة بدرهمين لمن يملكون المائة الف فكيف امثال هؤلاء سيصدقونه اذا اعلن عن هويته وطالب بحقه في نسبه . وقد تكون التجربة قد أثرت في نفس الفتى تأثيراً سلبياً فرأى أن بغداد هي المكان غير المناسب لاعلان هويته فتركها الى بلاد الشام للمطالبة بحقه بالعلوية وبنسبه منها .

---

(١٤) تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي : ج ٤ ص ١٠٢ كذلك روى هذه القصة غير البغدادي من القدماء .

الفصل الثالث

شيء عن القرن الرابع الهجري

لنترك الفتى المراهق « احمد » في بغداد ونعرج على أواخر القرن الثالث الهجري وندخل الى مطلع القرن الرابع الهجري نتجول في بعض مفارقاته السياسية من خلال التمزق الذي أصاب « الدولة الاسلامية » وجعلها مهشمة الضمير لا تجمعها رابطة فكرية لكثرة المذاهب وتشعباتها ولتسلط الجنود والقواد على الأمور العامة (فصارت فارس والري وأصبهان في يد .. بني بويه .. وكرمان في يد « محمد بن الياس » والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر في يد « بني حمدان » ومصر والشام في يد « محمد بن طغج الاخشيدي » والمغرب وأفريقيا في يد « الفاطميين » والأندلس في يد « عبد الرحمن الناصر » وخراسان في يد « نصر بن احمد الساماني » والأهواز وواسط والبصرة في يد « البريديين » واليمامة والبحرين في يد « القرامطة » وجرستان وجرجان بيد الديلم)[١] ولم يبق بيد الخليفة الا بغداد وأعمالها وسلطة معنوية عن طريق بعض هؤلاء الولاة فيذكرون اسمه في المساجد في اماراتهم.

وإلى جانب هذا التمزق السياسي بلغ التمزق الطائفي حداً دموياً واستغل الدين ابشع استغلال لتأييد السلطان او معارضته فكثرت - صناعة الحديث - وصناعة الروايات المكذوبة ، وتخاصم الناس حول تلك الأحاديث والروايات ونكلوا ببعضهم تنكيلاً جسدياً . لم يلق بكرامة الانسان ، مما جعل عقلاء الناس وأشرافهم « يغيبون » عن الأعين اتقاء الشر او يختفون وراء اسماء او « كنى » هي غير اسمائهم الحقيقية حذر الأذية أو يتسترون بمن تبعد عنهم أعين الرقباء أو يمكثون في بيوتهم (ولا يتصلون بأحد حتى لا ينقل عن لسانهم ما يهيج

(١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ١ آدم متز.

العامة قبل الخاصة فيهلكوا، ويخبرنا التاريخ أن «أبا بكر الصولي» المتوفى عام ٣٣٠ للهجرة اضطر على التستر في البصرة حتى مات لأنه روى خبراً في علي بن ابي طالب فطلبه العامة والخاصة لقتله. وأن محمد البربهاري الذي مات عام ٣٢٩ للهجرة متخفياً من السلطان عند اخت رئيس الحرس القائد توزون وهي التي اعلنت عن حقيقته بعد موته[٢].

وقد بلغ الخلاف الطائفي في تلك الفترة اشده. وكانت العادة - في بغداد - أن يتبع العامة مذهب رؤسائهم بلا تمحيص او ادراك فكثر الاضطهاد وكثرت ردود الفعل من جراء ذلك الاضطهاد وعم الفساد. ويروي لنا (ابن خلكان) حكاية توضح درجة الفساد التي وصلت اليها العامة من وراء جهلها بالأمور ودرجة تأثير الأحاديث الموضوعة والروايات المكذوبة على العامة، قال: (يحكي المقدسي انه كان يوماً بجامع واسط وإذا برجل قد اجتمع عليه الناس فدنا منه، فاذا هو يروي حديثاً يسنده عن النبي عليه السلام، قال: إن الله يدني معاوية يوم القيامة فيجلسه الى جنبه ويغلفه بيده ثم يجلوه على الناس كالعروس. قال المقدسي: بماذا؟ قال الرجل بمحاربته علياً: قال المقدسي، كذبت يا محتال، قال الرجل مخاطباً العامة خذوا هذا الرافضي، فأقبل الناس عليه وكادوا يفتكون به فعرفه بعض الكتبة وانقذوه).

وإلى جانب هذه الصورة نجد عبد الرحمن النسائي قد دخل دمشق وكان يتشيع فسئل عن معاوية وما روي عن فضائله. فقال: ما أعرف له فضيلة، فما زالوا يدفعونه حتى اخرجوه من المسجد وداسوه ثم حمل الى الرملة فمات وهو منقول بسبب ذلك الدوس[٣].

وقد بلغ الفساد والتعصب الأعمى ذروته في بغداد وقد كان (الحنابلة) يدخلون الدور في (الكرخ) فان وجدوا زقاً يابساً افترضوا أن أهل تلك الدار كانوا يشربون الخمر فيما مضى فيقتلونهم شيوخاً ورجالاً ونساء وأطفالاً. هذا بالاضافة الى الاعتداءات المتبادلة بين اصحاب المذاهب المختلفة على الأموال والأعراض وحرمة المساجد والجوامع. فيذكر المؤرخون ان الشيعة كانوا يجتمعون عام ٣١٣ للهجرة في مسجد (براثا) فعلم (المقتدر) أن قوماً منهم يجتمعون لسب الصحابة فاستصدر بهدم المسجد حتى سوي بالأرض. وكانت بغداد في تلك الفترة تضم اصحاباً متعصبين لكل الحركات الروحية. السرية منها والعلنية، وكان أنصار كل حركة يسكنون أطرافاً معلومة وأحياء معينة. ويذكر ياقوت الحموي[٤] (ان محلة باب البصرة كلهم

---

(٢) نفس المصدر السابق ج ١ ص ١٠٢.

(٣) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ١٠٣ آدم متز.

(٤) معجم البلدان.

حنابلة بينما أهل الكرخ كلهم (شيعة امامية) وكانت كل جماعة تتربص بالأخرى فيما إذا لقيت تشجيعاً من السلطان أو انفعالاً من العامة فتصطدم دموياً مع الجماعة الأخرى) . ومثل هذه الحالة كانت سائدة في المدن الأخرى أيضاً ولو بالحد الأدنى من التصادم والانفعال. لذلك كان العلماء والفقهاء يختفون عن الأنظار حفظاً لأرواحهم وصيانة لكراماتهم أو (ادارة شؤون مذهبهم السياسي والديني من وراء غيبة عن الأعين وتستر عن الرقباء) وكان الامام محمد بن الامام الحسن العسكري أبرز الغائبين لقيادة قضية كبرى تطمح إلى إشاعة العدل بعد أن عم الجور والفساد وكثرت الفتن وتمزقت الدولة الاسلامية وسيطر الغرباء من جند وقواد وولاة ومماليك على مقاليد الدولة.

ومن المعروف أن الامام محمد المهدي ولد في سامراء عام ٢٥٥ للهجرة أو عام ٢٥٦ للهجرة[٥] واختفى عن الأنظار طفلاً عمره خمس سنوات. واستمر بعيداً عن الأنظار في غيبة دامت ٦٩ عاماً[٦]. وقد صحب غيبته الصغرى أربعة وكلاء كانوا هم الصلة بينه وبين انصار القضية الكبرى) التي كان ووكلاؤه يعملون لها بسرية وحذر تامين.

ولفهم الطبيعة السياسية للفترة التي عاشها الامام محمد المهدي لا بد أن نذكر أن الخليفة المعتز الذي قتل عام ٢٥٦ للهجرة[٧] كان آخر خليفة جلس بنفسه متصدراً ديوان المظالم[٨]. بمعنى هذا أن الجنود والقواد تمت سيطرتهم حتى على (ديوان المظالم) الذي كان يمارس الخليفة فيه القضاء بين الناس في منازعاتهم الزمنية والدينية. وتسلم الخلافة بعده المعتمد وكان المسيطر الحقيقي على مقاليد الأمور في عهده، اخوه الموفق. وهو الذي قضى على (ثورة الزنج) في جنوب العراق، بعد أن دامت أربعة عشر عاماً. ومن المعروف أن تلك الثورة كانت قد قامت لأسباب اقتصادية واجتماعية، بالاضافة الى كونها (مهدوية) تنتظر ظهور المهدي ليملأ الدنيا عدلاً. ويبدو (لي) أن هناك صلة روحية أو صلة معارضة للسلطان كانت موجودة بين ثورة الزنج وبين (الطالبيين) أصحاب الامام محمد المهدي بن الامام الحسن العسكري،

---

(٥) كتاب الغيبة ص ١٣٩ - الطوسي -.

(٦) تسمى هذه الغيبة وقد دامت ٦٩ عاماً بالغيبة الصغرى. ويعتقد اصحاب الامام الغائب ان الامام بعد غيبته هذه دخل في غيبة كبرى لا تزال لحد الآن. وأما الخلفاء العباسيون الذين جاءوا في هذه الفترة فهم المعتمد. والمعتضد. والمكتفي. والمقتدر. والقاهر. والمكتفي. والراضي الذي مات عام ٣٢٩ للهجرة.

(٧) هذا التاريخ يشير الى انه نفس التاريخ الذي ولد فيه الامام محمد المهدي بن الحسن العسكري حسب رأي الطوسي.

(٨) تاريخ بغداد جـ١ ص ١٢٨ ريشارد كوك.

وقد أشار بصورة غير مباشرة الشاعر يحي بن محمد الاسلمي الى هذه الصلة بقصيدة أعلن فيها فرحته بعد انتصار الخليفة على ثورة الزنج[(٩)].

أقــول وقــد جاء البشــير بوقعة — أعــزت من الاســلام ما كان واهياً
جزى الله خـير النـاس للنــاس بعدما — أبيح حماهــم خــير ما كان جازياً
تفــرد إذ لم ينصر الله ناصراً — بتجــديد دين كان اصبــح بالياً
ويشفــي صدور المؤمنين بوقعة — تقــر بهــا منــا العيون البواكيا
ويتلى كتــاب الله في كل مسجد — ويلقــى دعاء (الطــالبيين) خاسياً

فوراء كلمة (الطالبين) في البيت الأخير ودعائهم وراءها ما وراءها من علاقة أو صلة مباشرة أو غير مباشرة مع الزنج ، وكما هو معروف تاريخياً أن الطالبيين هم العلويون وأصحاب الامام محمد المهدي .

غير أن اثار ثورة الزنج لم تنته بالقضاء عليها ، وبقيت معالم المعارضة ضد السلطان كامنة في نفوس أصحاب الحركات السرية ، ومما زاد في اوارها قسوة الخليفة وحقده ، (فقد امر بقلع أظافر - قرطاس - أحد الأسرى الزنج وسلخ جلد أصابع كفه من رؤوسها الى أكتافه وطلب منه أن يفتل أوتاراً صلبه بها) و(ربط شيلمه) أحد قواد الزنج على أعمدة الخيم ، وقيل أنه أدخل سيخاً (سفوداً) في دبره وقلبه على النار حتى اصبح شواء)[(١٠)].

وكانت سامراء لا تزال عاصمة الخلافة العباسية وقد اختفى فيها الامام الثاني عشر محمد المهدي بن الحسن العسكري . وكان اختفاؤه معقولاً ومنطقياً تجاه الحقد الذي أظهره الخليفة ضد (الطالبيين) وكل من يلتف حول الامام وبقيت صلته مع أصحابه وأنصاره عن طريق وكلاء ،ويقول الطوسي[(١١)] في ذلك (ولا علة تمنع من ظهوره إلا خوفه على نفسه من القتل لأنه لو كان غير ذلك لما ساغ له الاستتار وكان يتحمل المشاق والأذى) .

وفي أواخر عهد المعتمد عادت العاصمة إلى بغداد ومات فيها الخليفة مسموماً فخلفه المعتضد عام ٢٧٩ للهجرة . وفي هذا التاريخ كان الامام محمد بن الحسن العسكري قد أصبح

---

(٩) ثورة الزنج ص ١٨٦ د. فيصل السامر.
(١٠) ثورة الزنج ص ١٨٤ د. فيصل السامر.
(١١) توفي الطوسي وهو شيخ الطائفة الشيعية عام ٤٦٠ للهجرة. راجع ص ١٩٩ من كتاب الغيبة.

شاباً وهو لا يزال متستراً يتنقل بين الأمصار والبلدان يتصل بأصحابه عن طريق وكلائه الأربعة الذين تعاقبوا لادارة شؤون القضية (التـي كانـت سياسية أولاً ثم تطـورت الى مذهبية)[١٢] وكان أولهم أبا محمد عثمان بن سعيد الأسدي وقد بقي على وكالته من عهد أبيه السابق الحسن العسكري. وهذه الاستمرارية بمثابة وثيقة تاريخية تشرح أهمية هذا الوكيل في إخفاء « الامام » منذ طفولته خوفاً عليه من السلطان وإعداده لقيادة المسلمين وإنقاذهم من الجور، متأثراً بكل الظروف الموضوعية وكان يبشر بظهوره ليملأ الأرض عدلاً منتظراً الفرصة المناسبة لقلب النظام الفاسد. ومن أهم مبررات « غيبة » الامام حسب المنطق الموضوعـي الخوف على حياته من أعين الرقباء وجواسيس السلطان وكان الوكيل الثاني هو أبو جعفر ابن الوكيل السابق، وتوفي في عام ٣٠٦هـ. وهناك رواية اخرى تقول أنه توفي في عام ٣٠٤ للهجرة[١٣] وكلا التاريخين يشيران إلى الفترة الزمنية التي ولد فيها المتنبي أو اصبح طفلاً ومعنى هذا أن ظروفاً موضوعية جدت عند الطالبيين بانتقال الوكالة من شخص الى شخص آخر، هو أبو القاسم الحسين بن روح النوبختي وفي عهد هذا الوكيل ظهر في الكوفة « من » ساعد أو ساهم في إدخال المتنبي الى مدارس العلويين ليتعلم « علومهم ». وتوفي هذا الوكيل في عام «٣٢٦». هذا التاريخ وتوافقه مع خروج المتنبي من السجن في « بلاد الشام » وتوجهه للعراق اثر كتاب وصله من جدته يضع امامنا علامة استفهام سنجيب عنها في الفصل القادم. وكان الوكيل الرابع والأخير هو ابو الحسن علي بن محمد السمري الـذي توفي عام ٣٢٩ للهجرة، وانتهت بوفاته الغيبة الصغرى وقد دامت ٦٩ عاماً *. ويروى ان الأخير لما حضرته الوفاة سئل عمن يعهد اليه بالوكالة عن الامام الغائب بعده فتنهد طويلا وقال: لله أمر هو بالغه. ثم اغمض عينيه ولفظ آخر انفساه. وكان عمر المتنبي حينذاك ستاً وعشرين سنة.

إن الرقم «٦٩» الذي اعطي للغيبة الصغرى هو رقم حقيقي لا يخضع لمعنى الكثرة أو القلة كالأرقام الصحيحة التي تعود العرب على استعمالها كالرقم « سبعين » أو مائة أو الف. وعلى سبيل المثال أذكر (موضوع هذا الكتاب) .. فعندما قلت (وعثرنا عليه بعد الف عام) قصدنا المدى الزمني البعيد، ولا شك أن القارىء يدرك هذا المعنى، ولكني لو قلت بعد ألف

---

(١٢) مجلة العلوم اللبنانية في العددين لشهري مايس وحزيران عام ١٩٦٣. مقال لابراهيم العريض.

(١٣) الامـــام المهـــدي عليه الســـلام ص ٩ علي محمد علي الدخيل

(*) ورد في كتاب الملل والنحل ان رجلاً اتصل بالخليفة العباسي المقتدر بالله وأعلن انه الامام محمد المهدي بن الامام الحسن العسكري. ولكن لم يعترف به فعاد واختفى.

وعشرين سنة. لجابهني القارىء بعملية حسابية، وأثبت خطأي. لذلك فان الرقم «٦٩» يمثل فترة زمنية حقيقية تساوي «عمر انسان» بشكل معقول، أو تساوي فترة زمنية حقيقة أخفيت فيها نشاطات انسان تطلبتها الضرورة الزمنية. فهي - اذن - إما تمثل عمر الامام محمد المهدي وإما تمثل الفترة الزمنية التي أخفيت فيها نشاطاته السياسية والمذهبية وانتهت بموت وكيله الأخير. وربما يكون الامام محمد المهدي قد توفي قبل هذا التاريخ ولكن تلك الوفاة كانت قطعاً ضمن الفترة التي عاشها أبو الحسن علي بن محمد السمري وكيلاً للامام ما بين عامي ٣٢٦ ـ ٣٢٩ ولم ير من مصلحة «القضية» التي تخص المسلمين ومستقبلهم وتجمعهم حول (الامام المنتظر وظهوره) ليملأ الارض عدلاً بعد ان ملئت جوراً اعلان ذلك، اذ ان اعلان وفاة الامام محمد المهدي في ذلك الظرف الحرج، لا شك يمزق جوهر القضية. وان المؤشر المنطقي لهذا الاستنتاج تنهدات الوكيل الطويلة عندما حضرته الوفاة، وقوله ذو المغزى العميق «لله امر هو بالغه»[١٤].

وهناك رواية اخرى تقول ان (الغيبة الصغرى) دامت ٧٤ عاماً. وهذا الرقم الجديد يؤيد الرقم «٦٩» تأييداً مطلقاً لأنه يتألف من حاصل جمع الخمس سنوات التي عاشها الامام محمد المهدي طفلاً قبل بداية الغيبة وقبل وفاة أبيه الامام الحسن العسكري، زائداً الـ ٦٩ عاماً التي انتهت بوفاة الوكيل الأخير. وليس بمستبعد أن تكون التنهدات التي تنهد بها (الوكيل) عندما حضرته الوفاة وقوله الجريح «لله امر هو بالغه» بمثابة معاناة ذاتية يعانيها الوكيل باتجاه ابن الامام.. وهل يجوز أن يكون اماماً ثالث عشر ام لا يجوز ذلك من الناحية المذهبية وهل يصلح ذلك الولد أن يكون إماماً أم لا يصلح من الناحية السلوكية، ومات الوكيل وهو يردد تنهداته ومعاناته.. وقد ترددت في ذلك العصر تقولات عن «ولد الامام». مما يدل دلالة قطعية على أن أهل ذلك الزمان كانوا قد سمعوا أو علموا بوجود هذا الولد. وقد امتدت هذه الأقوال عبر الزمن حتى بلغت سمع (الطوسي) فناقشتها بكتابة (الغيبة)[١٥] فقال:

(فأما من قال ان - للمخلف - ولداً وأن الأئمة ثلاثة عشر فقولهم يفسد بما دللناه عليه من أن الأئمة عليهم السلام اثنا عشر. فهذا القول يجب اطراحه، على أن هذه الفرق كلها قد انقرضت بحمد الله ولم يبق قائل يقول بقولها، وذلك دليل على بطلان هذه الأقاويل).

---

(١٤) كشف الغمة في معرفة الائمة ص. ٣٢.

(١٥) كتاب الغيبة ص ١٣٧ - الطوسي.

إن هذا النص يضع أمامنا عدة احتمالات بل عدة حقائق ، الحقيقة الأولى أن هناك من قال أو سمع أو علم بوجود ولد للامام محمد المهدي .. والحقيقة الثانية أن ذلك القول له من التواتر ما جعله يصل عهد الطوسي بعد أكثر من مائة عام . والحقيقة الثالثة أن ذلك القول له من القوة والأثر مما جعل الطوسي يهتم به ويناقشه . والحقيقة الرابعة أن الطوسي بمناقشته لم ينف وجود ولد ، وإنما دلل على عدم جواز وجود إمام ثالث عشر . لأن جوهر مذهب الامامية قائم على هذا العدد من الأئمة . أو أن ذلك الولد لا يصلح ان يكون إماماً أو منتسباً لامام . وكان لا بد للطوسي وهو شيخ الطائفة في عصره . أن ينفي وجود إمام ثالث عشر تأكيداً للأسس الدينية . والحقيقة الخامسة أن الطوسي أبدى فرحته العاطفية وارتياحه من زوال اصحاب هذا القول و(فرقهم) بقوله (على أن هذه الفرق كلها قد انقرضت بحمد الله ولم يبق قائل يقول بقولها) وزوال الفرق التي تقول بوجود ولد للامام محمد المهدي لا ينفي وجود ذلك الولد . وإنما زوالها امر منطقي بعد موت الولد نفسه وابنه الوحيد الذي كان معه (محمّد بن المتنبي) .

وقد ذكر الطوسي في أكثر من مكان في كتاب الغيبة كما ذكرت جميع المصادر التي تكلمت عن الامام محمد المهدي عن تواجده متنقلاً في بغداد وقم والكوفة والمدينة المنورة ومكة وخراسان والري وغيرها من المدن والأمصار . فوجوده في الكوفة عام ٣٠٢ للهجرة وارد جداً ومقبول بالنسبة لتنقله المتستر ، وكان عمره حينئذ ٤٦ عاماً . وزواجه من فتاة بصورة سرية امر وارد .. ومنطقي بالنسبة للظروف الموضوعية والاعراف الاجتماعية والتوفيق بين رجل يعمل سراً متخفياً من اجل قضية يكون فيها هلاكه إذا انكشف امره وبين حاجته الماسة لمتطلبات الحياة الطبيعية من مأكل ومشرب وجنس . وقد أصاب الأستاذ ابراهيم العريض كبد الحقيقة في هذا الاتجاه وذلك بقوله (وليس في التاريخ الاسلامي سوى شخصية واحدة أسدل الزمان حولها ستراً كثيفاً من الكتمان بحيث لا نعي من أمرها رشداً فكل ما يعلم من امر صاحبها هو انه عندما ولد شاعرنا ((أحمد لأبيه العلوي هذا) كان عمر (العلوي هذا) آنئذ ٤٧ سنة واسمه محمد)(١٦) .

وقد رأينا أن المتنبي بعد ان كبر وعلم بحقيقة أبيه وأمره « من جدته » كيف انطوى على ذلك السر وكتمه وكبته ، ولم يصرح به ولكنه طالب بحقه فيه وترفع على الملوك والأمراء وأهل زمانه جميعاً .

---

(١٦) مجلة العلوم اللبنانية العددان مايس وحزيران ١٩٦٣ .

وإذا رجعنا الى الروايات المتعددة والتي ذكرتها في الفصل الأول نجد بينها رواية تقول ان المتنبي هو (احمد بن محمد) بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي . وهنا لا بأس أن نستل هذه الرواية (بالرغم من افتراضنا أن جميع تلك الروايات كانت تمثل اسماؤها - استعارات لاسم رجل واحد) نستلها ونناقشها ، تقول الرواية . ان المتنبي اسمه احمد وأبوه (محمد) وكلمة محمد هنا هي اسم العلوي المتخفي والمتزوج سراً . وهذا الغموض يتفق تماماً مع الغموض الذي احيط بالامام (محمد) المهدي عبر الزمان كما بين ابراهيم العريض . وتقول الرواية ان جده الحسين بن عبد الصمد الجعفي . وبعد أن وجدنا مواصفات هذا الرجل تتفق مع مواصفات (جده لأمه) . فان دخوله في هذا المكان من النسب كان لغرض الايهام المقصود وقد تطرف بعض الرواة حتى وضعوه في محل ابيه (محمد) زيادة في الابهام . أو أن التحليل المنطقي يأخذ وجهاً آخر في اسم الجد . على ضوء الالتباسات التي تحدث بكثرة ما بين الاسم (حسين) والاسم (حسن) والتصحيفات التي تحدث بينهما اكثر. وخصوصاً ضمن الخطوط التي لا تعتمد (التنقيط) في الكتابة فيصبح الحسن حسيناً والحسين حسناً . وخصوصاً أن هذين الاسمين كانا ولا يزالان لهما من القدسية والمعنى الروحي ما جعلهما في صف الأسماء الحسنى « لله جل جلاله » فسموا الأسماء بعبد الحسن وعبد الحسين ولم يفرقوا بينهما ، فليس بعيداً عن قدسية هذين الاسمين أن يحل أحدهما محل الآخر، فيصبح المتنبي ، ابن محمد بن الحسين بدل أن يأخذ نسبه الحقيقي (احمد بن محمد بن الحسن) العسكري .

بعد أن ولدت ام المتنبي طفلاً عام «٣٠٣» من العلوي المتخفي . والذي قلنا أن مواصفاته وظروفه الدينية والزمنية واسمه تتفق مع ظروف الامام محمد المهدي . يشعر أصحاب الامام بخطورة الأمر فيما إذا شاع امر الولد ، وربما كان الامام في تلك الفترة بعيداً عن الكوفة . فحذروا الأم من مغبة المطالبة بنسبه وربما انذروها بالهلاك ، أو اضطروها على فراق زوجها مقابل احتفاظها بابنها الرضيع ، ثم تموت الأم كمداً وحزناً ويبقى الطفل في رعاية (شيخ كبير) بينهما فارق بالعمر هو فارق عمر جد لحفيد اسمه الحسين بن عبد الصمد ، فرعاه ورباه . وكان كلما يشعر بخطر عليه يأخذه للبادية اتقاء شر خصومه وأعدائه ، وكفلته جدة صالحة . أحبها المتنبي حباً كبيراً وخلدها بأجود شعره الذي ضمنه محنته في نسبه .

لئن لذ يوم الشامتين بيومها   لقد ولدت مني لأنفهم رغماً

فمن هم هؤلاء الشامتون بموت « عجوز صالحة » حمته وكانوا يتمنون ان لا يولد ولكنه ولد رغم انوفهم .

قلنا ان وكيل الامام توفي واستلم الوكالة عنه عام ٣٠٦ للهجرة رجل آخر هو (ابو القاسم الحسين بن روح بن ابي بحر النوبختي) وبهذا تكون الظروف الموضوعية قد تغيرت بالنسبة (لجدة المتنبي) وقد أصبح عمر حفيدها ثلاث سنوات فتوافرت فرصة ذهبية لها لكي تتصل بالوكيل الجديد وتطلب منه أن يعمل على تثقيف الطفل وإدخاله مدارس العلويين ابائه وأجداده فيبدي ذلك الوكيل مرونة وتساهلاً في هذا الأمر - على ما يبدو - ويوصي بالطفل - وربما - قد أكد على الجدة مقابل هذا التساهل أن تبقى محتفظة بسر نسبه . وأن يبقى معروفاً بين الناس باسم (مربيه) الشيخ الطاعن في السن - الملقب بعيدان السقاء - الحسين بن عبد الصمد الجعفي ، وفي مثل هذا الموقف لا بد للجدة ذات النظر البعيد والعقل الراجح أن توافق . وهذا التغير جعل أبا فرج الأصفهاني بعد فترة من الزمان يستغرب ويتعجب من دخول (ابن عبدان السقاء) بعد أن حرف عيدان الى عبدان والسقاء (بالكسر) إلى سقاء (بالفتح) ويقول نصاً : (ان احمد بن عبدان السقاء اختلف الى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة فكان يتعلم (دروس العلوية) شعراً ولغة وإعراباً فنشأ في خير حاضرة) .

وكلمة (دروس العلوية) الواردة في هذا النص تكفي تماماً للدلالة على أن إدخال (احمد ابن محمد) الى هذا الكتاب بالذات كان لغرض اخذ دروس خاصة لأمر أريد لهذا الطفل ، وأما علوم الشعر واللغة والاعراب فكانت من العلوم المساعدة للعلم الأصلي . الذي أريد له وهو (دروس العلوية) وعمره أربع سنوات ومن المعروف أن مثل هذه الدروس في ذلك الزمان لا تعطى الا للعلويين . ثم أن وجود المتنبي في هذا الكتاب يشير بوضوح إلى أن وراءه من كان يرعاه « اقتصادياً » . لأن الطبقات الحرفية - حتى يومنا هذا - لا تعطي الأهمية الأولى لتعليم ابنائها ابتغاء اختصار الزمان للفائدة الاقتصادية المرجوة من ارتباط الأولاد بحرف آبائهم ، فالنساج يعلم ابنه الحياكة قبل أن يفكر بتعليمه (دروساً خاصة) والسقاء يعلم ابنه (السقاية) قبل أن يرسله الى (مدرسة خاصة) ليتعلم حرفة الأدب والشعر واللغة . (وكذلك الجصاص والاسكافي والزجاج) . وإنما الطبقات الميسورة وحدها كانت تهتم بتعليم ابنائها قبل جرهم الى الركض وراء الحرف(١٧) . كما أن العبقرية الذاتية وحدها لا تكفي ما لم يسندها وضع اقتصادي جيد يهيّىء لها الظروف المناسبة للأداء . فوجود احمد بن محمد في مدرسة خاصة وعمره أربع سنوات يؤكد الرخاء الاقتصادي الذي كان وراءه أو كان عند الذين أوصوا به

(١٧) سيكولوجية المراهقة ص ٣٣ ترجمة د . ضياء الدين ابوالحب، ود . احمد عبد العزيز سلامة .

وأدخلوه المدرسة الخاصة. واما إذا كان أولئك الذين اعتنوا به ولم يكشفوا عن أنفسهم عبر الزمن غير معروفين فذلك للضرورة التي حتمها عليهم ظرفهم للاختفاء. وهذا الحال يتفق مع الطالبيين والامام محمد المهدي حيث لو علم الخليفة بوجودهم أو بمكانهم لعمل على هلاكهم وكان لا يزال يطاردهم ويتعقب تجمعاتهم. وينقل لنا آدم متز[(١٨)] عن هذه الرواية يقول: (ويذكر المؤرخون لأول مرة عام ٣١٣ للهجرة ان الشيعة البغداديين كانوا يجتمعون في مسجد (براثا) فعلم الخليفة المقتدر بأن قوماً منهم يجتمعون لسب الصحابة فأمر بكبسه في يوم الجمعة وقت الصلاة فوجد فيه ثلاثين إنساناً يصلون فقبض عليهم وفتشوا فوجد معهم خواتم من طين أبيض عليها اسم الامام كما كان يفعل دعاة الفاطميين مع من ينتسب اليهم وقد استصدر الخليفة فتوى بهدم المسجد حتى سوي بالأرض وعفي رسمه ووصل بالمقبرة التي تليه.

وهذا النص يعطينا الكثير لفهم تطور (القضية) التي كان يتزعمها الامام محمد المهدي ووكلاؤه. وذلك لورود كلمة (لأول مرة) في النص مما يدل بوضوح على أن أصحاب الامام قد شعروا بشيء من القوة جعلتهم يجتمعون بما يشبه العلن في بغداد نفسها. ويبلغ خبر اجتماعاتهم الخليفة. فيرسل من يكون عيناً عليهم. ويحدد يوم (الجمعة) عند الصلاة فيكبسهم. ولكن لم يجد غير ثلاثين إنساناً وهذا الرقم وحده ينفي أن مسجد براثا كانت تقام فيه صلاة (الجمعة) أو ينفي أن الفترة التي كبس فيها شرطة الخليفة المجتمعين كانت فترة اقامة (صلاة الجمعة) وذلك لأن مثل هذه الصلاة دائماً ومهما كان الناس بعيدين عن التدين لا بد ان يدركها المسلم. وحتى في عصرنا هذا (عصر المادية الديلاكتيكية) نجد الجوامع التي تقام فيها صلاة الجمعة يؤمها الناس في فترات الصلاة.. ثم ان هذا النص يشير الى ان الشرطة لم تأت للتفتيش عن (ناس يسبون الصحابة) وانما للتفتيش عن أدلة مادية حول قضية معينة. لذلك فتشوا المجتمعين فعثروا في جيوبهم على خواتم من الطين منقوش عليها (اسم الامام). ولو انتهى النص الى هذا الحد لانصرف الذهن الى أن اسم الامام المنقوش على الخاتم الطيني كان اسم (علي بن أبي طالب) ولكن جملة (كما يفعل دعاة الفاطميين) أوضحت أن القضية هي قضية زمنية معاصرة لذلك الزمن، ولم تكن قضية معاصرة لذلك الزمن أهم من قضية (الامام محمد المهدي) التي يلتف أصحابها حول امامهم كما كان يفعل دعاة الفاطميين في أفريقيا الشمالية. وليس بمستبعد أن يكون الخليفة قد توقع العثور على الامام نفسه في ذلك الاجتماع المعقود من ثلاثين انساناً - ربما

---

(١٨) تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري جـ ١ ص ١٨٦ (المنتظم لابن الجوزي).

كانوا - من الدعاة المهمين. ولكنه فشل في ذلك. فلم يصفّهم جسدياً - كما كانت العادة - واكتفى بهدم - مقر اجتماعهم - مؤملاً فرصة أخرى. ومثل هذا الحادث الذي أسفر عن هدم (مسجد) لا بد ويكون صداه قد تردد في الأمصار ووصل خبره الكوفة وتهامس فيه طلاب المدارس وخاصة المدارس العلوية. ولا بد ان يكون المتنبي ذو العشر سنوات آنئذ قد سمع به فتفاعل تأثيره في أعماق نفسه وفجره غيظاً وحقداً في صغره على الرجال الرسميين طوال اللحية الذين هدموا مسجد براثاوتمنى أن يعل رمحه من دمائهم مرة بعد مرة وذلك في بيتين اجمع الرواة على أنه قالهما في صغره وهو في مثل هذا السن:

لا تحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة يعلها من كل وافي السبال[19]

وبعد بضع سنوات من هذه الحادثة نجد المتنبي قد ترك الكوفة وسافر إلى بغداد لتحقيق أمر يكتمه من ضغوط جدته الكثيرة وتحذيراتها له ان تكلم بعد أن اطلعته على سر ولادته وسر امه، وأمر أبيه فلم يذكر ذلك متأثراً من جور الزمن.

---

(١٩) ان الوفرة التي كانت عند المتنبي وذكرها في هذين البيتين قد تكون موروثة بعوامل وراثية عن ابيه «محمد المهدي» الذي قيل في وصفه انه كان ناصع اللون واضح الجبين برأسه وفرة سمحاء سبطة تطالع شحمة اذنيه. راجع ص ٩ من كتاب الامام المهدي عليه السلام لعلي محمد علي دخيل.

الفصل الرّابع

« محنة احمد في غيبة أبيه »

تركنا أحمد أبا الطيب المتنبي في بغداد يتأمل اخلاق الناس وهم يبيعون الخمس بطيخات بدرهمين لمن يملك مائة ألف دينار ولا يبيعون الخمس بخمسة دراهم لمن وضع في جانب منديله الدراهم الخمسة. وكان ذلك في حدود عام ٣١٩ للهجرة ويرى في حاضرة الخلافة العباسية « العجب العجاب من الأحداث التي كانت تقع في بغداد من شغب الجند على الخلفاء وسيطرة الموالي من العجم والديلم والترك على اسيادهم الأمراء والخلفاء » وقد تفاعلت هذه الأحداث باسبابها ومظاهرها مع سعة مدارك « الصبي المراهق » فنفذ ببصيرة حادة وعبقرية واعية الى جذورها. وكانت مداركه العقلية قد اوصلته الى عدم امكانية الاعلان عن نسبه في بغداد فصمم على مغادرة العراق الى ارض الشام لعلها تصلح لانصافه، غير ان مدارك الانسان في هذا السن تكون مكونة من « مركبات فكرية متصلة ومترابطة ترابطاً تاماً مع وجدانه مبعثها لا شعور منطوٍ على مكبوتات الطفولة ». ومثل هذه المكبوتات الحتمية « تسود الشعور خلال سنوات معينة من الحياة ثم تكبت بعد ذلك ولا يمكن الكشف عنها في شعور الراشدين الا ببحث وتمحيص زائدين »[(١)].

وعلى ضوء هذه القاعدة العلمية تفاعلت فكرة السفر إلى بلاد الشام في نفس « المتنبي » للافصاح عن علاقة طفولته برشده وبنسبه وحقه بالعلوية. وليس بعيداً أن تكون مكبوتاته تلك ذات علاقة بحضوره طفلاً صغيراً جانباً من المناقشات التي كانت تجري بين جدته وبين الآخرين في أمره وأمر نسبه، فشب ناسياً التفاصيل حاقداً على الجانب السلبي في الاعتراف بنسبه وهم العلويّون أهله وعشيرته. فتراكم حقده عليهم، ونشأ علوياً يدين بالمذهب العلوي

(١) التحليل النفسي للطفل ص ٨٢ فرويد.

ويكره العلويين أفراداً وشخوصاً . وهذا هو التفسير العلمي لاحجام المتنبي عن مدح العلويين في كبره حتى انه لم يمدح منهم غير اثنين فقط.. وهذا هو الواقع النفسي الذي جعله يقول في صغره[٢] . وبعد أن عاد من بغداد ليخبر جدته - على ما يبدو - بعزمه على السفر إلى بلاد الشام :

محبـي قيامـي ما لذلكـم النصل بريئـاً من الجرحـى سليماً من القتل
أرى من فرنـدي قطعـة من فرنده وجـودة ضرب الهـام في جودة الصقل
وخضرة ثوب العيش في الخضرة التي ارتـك احمـرار المـوت في مدرج النحل
أمـط عنـك تشبيهـي بمـا ، وكأنه فما أحـد فوقـي ولا احـد مثلي
وذرنـي وايـاه وطـرفي وذابلي نكن واحداً يلقى الـورى وانظـرن فعلي

إن هذه القطعة تكشف لنا عن المتنبي في صغره انه كان يقظاً أو يعرف حق المعرفة ان هناك محبين لقيامه واعلانه عن نسبه وحقيقته فخاطبهم (يا محبي قيامي) معبراً عن أحاسيسه في ذلك الشأن وطلب منهم أن يكفوا عن تشبيهه (بما) و(كأنه) أو بزيد أو عمرو من الناس ، لأن ذلك لا يزيده شرفاً وهو ابن امام ، ولا أحد (فوقه) من جراء هذا النسب ولا احد مثله . ووعدهم بفعل معين وطلب منهم ان ينتظروا فعله وينظروا اليه .

وذرنـي واياه وطـرفي وذابلي نكن واحداً يلقى الورى وانظرن فعلي

وخرج شاعرنا من الكوفة . وليس تتبع خطواته وتنقلاته من مواضيع بحثنا هذا لذلك سنلقاه في دمشق وأطرافها ومدنها في عام ٣٢١ للهجرة ، أي بعد عام تقريباً من مغادرته الكوفة وقد قرر أن يقوم بعمل معين وطلب من « محبي قيامه » أن ينظروا إلى فعله . وبعد ان صار بعيداً عن الكوفة وبغداد متذكراً ما لقي بهما من مفارقات اضطرته على كتمان اسم ابيه ونسبه ظن أنه اصبح في مأمن من مكايد « من يهمهم الأمر» من علويين ودعاتهم في كل مكان أو انه اصبح في مأمن من خصوم جدد لهويته « ربما » لم يحسب لهم حساباً هم دعاة الفاطميين ودعـاة القرامطة وغيرهم من المتنافسين في نطاق دوامة القرن الرابع الهجري ، فأعلن عن هويته للمرة الأولى والأخيرة واقتنع بصحتها بعض القبائل ، فسمع به (الأمير لؤلؤ) امير حمص فخرج اليه وشتت انصاره وحبسه في السجن حبساً طويلاً .

---

(٢) يرى محمود محمد شاكر ان هذه القطعة هي اخر ما قاله من الشعر في الكوفة قبل رحيله الى الشام .

في تلك الفترة أو قبلها بقليل كان قد ظهر في بغداد وربما في - بادية السماوة في العراق - رجل اسمه احمد بن عبد الرحيم الاصبهاني وادعى النبوة، فحبسه ابو الحسن علي بن عيسى الوزير في اوائل عهد المقتدر. وعرف هذا الرجل بـ «احمد المتنبي» فعندما قيد احمد ابو الطيب في الشام الى الحبس لا يستبعد ابداً أن الناس لتشابه الاسمين ظنوه هو (احمد المتنبي) فتناقلوا الخبر وشاع امر احمد المتنبي. ومثل هذا الالتباس يحدث حتى في أيامنا هذه.. ولا زلت أذكر أن جريدة الحياة البيروتية في عام ١٩٦٣ ميلادية وكنت في بيروت يومئذ نشرت خبراً عن العراق، ان السلطات في الموصل تحاكم «قتلة عبد الغني الملاح» فظن من يعرفني اني مقتول. بينما كان ذلك الرجل شخصاً آخر يحمل مثل اسمي ومثل لقبي.

ولذلك الالتباس، جاءت الروايات غامضة ومشوشة لا معنى لها فيما يخص (احمد المتنبي) فاستفاد منها خصومه وألصقوا «تهمة النبوة فيه» وأبعدوا حقيقة دعواه في مطالبته بحقه في العلوية. غير أننا نجد بعض الروايات تشير الى الحقيقة وقد جاء فيها انه (ادعى العلوية ثم النبوة ثم العلوية). وغموض هذه الرواية يكشف الشيء الكثير فادعاء العلوية المجرد لا يبرر السجن إذا لم يصحبه مطالبة بنسب مهم وهذا ما حصل. وحشر كلمة (النبوة) بين المطالبة بالعلوية مرتين يفضح التزوير في كلمة النبوة.. واننا نجد حتى المتأخرين الذين اكتشفوا حقيقة نسب احمد ابي الطيب وانه لم يدع النبوة، ناقشوا بعض الروايات على اعتبارها قد حدثت.. فمثلاً ناقش الاستاذ ابراهيم العريض وهو أول من اكتشف ابوة الامام محمد المهدي لأحمد ابي الطيب ما روى عن (احمد المتنبي) بن عبد الرحيم الاصبهاني باعتباره يخص شاعرنا المتنبي[(٣)]: (قال له - للمتنبي - بعض الأكابر وهو في مدينة السلام أخبرني من اثق به انك قلت أنا نبي، فقال: الذي قلته أنا احمد النبي.. وليس لجواب المتنبي تبرير لتلك الدعوة التي قام بها ثائراً ثم تحولت الى تهمته هذه من معنى يفهم الاعلى أساس ما كانوا يرددون في عهده من أحاديث حول المهدي المنتظر).

والآن اصبحت هذه المناقشة التي أجراها الأستاذ ابراهيم العريض لا مبرر لها بعد ان اتضح ان (احمد المتنبي) هذا هو احمد بن عبد الرحيم الاصبهان). ويعود الفضل في اثبات ذلك الى الدكتورة (بنت الشاطىء.. خلال تحقيقها عن رسالة الغفران للمعري[(٤)]. وقد جاء في ذلك ما نصه. (حكى القطربلي وابن أبي الأزهر في كتاب.. اجتمعا على تصنيفه.. اهل

---

(٣) مجلة العلوم اللبنانية عدد مايس وحزيران ١٩٦٣.

(٤) هامش رسالة الغفران ص ٢٥ بنت الشاطىء.

بغداد وأهل مصر يزعمون انه لم يصنف في معناه مثله لصغر حجمه وكبر علمه. يحكيان فيه ان المتنبي أخرج ببغداد من الحبس الى مجلس ابن الحسن علي بن عيسى الوزير رحمه الله فقال له: أنت احمد المتنبي فقال أنا احمد النبي وكشف عن بطنه وأراه سلعة فيه وقال هذا طابع نبوتي وعلامة رسالتي).

ولكن الدكتورة بنت الشاطىء وجدت بهامش (النسخة التيمورية) لرسالة الغفران وهي نسخة مخطوطة، بخط الناسخ وبمداد احمر، حاشية هذا نصها:

«في جزء من تذكرة ابن العديم ما نصه «وهذا عجيب فان المتنبي ولد سنة ٣٠٣هـ على ما رواه ابن سريال وغيره من الرواة فكيف تصح هذه الحكاية قبل مولده، وقد جاء في بعض الروايات انه ولد سنة احدى وثلاثمائة. فعلى كل حال لا يصح ما نقله ابن ابي الأزهر وأبو محمد.. أو يكون هذا المتنبي غير أبي الطيب المتنبي والله اعلم». ثم ذيلت هذه الحادثة بما نصه «صح بعد ذلك غير ابي الطيب وهو احمد بن عبد الرحيم الاصبهاني».

وهذه النصوص تنفي نفياً قاطعاً الرواية التي قالت عن نبوة المتنبي - على الأقل - في دار السلام وتجعل تلك الروايات في مصاف الخرافات التي استغلها خصوم احمد ابي الطيب والصقوها به.

ويقول المعري في رسالة الغفران(٥): وحدثت انه اذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال هو من (النبوة) أي المرتفع من الأرض. ومعنى هذا أن أحمد أبا الطيب لقب بهذا اللقب لترفعه عن الناس كما تنبو الأرض المرتفعة.. وليس لادعاء النبوة صحة او اثر في سلوكه كما توهم الناس أو خلط الرواة عن قصد أو غير قصد بينه وبين احمد المتنبي ابن عبد الرحيم الاصفهاني مدعي النبوة في العراق وربما في بادية السماوة.. وهناك سبب آخر يزيد الالتباس بين اللقبين (المتنبي) المترفع عن الناس و(المتنبي) مدعي النبوة فهذا الجناس يصرف الذهن الى المعنى السهل والشائع، وقليلون الذين يدركون أن المتنبي لقب بهذا اللقب لترفعه لا لادعائه النبوة. وفي عصرنا الحالي قد حدث التباس مشابه «مع الفارق في السلوك» بين كلمتين انكليزيتين ذاتي لفظ واحد وهما كلمة (بيتلز) المشتقة من كلمة (بيت) وتعني أحداث النغم وقد سمت احدى الفرق الموسيقية الانكليزية نفسها بها. وبين كلمة (بيتلز) التي تعني

(٥) نفس المصدر ص ٤١٠ بنت الشاطىء.

الحشرات المفصلية ومنها (الخنافس) فانصرف ذهن السامعين في كل الدنيا الى المعنى الأسهل وهو الخنافس.

وكان ابن جني شارح ديوانه قد أكد هذا الاتجاه في سبب هذا اللقب حيث عزاه الى قوله :

أما في أمة تداركها اللـ ـه غريب كصالح في ثمود

فترفعه في هذا البيت عن مستوى الناس والأمراء والملوك الى مستوى الأنبياء لا يعني ادعاء النبوة وإنما بكل تأكيد يعني ترفعه، فهو كالغريب من الناس في مستواه العائلي والعقلي.

ويقول عباس محمود العقاد في هذا الصدد (فأبو العلاء المعري يقف موقف الشاك المتردد في قبول ما نسب الى أبي الطيب من دعوى النبوءة ولم يكن بين أبي العلاء وابي الطيب غير فترة قصيرة من الوقت. إذ كان قتل هذا قبل مولد ذاك بنحو تسع سنوات، فهو أحق أن يثبّت من صدق الخبر لو كان الى التثبيت منه من سبيل (*).

وأثر هذا الترفع واضح وجلي بين طيات ديوانه المعبر عن سلوك نقي مفعم بالألم من عدم فهم اهل ومانه لحقيقته.

قال :

اذم الى هذا الزمان اهيله فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد

وقال :

واني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف ان تسكن اللحم والعظما

وقال :

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابل
وإذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

وقال :

أقل فعالي بله اكثره مجد وذا الجد فيه نلت او لم انل جد

(*) عباس محمود العقاد في مقال منشور في جريدة البلاغ المصرية في ٤ ديسمبر ١٩٢٣ انظر كتاب مطالعات في الكتب والحياة للعقاد ط. ١٩٢٤

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد

وقال :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البـ ـاحث والنجل بعض من نجله
وإنما يذكر الجدود لهم من نفروه وانفذوا حيله
وليفخر الفخر اذ غدوت به مرتدياً خيره ومنتعله

وقال :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم

وقال :

أي محل ارتقي أي عظيم اتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

وقال :

لو استطعت ركبت الناس كلهم الى سعيد بن عبد الله بعرانا

إن مثل هذا التنبي عن الناس (أي الترفع) هو الذي اعطاه لقب المتنبيء فتوهموه ادعى النبوة وتقصدوا الصاق التهمة بالباطل. وقد كانت محنته درساً قاسياً له.

وذلك للتزوير الذي شوه أسباب قيامه في أراضي الشام ولسكوت أهله في العراق على ما أصابه. فلم يقدر ان سكوت الطالبيين على ما أصاب ابنهم ينسجم مع طبيعة التفافهم حول الامام الغائب من أجل اختيار الظرف المناسب لتقويض نظام الحكم في بغداد وإعادة العدل الى الدنيا الاسلامية. وقد ساعد هذا السكوت المطبق خصوم المتنبي من كل الفئات على حبك الروايات واتقان وضعها ضده فقالوا: (انه خرج الى قبائل كلب وأقام فيهم وادعى انه علوي حسني ثم ادعى بعد ذلك النبوة ثم عاد يدعي انه علوي الى أن أشهد عليه بالشام بالكذب في كلا الدعويين وحبس دهراً طويلاً وأشرف على القتل ثم استتيب واشهد عليه

بالتوبة واطلق) . وقالوا ايضاً[٦] : انه تنبأ ببادية السماوة[٧] ونواحيها الى ان خرج اليه لؤلؤ امير حمص من قبل الاخشيدية فقاتله وانفره وشرد من كان اجتمع اليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب وحبسه في السجن حبساً طويلاً فاعتل وكاد ان يتلف حتى سئل في امره فاستتابه وكتب عليه وثيقة اشهد عليه ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام وانه تائب منه ولا يعاود مثله ثم اطلقه) .

واننا نجد القاضي التنوخي يناقض كل هذه الروايات في كتابه (النشوار) ويضع رواية جديدة يلمح فيها ان ما قيل عن ادعاء المتنبي مشكوك فيه واراد ان يتأكد منه بنفسه ثم حاول الدس بطريقته على الرجل فقال[٨] :

(أما أنا فاني سألته بالاهواز سنة ٣٥٤ عند اجتيازه بها الى فارس[٩] في حديث طويل بيننا عن معنى المتنبي لأني اردت ان اسمع منه هل تنبأ ام لا ؟؟ ثم قال : فأجابني بجواب مغالط فاستحييت ان استقصي عليه وامسكت) .

فهذه الرواية الغامضة تفضح واضعها في تناقضها مع الروايات الموضوعة السابقة التي رواها نفس التنوخي كما تؤكد بألف سبب نفسي أن هذا الرجل حقاً ، بلا حياء بالرغم من ادعائه انه استحى أن يستقصي عليه وأمسك عن الكلام . فما أن مات المتنبي مقتولاً في نفس السنة التي أشار اليها التنوخي حتى انطلق من عقال حيائه وراح يضع الروايات عن نسبه وعن سلوكه بتشجيع أو تحريض من المهلبي الوزير. فبهذا النوع من الكلام الغامض والمتناقض أراد خصوم المتنبي أن يوهموا الناس بأنه ادعى النبوة فعلاً .

ومن أطرف الروايات عن ادعاء المتنبي للنبوة وأكثرها سطحية وضحالة في الوضع ما رواه رجل اسمه معاذ اللاذقي قال : قدم ابو الطيب اللاذقية في سنة نيف وعشرين وثلاثمائة وهو لا

---

(٦) صاحب هاتين الروايتين القاضي التنوخي ذو العلاقة المباشرة بالمهلبي الوزير كبير المتآمرين على نسب المتنبي وقد سند الرواية الأولى الى القاضي ابن الحسن بن ام شيبان وسند الثانية الى علي بن ابي حامد .

(٧) بما ان بادية السماوة في العراق لا يستبعد ان الراوي تقصد الخلط بين « احمد المتنبي » بن عبد الرحيم الاصفهاني وبين احمد ابي الطيب ، للتضليل وايهام الناس بأنهما شخص واحد .

(٨) القاضي التنوخي وكتاب النشوار ص ٩٦ بدري محمد فهد .

(٩) من المعروف ان الاشاعة التي تردد صداها بأن المتنبي هو ابن عبدان السقاء بدأت قبيل هذا التاريخ وعن نفس المصادر (المهلبية) التي كان هذا التنوخي من اساطينها .

عذار له ، وله وفرة الى شحمتي اذنيه[١٠] . فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته فلما تمكن الأنس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته واقتباساً من أدبه قلت : والله انك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير قال : ويحك أتدري ما تقول ؟ أنا نبي مرسل فظننت انه يهزل ثم تذكرت اني لم اسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته) .

يسمح لي القارىء أن اقف هنيهة هنا لكي اشير الى أن الفقرة الأخيرة من الرواية جاءت بديلاً عن قسم الكذاب . فاللاذقي هذا أراد أن يؤكد ادعاء المتنبي فزعم انه (تذكر) أنه لم يسمع من المتنبي كلمة هزل قط منذ عرفه . وهذا التأكيد هو الذي يفضح الرواية ويضعها في مصاف السخف المقصود لادانة الرجل .. المهم نعود الآن الى نص الرواية . قال معاذ اللاذقي :

(فقلت له - ما تقول ؟ قال - أنا نبي مرسل . فقلت إلى من مرسل ؟ قال إلى هذه الأمة الضالة المضلة .قلت تفعل ماذا ؟ قال : املأ الدنيا عدلاً كما ملئت جورا[١١] . قلت بماذا ؟ قال إدرار الأرزاق والثواب العاجل لمن أطاع وأتى وضرب الرقاب لمن عصا وأبى فقلت له ، إن هذا امر عظيم خائف عليك منه وعذلته على ذلك فقال بديهة :

أبا عبد الاله ، معاذ ، اني خفي عنك في الهيجا مقامي
ذكرت جسيم مطلبي واني اخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلي تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان الي شخصاً لخضب شعر مفرقه حسامي
وما بلغت مشيئتها الليالي ولا سارت وفي يدها زمامي
إذا امتلأت عيون الخيل مني فويل في التيقظ والمنام

سأقف مرة ثانية عند هذا الحد من الرواية بصورة موقتة لأشير إلى هذه القصيدة التي حشرها حشراً معاذ اللاذقي في روايته لادانة المتنبي ، ولا اشك بأن المتنبي قال هذه القصيدة رداً على حديث لا علاقة له (بالنبوة) بقدر ما له علاقة بالقيام للمطالبة بحق فعندما خاطب

---

(١٠) هذا الوصف الصادق جاء كمقدمة من قبل معاذ اللاذقي لاطلاق كذبته بعده وتبريرها .

(١١) هذه الجملة تنطبق على ما كان يبشر به اصحاب الامام المهدي من انه سيظهر ويملأ الأرض عدلاً بعد ان ملئت جوراً وهذا يدل على ان المتنبي قالها في معرض مطالبته بحقه في العلوية أو بها .

المتنبي معاذ بقوله (خفي عنك في الهيجا مقامي) . إنما قصد حالته الخاصة وعلاقته بالسلالة العلوية . فكل القصيدة تتجه بهذا المعنى . كقوله (امثلي تأخذ النكبات منه) وقوله (ذكرت جسيم مطلبي) وقوله (ولو برز الزمان الي شخصاً) و(خفي عنك في الهيجا مقامي) .

ولنعد مرة اخرى الى معاذ ليستطرد في روايته ويقول :

(فقلت ذكرت انك نبي مرسل الى هذه الأمة ، أفيوحى اليك ؟ قال نعم . قلت فاتل شيئاً مما أوحي اليك فأتاني بكلام ما مر بمسمعي احسن منه فقلت : وكم أوحي اليك من هذا ؟ فقال مئة عبرة وأربع عشرة عبرة . قلت وكم العبرة ؟ فأتاني بمقدار أكبر من الآي في كتاب الله تعالى قلت في كم مرة أوحي اليك قال جملة واحدة قلت : اسمع في هذه العبرات أن لك طاعة في السماء فما هي ؟ قال : احبس المدرار ، لقطع أرزاق العصاة والفجار . قلت أتحبس في السماء مطرها ؟ قال أي والذي فطرها . اما هي معجزة ؟ قلت بلى والله . قال فان حبست المطر عن مكان تنظر اليه . ولا تشك فيه هل تؤمن بي ، وتصدقني على ما أوتيت من ربي ؟ قلت أي والله . قال سأفعل ولا تسألني عن شيء حتى اتيك بهذه المعجزة . ولا تظهر شيئاً من هذا الأمر حتى يظهر وانتظر ما وعدته من غير أن تسأله . ثم قال لي - بعد أيام - أتحب ان تنظر المعجزة التي جرى ذكرها ؟ قلت أي والله فقال لي : إذا أرسلت اليك هذا العبد فاركب معه الي ولا تتأخر ولا تخرج معك احداً ، قلت نعم) .

سأقف مرة اخرى هنا لأقول جملة واحدة فقط .. لو أن معاذ اللاذقي هذا كتب قصته هذه في عصرنا الحاضر لاستحق عليها جائزة تقديرية وخصوصاً لمقدرته في جر البطل الى الحديث والايحاء له بما سيقول سلفاً . فأوحى له ان لديه (طاعة في السماء) وأوحى له أن حبس المطر معجزة فقال بطل القصة نعم .. فهذا الأسلوب لا شك انه من احدث أساليب القصص القصيرة الخيالية . لنعد الآن الى قراءة رواية معاذ اللاذقي قال :

(فلما كان بعد أيام تغيمت السماء في يوم من أيام الشتاء ، وإذا عبده قد أقبل فقال : يقول لك مولاي اركب للموعد . فبادرت الى الركوب معه ، وقلت : أين ركب مولاك ؟ قال الى الصحراء واشتد المطر فقال بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاي ، فانه ينتظرنا بأعلى تل لا يصيبه مطر . قلت وكيف عمل ؟ قال : اقبل الى السماء اول ما بدا السحاب الأسود وهو يتكلم بما لا أفهم ثم اخذ السوط فدار به في موضع سننظر اليه .. وإذا هو على تل بعيد عن البلد نصف فرسخ . فأتيت اليه . فاذا هو على التل لم يصبه من ذلك المطر شيء وقد خضت

في الماء الى ركبة الفرس. والمطر أشد ما يكون. ونظرت الى نحو مئتي ذراع في مثلها عن ذلك التل ما فيه قطرة ماء.. فسلمت عليه فرد علي بالسلام فقلت أبسط يدك اشهد انك رسول الله فبسط يده فبايعته اقراراً بنبوته ثم قال:

أي محل أرتقي أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

وقبل أن اكمل الرواية أرجو من القارئ أن يتصور التناقض الفاضح في الصحراء التي ادعى اللاذقي وجودها قرب اللاذقية المدينة الساحلية وبين التل الذي يبعد نصف فرسخ عن البلد فقط والذي اجريت فوقه المعجزة المزعومة ثم أن قليلاً من التأمل في الأبيات الشعرية التي حشرت في هذه الرواية يجعلنا ندرك أنها كانت أبيات تحد لمن يرفض تصديق المتنبي في نسبه وحقه في العلوية. وليس لأسباب اخرى. ومثل هذا القول وارد جداً ومقبول من شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره قطع الفيافي ليعلن هويته في منجى من ضغوط ترفض الاعتراف بنسبه.

وأطرف ما في قصة معاذ اللاذقي هذا آخرها حيث قال:

(وأخذت بيعته لأهلي. ثم وضح بعد ذلك أن البيعة عمت كل مدينة الشام وذلك بأصغر حيلة تعلمها من بعض العرب وهي (صدحة المطر) يصرفه بها عن أي مكان احب بعد أن يحوي بعصا وينفث في الصدحة التي لهم)[١٢].

قال أبو عبد الله اللاذقي: وقد رأيت كثيراً منهم بالسكون وحضرموت والسكاسك من اليمن يفعلون هذا ولا يتعاظمونه حتى أن احدهم يصدح عن غنمه وابله وعن القرية فلا يصيبها شيء من المطر. وهو ضرب من السحر. وسألت المتنبي بعد ذلك هل دخلت السكون قال نعم أما سمعت قولي:

ملث القطر اعطشها ربوعا والا فاسقها السم النقيعا
امنسي السكون وحضرموتا ووالدتي وكندة والسبيعا

(١٢) نقلنا نص الرواية كما ثبتها محمود محمد شاكر وناقشناها بطريقتنا.

فقلت من ثم استفاد ما جوزه على طغام أهل الشام. ثم قال معاذ ومما كان يمخرق به في البادية انه كان مشاء قوياً على السير يسير سيراً لا غاية بعده وكان عارفاً بالفلوات، ومواقع المياه ومحال العرب بها. وكان يسير من حلة الى حلة بالبادية وبينهما مسيرة أربعة أيام فيأتي ماء فيغسل وجهه ويديه ورجليه ثم يأتي أهل الحلة فيخبرهم ما حدث في تلك الحلة التي فارقها ويوهم ان الأرض تطوى له.. وسئل في تلك الأيام عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال اخبر بنبوتي، حيث قال (لا نبي بعدي) وأنا اسمي في السماء.. لا.

ولما اشتهر امره وشاع ذكره وخرج بأرض (سلمية) من عمل حمص في عدي وظهر منه ما خيف عاقبته قبض عليه ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها (كوتكين) وامر النجار ان يجعل في رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف فقال المتنبي:

زعم المقيم بكوتكين بأنه — من آل هاشم بن عبد مناف
فأجبته مذ صرت من ابنائهم — صارت قيودهم من الصفصاف

وهكذا تنتهي رواية اللاذقي وهي تحمل بين طياتها السذاجة والسخف كما تحمل إشارات غامضة عن حقيقة امر المتنبي الذي سجن من أجله كالبيتين الأخيرين وكالفقرة التي وردت في آخر الرواية (وظهر منه ما خيف عاقبته). وبالرغم من المناقشة الموضوعية التي فند فيها محمود محمد شاكر هذه الرواية أرجو أن يسمح لي القارىء أن اضيف الى تلك المناقشة هذا التساؤل وبهذا الأسلوب:

يا معاذ ما دمت تعرف حيلة ما يسمى بصدحة المطر مسبقاً لماذا آمنت به وأخذت البيعة لأهلك؟ وإذا كان قد صح عندك ان أهل مدينة الشام قد آمنوا به فأين خبر ذلك في التاريخ المسجل رفضاً أو تأييداً. وهل يعقل أن أهل مدينة كبيرة كلهم يغيرون دينهم ولا احد يعرف بذلك غيرك. ثم لماذا اتهمت الرجل انه قال لك قد زار السكون وحضرموت في اليمن مستشهداً ببيتين قالها في مدح علي بن ابراهيم التنوخي. وأنت تعلم ونحن نعلم أن هذه الأسماء هي اسماء احياء في الكوفة التي ولد فيها. وانه لم ير اليمن وحضرموت وجنوب الجزيرة العربية قط.

وعسى يا معاذ ان لا يغضبك قولي انك انتهازي كبير وأنت في قبرك الذي اجهل موضعه. أنت آمنت بصحة أقوال ابي الطيب وهو يعلن عن نسبه وحقه بالعلوية تحسباً للمستقبل وطمعاً بعد ان لاحظت بني كلب وكلاب وعدي ملتفين حول الشاب القائم الثائر.

ثم تراجعت لما علمت بخروج امير حمص اليه وخشيت عاقبة الأمور فانقلبت على صديق وثق بك وبث شجونه اليك وحكى لك محنته في غيبة أبيه فرحت تزيف الحقيقة في رواية في أولها ايمان وفي آخرها نكران، وفي مستهلها غباء وفي ختامها التواء.

وهكذا وضع معاذ اللاذقي نفسه في خدمة المهلبي ورهطه من دون ان يشعر فنسجوا نسجه في التلفيق. ولاستكمال الصورة لا بد من الاشارة الى ما وصل سمع المعري من روايات مكذوبة عن ادعاء احمد ابي الطيب النبوة.

قال المعري[١٣]: حدثني الثقة عنه حديثاً معناه، انه لما حصل في بني عدي وحاول أن يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه ها هنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقررنا انك مرسل. وانه مضى الى تلك الناقة وهي رائمة في الابل فتحيل حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة وتنكرت برهة ثم سكن نفارها ومشت مشي المسمحة وانه ورد بها الحلة وهو راكب عليها. فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم.

ويقول المعري أيضاً:

وحدثت انه - المتنبي - كان في ديوان اللاذقية وان بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الاقلام فجرحته جرحاً مغلوظاً وأن أبا الطيب تفل عليه من ريقه وشدها غير منتظر لوقته وقال للمجروح، لا تحلها في يومك، وعد له أياماً وليالي وان ذلك الكاتب قبل منه فبريء الجرح فصاروا يعتقدون في ابي الطيب اعظم اعتقاد ويقولون كمحيي الأموات.

ويقول المعري أيضاً:

وحدث رجل: كان ابو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية او في غيرها من السواحل انه اراد الانتقال من موضع الى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ولقيهما كلب الح عليهما بالنباح ثم انصرف فقال ابو الطيب لذلك الرجل وهو عائد انك ستجد ذلك الكلب قد مات.. فلما عاد الرجل لقي الأمر على ما ذكره ولا يمتنع ان يكون اعد له شيئا من الطعام مسموما والقاه عليه وهو يخفي عن صاحبه ما فعل.

هذا ما سمعه المعري وسجله في رسالة الغفران ومن المعروف ان جميع هذه الحكايات عن نبوة المتنبي وغيرها رويت بعد ان سجن الرجل في حمص وليس قبل ذلك. وفي الوقت نفسه

---

(١٣) رسالة الغفران ص ٤١٤ بنت الشاطىء.

تدل سذاجة المعجزات التي وصموا بها المتنبي على جهل الرواة انفسهم بحقيقته. لان حياة شاعرنا الحافلة بالاحداث وديوان شعره الزاخر بالمعاني الكبيرة. يدلان دلالة قاطعة على انه لم يكن (رقيعا) ولا محتالا ليتخذ من ركوب ناقة او تسميم كلب او لف جرح بسيط معجزات يدلل بها على انه نبي مرسل، فهذه الأمور تدين الرواة الذين وضعوها ولا تمس رجلا بأذى او سوء تمكن من اثبات عبقريته وتفوقه.

ان ظهور المتنبي في بني عدي وكلب وكلاب كان لامر آخر هو الاستعانة بهم على اظهار نسبه. فاسرع خصومه لما رأوا من صدق مطلبه وخطورته على وجودهم الى اعتقاله ولكنهم لم يقدروا على طمس كل الحقيقة، فاعترفوا في بعض رواياتهم انه ادعى العلوية، ومن اجل ابعاد ذلك عن محتواه الاصلي وانه طالب ايضا بحقه من ابيه محمد المهدي الامام المنتظر. وقد كان لا يزال في غيبته الصغرى وقتئذ، وحشروا كلمة (حسني) في الرواية تأكيدا لطمس الحقيقة.

ولا بأس ان نتذكر هنا ان احدى الروايات - في نسب المتنبي - وضعت كلمة (الحسن) وهو في رأينا الامام الحسن العسكري في مكانه الحقيقي. اي في مكان جد المتنبي ولا بأس من اعادة ذكر تلك الروايات بكاملها كما سجلها الخطيب البغدادي في تاريخه وغيره من المؤرخين القدامى.

تقول الرواية الاولى انه:

احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي.

وبهذه الرواية - حسب رأينا - يكون الاسم الاول صحيحا وهو احمد ابو الطيب المتنبي. والاسم الثاني - محشورا - للايهام وهو الحسين بن عبد الصمد الجعفي الملقب بعيدان السقاء. وهو الشيخ الكبير الذي اعتنى بالمتنبي منذ ولادته وتوفي والمتنبي - لم يبلغ اشده بعد - ولا يستبعد ان يكون جده لامه. والاسم الثالث (الحسن) يكون صحيحا ايضا وهو الامام الحسن العسكري. اما عبد الصمد الجعفي فهو ابو الحسين (جد المتنبي لامه) كما (زعمنا).

وتقول الرواية الثانية انه:

احمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي:

وبهذه الرواية نجد الاسمين الاولين صحيحين وفي مكانهما السلالي الحقيقي، وهما احمد ابو الطيب بن الامام محمد المهدي. واما الاسم الثالث (الحسين بن عبد الصمد الجعفي) فنجده

قد تحول الى مكان الجد بالنسبة للرواية الاولى وحل محل (الحسن) وكان ذلك للايهام من نوع جديد مع اشارة غامضة الى علاقته بالمتنبي ، فهو جده لامه لا لابيه ، لان جده لابيه هو (الحسن العسكري) كما جاء في الرواية الاولى .

وتقول الرواية الثالثة انه :

احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفي . ولم تصدق هذه الرواية الا في الاسم الاول . ولكنها ذات فائدة من الناحية التي تدفع المؤرخ دفعا الى وجوب تحليل جميع الروايات على ضوء التباين بينها وبين الروايات الاخرى .

وتقول الرواية الرابعة انه :

احمد بن عبدان السقاء . وقد ثبت بالدليل التاريخي ان عبدان السقاء هو الحسين بن عبد الصمد نفسه وكان يلقب بعيدان السقاء . لسبب ما لا علاقة له بحرفة السقاية .

ومما يؤيد المذهب الذي ذهبنا اليه في تثبيت اسم المتنبي واسم ابيه واسم جده وسلالته العلوية . سلوك المتنبي نفسه وهو في طريقه الى السجن وسلوكه في السجن نفسه . حيث ظل كريما عزيزا لم يذل ولم يعبأ بالملوك او الامراء الذين سجنوه مشيرا بوضوح الى أن سبب سجنه يتعلق بالمطالبة لحقه بالعلوية . وانتبه بعض القدماء الى أصالة المتنبي ، كالعميدي الذي أشار في كتابه (الابانة) الى جلالة نسبه(*) .

وقد بدأ تلك العزة والانفة بالبيتين اللذين قذف بهما في وجه سجانه ابن علي الهاشمي عندما قبض عليه في قرية (كوتكين) وامر النجار ان يجعل في رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف :

زعم المقيم بكوتكين بانه   من آل هاشم بن عبد مناف
فاجبته مذ صرت من ابنائهم   صارت قيودهم من الصفصاف

ولا تفوت القارئ النبيه التلميحات عن حديث قد جرى بين ابن علي الهاشمي وبين المتنبي عندما القي القبض عليه . فمثلا لا يستبعد ان يقول ابن علي الهاشمي ، عندما القى القبض على المتنبي ، كيف تزعم انك من الهاشميين او انك ابن الامام ، فانا هاشمي لا اعرفك او اي كلام بهذا المعنى .. فيرد المتنبي مستفيدا من قرم الصفصاف التي قيدته :

(*) العميدي : الابانة في سرقات المتنبي تحقيق ابراهيم دسوقي ص ٢٢ طـ . بيروت

ومن بديهيات علم النفس ان السخرية والنكتة لا يأتيان بداهة بقوة معبرة ما لم يرتكزان على مفهوم الضد في النفس الانسانية. فنكران المتنبي لاصالة ابن علي الهاشمي باسلوب ساخر يعطي دليلا نفسيا على اصالة المتكلم في نفس الموضوع الذي سخر به من مقابله. وهو النسب العلوي. فهذان البيتان الساخران يؤكدان عن طريق التحليل النفسي لقائلهما - وهو المتنبي - انه من بني هاشم سلاليا او تبعيا، وخصومة المتنبي للعلويين نتيجة عوامل اخرى ترفعه من عنصر التبعية، فيبقى العنصر السلالي هو الاقوى وكان تعبير المتنبي في هذين البيتين ينم عن قدرة عقلية. ويقول (جان مايرز).. و (ستوارت) ما معناه. في كل حضارة طوائف انثولوجية او اجتماعية معينة يكون انتماء الفرد اليها بمثابة الوصمة في جبين الفرد ولا يمكن لهذه الوصمة ان يغفل اثرها في رفض الآخرين او نبذهم اياه. ومن المؤكد ان كلمة وصمة التي استعملها العالمان كاصطلاح نفسي محدد لحضارة معاصرة تعني مدلول (الأثر) الثابت والمؤثر في سلوك الفرد في حضارات سابقة كحضارة القرن الرابع الهجري، حيث يكون هذا الاثر نسبيا بالنسبة لمدلوله ما بين حضارة واخرى فعند تحليل معنى (الوصمة) بمدلولها العلمي لا مدلولها اللغوي تجدها جزءا من امتداد الاعراف والتقاليد الموروثة او المكتسبة(١٤).

فمطالبة المتنبي بنسبه في اراضي الشام اعتبرت الطرف الآخر والذي - يهمه الأمر - من زواياه السلبية من دون التحقيق بصحة هذه المطالبة او عدم صحتها انها وصمة لمجتمع قائم على ضرورة بقاء المتناقضات والتفسخ السياسي والتفرقة المذهبية مثلما اعتبر المتنبي قيود خشب الصفصاف، وصمة للعلويين انفسهم وقد انحدر - مجدهم - الى ان يدعي رجل مثل ابن علي الهاشمي انه منهم ويلقي القبض على من هو منهم فعلا.

وبكل صراحة اني لا اتحرج في شرح المتنبي وشعره بهذه الطريقة غير المألوفة وذلك ايمانا مني بأن معظم التاريخ (مزور) وان معظم الروايات مفتعلة ومصنوعة لتأييد قضية معينة او التشهير بها. وهذا الايمان يجعلني ارفض الأخذ بالكلام من جوانبه اللغوية فحسب. او من زوايا مظاهره المنظورة فقط. من غير محاولة النفاذ الى اعماقه لمعرفة اولياته. ولا شك ان مثل هذه المحاولة صعبة جدا. اذ انها لا تشبه المعادلة الكيميائية التي تقول ان (الماء) الذي نشربه ونستسيغه بمظاهره العامة، يتركب من ذرتين من الهيدروجين (العنصر الذي يحترق) وذرة من الاوكسجين (العنصر الذي يساعد على الاحتراق) بينما الماء بمظاهره هو وسيلة من وسائل اطفاء الحرائق. لذلك يتحتم علينا بالنسبة للكلام واجب الغور في اعماقه للتعرف على

---

(١٤) سيكولوجية المراهقة ص ٦١ ترجمة د. ضياء الدين ابو الحب. د. أحمد عبد العزيز سلامة.

العناصر التي كونته بشكل معين وتعبير معين . اذ ان .. المظاهر اللفظية والبلاغية واللغوية وحدها لا تكفي لسبر غور الكلام . لان العناصر الاساس في التعبير تمتد بجذورها حتى اعماق النفس منذ عهد الطفولة ونشأته وتأثيرات المشاكل والعقبات الاخرى ، وكمثال من تأثير طفولة الفرد على سلوكه في كبره قول المتنبي .

اذا لم تكن نفس النسيب كأصله	فماذا الذي تغني كرام المناصب
وما قربت اشباه قوم اباعد	ولا بعدت اشباه قوم اقارب

ان هذين البيتين هما صفوة تجارب وانفعالات ذاتية ترسبت في اعماق نفس المتنبي ، وهذه التجارب بكل تأكيد لها علاقة (بنسب) و (اقرباء) و (اباعد) و(اشباه قوم اباعد .. واشباه قوم اقارب ..) .. فهذه المفردات المتجمعة في (حكمة شعرية) قفزت الى التعبير حين جاءت المناسبة المواتية لها وهذه المناسبة هي (مدح ابي القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي) وهو احد العلويين الاثنين اللذين مدحهما المتنبي ولم يمدح علويا معاصرا له غيرهما .

وحكاية مدحه لابي القاسم طاهر العلوي مثيرة حقا وتكشف عن مركز المتنبي الشخصي عند ذلك الشريف المعتد بنفسه . وتتلخص هذه الحكاية بأن الامير ابا محمد الحسن بن عبيد الله طغج لم يزل يراسل المتنبي وهو في طبرية من الرملة سنة ٣٣٦ للهجرة ويعزم عليه في القدوم اليه ، فلما كثر منه اجابه ومدحه واقام عنده .. مديدة فلم يزل (ابو محمد) هذا يسأل ابا الطيب ان يخص ابا القاسم طاهرا العلوي بقصيدة من شعره وانه قد (اشتهى ذلك) وابو الطيب يقول ما قصدت الا الامير ولا امدح سواه فقال ابو محمد : - عزمت عليك ان اسألك قصيدة تنظمها فيّ ، فأجعلها فيه وضمن له عنده مئات من الدنانير فأجاب :

وتقول الرواية : قال محمد بن القاسم الصوفي . فسرت انا والمظلبي برسالة طاهر الى أبي الطيب . فركب معنا حتى دخلنا عليه وعنده جماعة من الأشراف فلما اقبل ابو الطيب نزل طاهر عن سريره والتقاه مسلما عليه ثم اخذ بيده . فأجلسه في المرتبة التي كان فيها وجلس هو بين يديه فتحدث معه طويلاً ثم انشده ابو الطيب فخلع عليه للوقت خلعاً نفيسة ، وقال علي بن القاسم الكاتب: - وكنت حاضراً هذا المجلس فما رأيت أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمديحه غير ابي الطيب فاني رأيت هذا الأمير قد أجلسه في مجلسه وجلس بين يديه » ..

ولا ارى ضيرا من اعادة قراءة هذه الرواية من الفقرة التي تقول « فدخلنا عليه وعنده جماعة من الاشراف .. حتى اخرها » لكي يتضح لنا امر المتنبي وقناعة الامير العلوي انه

يستقبل رجلا اعلى منه نسبا وارفع شرفا، وهل يوجد رجل يجلس امير بين يديه ويترك له سريره غير ابن الامام المنتظر في ذلك العصر؟

واما القصيدة التي مدحه فيها. تعطينا اكثر من الرواية في حقيقة المتنبي. فبالاضافة الى البيتين اللذين ذكرتهما اعلاه فقد ورد فيها ايضا:

اتاني وعيد الأدعياء وانهم ... اعدوا لي السودان في كفر عاقب
ولو صدقوا في جدهم لحذرتهم ... فهل في وحدي قولهم غير كاذب
الي لعمري قصد كل عجيبة ... كأني عجيب في عيون العجائب
بأي بلاد لم اجر ذوائبي ... واي مكان لم تطأه ركائبي

لنعد مرة اخرى الى «العلوي» احمد ابي الطيب المتنبي وهو في سجنه مهدور النسب ولم يمض على وصوله ارض الشام اكثر من سنة واحدة تقريبا. وهذا ما يؤيد ان سفرته الى الشام كانت مع سبق الاصرار على اعلان امره في بيئة بعيدة عن العراق وحاضرة العباسيين وما كاد يعلن امره ذاك حتى تألب عليه من شعروا بخطورة امره من دعاة الامام الغائب الذين ليس من مصلحتهم ظهور ابن لامامهم ومن دعاة الفاطميين خصوم الطالبيين ومن دعاة القرامطة الذين قد يضعهم ابن الامام المنتظر في مأزق سياسي او مذهبي. وهؤلاء اضافة الى الحكام والامراء الذين خافوا من النتيجة المتوقعة فيما اذا التفت القبائل كلها حول العلوي ابن الامام محمد المهدي. فأسرعوا الى قبر قضيته في مهدها. وتشويهها وتشويه سمعته باشاعة ادعائه النبوة مستفيدين من حقيقة نفسية بشكل غير مباشر وهي استعداد الناس العامة وحتى الخاصة لتصديق مثل هذه الشائعات. غير اننا نجد المتنبي لم تؤثر في نفسه كل التخرصات فذهب الى السجن ساخرا من سجانيه. فيروى ان رجلا اسمه «ابو دلف بن كنداج» ربما كان احد السجانين اهدى له هدية في سجنه بحمص. وكان قد بلغ المتنبي ان «ابا دلف» هذا قد ثلبه عند الوالي فكتب له ردا على هديته:

اهون بطول الثواء والتلف ... والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلت برك بي ... والجوع يرضي الاسود بالجيف
كن ايها السجن كيف شئت فقد ... وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منقصة ... لم يكن الدر ساكن الصدف

وقد بقي المتني في سجنه سنتين، وكانت مطالبته بحقه ترتكز - حتما - على عمليات

عقلية ذات ارتباط متين بمراهقته التي كادت تبلغ عنفوانها لان الانسان في مثل هذا العمر يبدأ يشعر برجولته الحقة وكيانه بين الناس ويرفض الانصياع للنصح المقيد لطموحه الذاتي فتتجمع ترسبات الاحداث في اعماقه وتتفجر بالحقيقة المشابة بعدم تقويم الآخرين لها فسرعان ما يصدمها الواقع الاجتماعي كما صدم المتنبي في بلاد الشام، وفتت طموحه وارسله الى السجن لمجرد انه طالب بحق لم يكن من مصلحة المجتمع وحتى لم يكن من مصلحة اقربائه اظهاره فكيف بالتيارات الاخرى المتألبة عليه وعلى اهله .. الطالبيين.. وكان لتسرع «الابن احمد» في اعلان هويته رد فعل جعله في صف المتهورين.

وبعد ان طال بقاؤه في السجن كتب الى ابن طغج قصيدة فند فيها التهمة التي الصقت بـه.

بيـدي ايهـا الامـير الاريب   لا لشيء الا لانـي غريب
أولام لهـا اذا ذكرتني   دم قلـب بدمـع عـين يذوب
ان اكن قبـل ان رأيتـك اخـ   ـطـأت فانـي على يديك اتوب
عائـب عابنـي لديك ومنه   خلقـت في ذوي العيـوب العيوب

ولا بد لنا ان نسأل هنا، من هو العائب الذي عاب ابا الطيب عند ابن طغج والذي خلقت منه العيوب، وماذا قال حتى جعل ابن طغج يؤيد سجنه ويصر على عدم اخراجه منه ؟؟. لو كان ادعاؤه النبوة كما قالوا لما سبب ذلك حقدا، وانما قد يسبب «سخرية» او ما اشبه. ويبدو ان ذلك العائب الح على ابن طغج بالوشاية واقنعه بضرورة ابقائه بالسجن لاسباب لها علاقة بالمركز والشرف والتفاف القبائل حول المتنبي عن قناعة بصحة نسبه. وهذا ما لا يتفق ووجود الحكام والامراء في مراكزهم. ولو كانت مطالبة المتنبي بحقه في النسب كاذبة لما خشي احد منه واطلق سراحه ليكون اضحوكة بين الناس كجميع الذين ادعوا النبوة بعد محمد.. ويرى محمود محمد شاكر ان الفاطميين والعلويين هم الذين سعوا في ايقاعه في السجن او ان والي الشام نفسه ظن ان بني حمدان في حلب كانوا وراءه في مطالبته بحقه لاسباب سياسية فأبقاه في سجنه حتى عام ٣٢٣ للهجرة وقد ادرك المتنبي مثل هذه التوقعات فكتب قصيدة اخرى وكانت السبب المباشر لاطلاق سراحه بالاضافة الى احتمال توسط التنوخيين له.

ايـا خدد الله ورد الخدود   وقـد قدود الحسان القدود

وقد جاء فيها :

عجبي عدوت على العالمين بين ولادي وبين القعود
لك تقبل زور الكلام وقدر الشهادة قدر الشهود
ولا تسمعن من الكاشحين ولا تعبأن بعجل اليهود
وكن فارقا بين دعوى ... اردت ودعوى فعلت بشأو بعيد

وفي هذه القصيدة اشارة صريحة الى ان الامير قبل زور الكلام في المتنبي والى الكاشحين الذين ارادوا الشر به . وان هناك شخصا بعينه نعته المتنبي « بعجل اليهود » ولا يستبعد ان يكون احد دعاة الفاطميين . والاهم من هذا كله ان يكون التأكيد على وجود دعويين واحدة دعاها وهي المطالبة « بالنسب » وواحدة لفقت ضده واخذ بها الى السجن وهي الثورة ضد السلطان .

وكن فارقا بين دعوى اردت ودعوى فعلت بشأو بعيد

والآن لنناقش الرواية التي تنص على انه حبس حبسا طويلا فاعتل وكاد ان يتلف حتى سئل في امره فاستتابه وكتب عليه وثيقة اشهد عليه (اهل الشام) ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام وانه تائب منه ولا يعاود مثله واطلقه .

فهذه الرواية التي اشهدت عليه اهل الشام الذين ادعى (معاذ اللاذقي) انهم جميعا آمنوا به .. تكشف صيغتها عن بطلانها . لان المتنبي كما قلنا لم يدع النبوة لكي يتوب ، ولم يتنكر للاسلام لكي يرجع اليه . ولكن هذه الوثيقة (ربما) كانت تعهدا منه ان لا يثور مرة اخرى على السلطان مطالبا بنسب، وهذا معقول لان التعهد بعدم ادعاء النبوة لا معنى له . والناس سترفض دعواه بلا تعهد . واما التعهد بعدم الثورة ثانية ففيه التزام يستحق نقضه العقاب . والشهود الذين حضروا التعهد يصبح وجودهم منطقيا تجاه تعهد بعدم المطالبة بحق او قيام بثورة . ولا يعتبر وجودهم مهما من اجل عدم تكرار ادعاء نبوة وخروج المتنبي من السجن غير جازع وغير مستسلم . وانجر بآلامه الى اللاذقية ليمدح التنوخيين الذين من المحتمل كانوا هم الذين توسطوا لاخراجه من السجن . وهناك وصلته رسالة من جدته تطلب عودته الى الكوفة -لأمر ما- وقد بلغها خبر خروجه من السجن وفي ليلة من الليالي شد رحاله وانحدر الى الكوفة وقد امتلأت نفسه تجربة مرة والما .

وظهر الشاعر في الكوفة واسمه ابو الطيب ولم يعرف بالمتنبي بعد مما يدل على ان اللقب الحق به متأخرا نتيجة لترفعه على الناس. وشوهد في عام **٣٢٥** للهجرة يحضر مجالس العلماء والفقهاء في الكوفة ليزداد معرفة وعلما. وقد روى ذلك (الناشىء) ولاحظ ابا الطيب ينقل شيئا من شعره في مسجد الكوفة في ذلك التاريخ(١٥).

---

(١٥) الحموي: معجم الأدباء جـ ١٣ ص ٢٩٠ انظر ترجمة علي بن وصيف الناشىء.

الفصل الخامس

انتهت الغيبة وماتت الجدة واحمد في قمة الهموم

خرج «احمد» ابو الطيب من سجنه مهدور النسب، وربما كان قد صور له خياله او انفعالاته داخل السجن ان «اهله» سيهرعون الى نجدته والاعتراف به ولم يقدر ان حرصهم على قضيتهم في الالتفاف حول الامام المتستر والغائب عن الاعين لا يخولهم الاعتراف بوجود ابن له كما لا يخولهم المجاهرة بتنقلاته او مكان وجوده خوفا عليه من القتل.

ولكننا لا نستبعد انه تذكر نصائح جدته وضغوطها عليه قبل مغادرته الكوفة ان لا يجهر بحقيقة نسبه والا عاد عليه ذلك بالخطر. لانه ليس من مصلحته ولا من مصلحة ابيه ولا من مصلحة الأمر كله. ولا بد ان مثل هذه الخواطر او ما يشبهها مرت سريعة بذهن الفتى «احمد»[1] وهو يوقع الوثيقة التي تكلم عنها الرواة وتعهد فيها بعدم عودته الى القيام والمطالبة بالامامة[2] واشهد عليه اهل الشام في ذلك.

وبعد خروجه من السجن توجه إلى اللاذقية واتصل بالتنوخيين أخلص للأخوين محمد بن اسحق التنوخي والحسين بن اسحق التنوخي. وهناك وافاه كتاب من جدته تطلب فيه رجوعه الى الكوفة.

هنا لا بد من التفكير بمضمون ذلك الكتاب الذي لم يعرف عنه شيء ولم يشر الرواة أو المؤرخون الى نصه أو مضمونه ولم يعثر عليه المنقبون - لحد الآن على الأقل - ولكن توقيته

---

(١) هذا النسب تؤيده احدى الروايات ونحن نذهب الى ان محمد هنا هو محمد المهدي بن الحسن العسكري.

(٢) ورد في كتاب (المتنبي) لـ (أديب صعبي) ص ٧١ الفقرة التالية: اجمع الرواة لسيرة المتنبي انه اسر في الشام وان سبب اسره ادعاؤه الامامة ثم النبوة.

الذي يتراوح ما بين ٣٢٣ للهجرة كما يرى محمود محمد شاكر أو ٣٢٥ للهجرة كما يرى الدكتور طه حسين ذو دلالة توضح سرعة استجابة ابي الطيب لكتاب جدته والتوجه الى الكوفة حتى بدون استئذان تقليدي من قبل اصدقائه التنوخيين.

علينا أن نتذكر أن في هذا التاريخ «٣٢٣ - ٣٢٥» للهجرة اصبح الامام الغائب شيخاً كبيراً. وإن وكيله الثالث أبا القاسم الحسين بن روح قد بلغ من العمر عتياً. وان احتمال تواجدهما في الكوفة أو مرور احدهما بها يعطي جدة المتنبي أملاً للتحدث في قضية حفيدها متشبثة بهذا الأمل الضئيل فكتبت اليه أن يعود. بعد محنته في سجنه. ويبدو أن املها ضاع نهائياً بوفاة الوكيل «ابي القاسم» عام ٣٢٦ للهجرة. وكان هذا العدد ٣٢٦ حاسماً للمتنبي نفسه حيث انه ترك الكوفة وعاد الى بلاد الشام بهموم جديدة وسلوكات جديدة. وبالرغم من عدم وجود دلائل مادية أو وثائق مسجلة تشير إلى مثل هذه العلاقة بين وفاة الوكيل ابي القاسم وخروج المتنبي هائماً على وجهه الى بلاد الشام في نفس التاريخ. فاننا نقدر أن نتلمس هذه العلاقة من الانفعالات التي ظهرت في شعر المتنبي بعد هذا التاريخ بشكل مبهم يؤكد المرارة التي تغشى نفسه بسبب امر مبهم:

فؤاد ما تسليه المدام ... وعمر مثل ما تهب (اللئام)
ودهر ناسه ناس صغار ... وان كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكن «معدن الذهب الرغام»
أرانب غير انهم ملوك ... مفتحة عيونهم نيام
وخيل لا يخر لها طعين ... كأن قنا فوارسها ثمام
خليلك انت لا من قلت خلي ... وان كثر التجمل والكلام
ولو حيز الحفاظ بغير عقل ... تجنب عنق صيقله الحسام
وشبه الشيء منجذب اليه ... وأشبهنا بدنيانا الطغام

زعمنا في فصل سابق ان الوكيل أبا القاسم كان وراء إدخال المتنبي صغيراً (عمره اربع سنوات) في مدارس اشراف العلويين «ليتعلم علومهم» وبناء على «زعمنا» هذا لا نستبعد ان يكون أبو القاسم يعرف حقيقة نسبه ولو دامت حياته فترة اطول - ربما - تمكنت جدة المتنبي من لقائه في الكوفة او بغداد بعد رجوع المتنبي من بلاد الشام في عام ٣٢٥ للهجرة وحاولت اقناعه برد نسب حفيدها.

وربّ سائل يقول : لماذا لم يخط ابو القاسم هذه الخطوة خلال الفترة الطويلة التي مارس فيها « وكالة الامام محمد المهدي » ؟ فجوابنا عن هذا التساؤل ! تحدده قضية الامام السرية والخوف من بطش العباسيين وكثرة الرقباء على تحركات الطالبيين هذا بالاضافة الى سلوك الوكيل نفسه وقد وصفه الطوسي بكتابه الغيبة أنه شديد الحذر وقد اشتهر بالتقية وتمسك بها تمسكاً كبيراً[٣] ولو كان الحجة (الامام) تحت ذيله وقرض بالمقاريض ما كشف الذيل عنه . ورجل ملتزم بمثل هذاالكتمان وحريص على (الامام) ويفضل ان يقرض بالمقاريض على البوح بمكانه أو بما يتعلق به من أمور اجتماعية لا بد أنه يفكر الف مرة قبل ان ينطق بعلاقة المتنبي بصاحبه وخصوصاً بعد ان راقب عن كثب اندفاعات الابن في بلاد الشام وتهوره ومطالبته بالامامة وفي العلوية . مما جعله يتوصل الى أن التضحية بنسب الابن ضرورة واجبة في هذه الحالة وذلك من أجل المحافظة على تنظيمات الحركة او القضية التي تطاردها السلطة مطاردة شرسة وتتحفز لها المذاهب الأخرى . وفي الوقت نفسه أرى ان نتذكر أن الخليفة ارسل من صادر دار الامام الحسن العسكري عند وفاته في سامراء - وكان محمد المهدي طفلاً آنذاك - ولكنهم لم يعثروا على الطفل في حينه وأعلن وكلاؤه بعد ذلك انه اختفى لكي يظهر ويملأ الأرض عدلاً ولا يراودنا شك بأن الوكيل الأول أبا عمرو عثمان بن سعيد بن عمرو العمري الأسدي كان له دور كبير في اخفاء الطفل عن أعين رجال الخليفة عندما داهموا الـدار وصادروا ما فيها كما أن ذلك الوكيل كان له شأن كبير في تنظيم القضية على أسس سرية تلتف حول (الامام الغائب) ومن المعروف عن سلوك ذلك الوكيل انه كتوم لأمر (القضية المهدوية) الى حد انه نفسه تخفى في (زي سمان) يبيع السمن كي لا ينكشف امره وإدارته لشؤون الامام (محمد المهدي) وقد عرف لذلك تاريخياً بالسمان . وهكذا اصبح الحذر الشديد والتخفي أسلوباً لتطور (القضية) مدة نصف قرن تقريباً حتى انتهت (الغيبة الصغرى) . ومن شدة الحذر على الامام محمد المهدي لم يتخاطب اصحابه باسمه حرصاً عليه من السلطان فكانوا اذا ورد اسمه أو ذكره قالوا (الحجة) أو (القائم) أو (صاحب الزمان) أو الغائب.

وكانت هذه الألفاظ كمفاتيح للقضية أو (كلمات سر) تؤيد الانتماء الى الطالبيين وقد ..رت بعد ذلك الى عنصر كهنوتي ، يدخل في باب الحرام والحلال أو المستحب وغير المستحب ..لما يذكر الاسم الصريح للامام ، وكل هذا امتداد مقبول لامتداد ضراوة السلطان والمذاهب ..خرى في محاربة الطالبيين واستمراريتها مما لم يترك فرصة للكشف عن كثير من الأمور

(٣) كتاب الغيبة ص ٢٤١ الطوسي .

حتى وفاة الوكيل الرابع عام ٣٢٩ للهجرة. وحتى تلك الوفاة لم يجدوا فيها ما يكشف عن أمور المهدي الزمنية المعاصرة. ومنها تنقلاته من بلد الى بلد وحياته الاجتماعية وزواجه او تسريه في الكوفة أو غيرها من المدن التي مر بها ومكث فترة زمنية أطول مما جعل المؤرخين يحتارون في (لغز المهدي) ويتخبطون في نسب المتنبي. وعلى سبيل المثال - بالنسبة لنسب المتنبي -[٤] نذكر ما قاله الدكتور طه حسين في كتابه (مع المتنبي) من أن مولد المتنبي كان شاذاً وأن المتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها ولم يستطع أن يلائم بين نفسه الشاذة وبين البيئة الكوفية التي كان يراد له أن يعيش فيها « ثم يرى الدكتور طه حسين أن المتنبي كان ابناً غير شرعي لأحد العلويين ».. وغريب مثل هذا الرأي عندما يصدر من الدكتور طه حسين وهو جدير بأن يعرف ان كلمة (مولود شاذ) أو كلمة (مولود غير شرعي) لم تكن دلالتها الاجتماعية كما نفهمها في عصرنا الحاضر. لأن الحصول على الجنس في القرن الرابع الهجري وما سبقه وما تبعه حتى لفترة غير بعيدة كان متوافراً عن طريق تعدد الزوجات ونظام (ما ملكت ايمانكم) والتسري والمتعة وشراء الجواري. إن هذه الأمور كانت من صلب النظام الاجتماعي. حتى أن بعض الفقهاء اجتهدوا (بأن للزوجين أن يتآمرا على اخفاء عقد زواجهما)[٥] وذلك في بعض الحالات التي يصبح فيها اعلان الزواج خطراً على الزوجين أو على احدهما. وكان على الدكتور طه حسين أن يفكر ملياً بدقة كلمة (يتآمرا) او (تآمرا) الواردة في هذا النص وما يترتب عليها من نتائج بالنسبة للأولاد. ونحن لا نستبعد أن يكون الامام المهدي قد سلك هذا المسلك في زواجه حرصاً على القضية الكبيرة المحاطة بالكتمان. وربما ترك الكوفة قبل ان تلد زوجه. فتعقدت الأمور بنظر اصحابه ووكلائه بالنسبة للمولود وبالنسبة للأم التي هي بنت الحسين بن عبد الصمد الجعفي كما (زعمنا).

ولا يختلف انحراف طه حسين في موضوع نسب المتنبي عن انحرافه في ظنه أنه تأثر بالقرامطة أو أنه اصبح داعية من دعاتهم وأنه طمع في أن يستهوي (بدر بن عمار امير طبريا) الى قرمطيته القديمة[٦].

إن الحماس الذي كان يتقد في نفس المتنبي قبل خروجه من العراق للمرة الأولى ينفي الاتجاهين اللذين ذهب اليهما طه حسين في شذوذ نسبه وقرمطيته. كما يؤكد ذلك الحماس بأنه

---

(٤) مع المتنبي ص ٢٥ طه حسين.
(٥) شرائع الاسلام ج ٢ ص ٢٧٤ المحقق المحلي.
(٦) مع المتنبي ص ١٣٠ طه حسين.

يتهيأ لأمر كبير يسعى للقيام به. وأدعو القارىء الى التأمل في جملة (وينجلي خبري) التي قالها المتنبي في صباه ضمن هذا البيت:

سيصحب النصل مني مثل مضربه ... (وينجلي خبري) عن صمة الصمم

وهذا البيت من قصيدة طويلة يقول فيها:

أرى أناساً ومحصولي على غنم ... وذكر جود (ومحصولي على كلم)
لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن اقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم
أيملك الملك والاسياف ظامئة ... والطير جائعة لحم على وضم
من لو رآني ماء مات من ظمأ ... ولو عرضت له في النوم لم ينم
ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فان أجابوا فما قصدي بها لهم ... وإن تولوا فما أرضى لها بهم

ونجد الوعيد الذي هدد به ملوك العرب والعجم لا يمكن أن يصدر الامن فتى يعرف تماماً أصالته ومركزه السلالي - في القرن الرابع الهجري - وانه من قوم هم أرفع من ملوك العرب والعجم. وان موعدهم معه غداً - يوم يرث الامامة - فمن اطاع واستجاب له فما هو قاصده (بها) والثورة على الظلم لن تمسه. ومن تولى سينال عقابه.. وأكد المتنبي على أهميته الشخصية وشرفه الذي فوق شرف قومه في الوقت الذي أصبح قومه أنفسهم فخر جميع العرب وكل من تكلم العربية.

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا ... د وعوذ الجاني وغوث الطريد
ان اكن معجباً فعجب عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافي ... وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في امة تداركها الله ... غريب كصالح في ثمود

قلنا ان المتنبي غادر الكوفة للمرة الثانية عام ٣٢٦ للهجرة وهو نفس العام الذي توفي فيه وكيل الامام الثالث. وقلنا ان هذا العام كان حاسماً في حياته وبقيت أسباب مغادرته الكوفة لغزاً آخر عند الرواة والمؤرخين. ولم يبح هو نفسه به وبقي منطوياً عليه كما ظل منطوياً على

أمر ابيه بعد أخذه الى السجن قبل هذا التاريخ . ولكن وسائل التعبير عنده كشفت عن ذلك اللغز بعد عدة سنوات من هذا التاريخ عندما ماتت جدته فرثاها بأجمل قصائده وأصدقها وكاد يمزق نفسه اعترافاً بنسبه - كما سنرى في آخر الفصل - وأما الآن فلنتتبع انفعالاته بعد عودته الى بلاد الشام وقد فقد أمله باظهار نسبه بعد وفاة الرجل الذي كان يعول عليه في ذلك وهو وكيل الامام الثالث . فتجمعت عنده هموم جديدة وتراكمت فوق همومه القديمة وراح يتنفس هذه الهموم بعد وصوله بلاد الشام . بينما كان ساكتاً - تقريباً - عن قول الشعر مدة ثلاث سنوات او سنتين قضاهما في الكوفة بعد رجوعه اليها على أثر وصول كتاب جدته . وسكوته ذاك يضع علامة استفهام جديدة في سجل حياة المتنبي . وجاءته المناسبة المباشرة لكي يتنفس همومه من خلالها بعد أن فقد امله في اثبات وجوده السلالي في الحياة . فقال وهو في معرض مدح (المغيث بن علي العجلي) في انطاكية :

أذاقني زمني بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى - ما عاش - وانتحبا
وان عمرت جعلت الحرب (والدة) والسمهري (أخاً) والمشرفي (أبا)

لنقف قليلاً عند هذا البيت ونكشف عن شعور المتنبي بحاجته الى والدة توازي الحرب والى اخ يوازي الرمح والى أب يوازي السيف . ومثل هذه المعاني والالحاح فيها في بيت واحد ليس لها تفسير (نفساني) غير كبت عقدة الأسرة وعدم التمكن من البوح بها . وخصوصاً بعد محنة السجن في حمص ومحنة ضيعة الأمل في الكوفة .

بكل اشعث يلقى الموت مبتسماً حتى كأن له في قتله أربا
قح يكاد صهيل الخيل يقذفه عن سرجه مرحاً بالعز أو طربا
فالموت اعذر لي (والصبر أجمل بي) والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

أرأيت الدقة في كلمة (الصبر أجمل بي) التي تكاد تفضحه وهو يعلن عن صبره على امر لا علاقة له مطلقاً بممدوحه .. وقد كان المتنبي اكثر صراحة في الاعلان عن انفعالاته الجديدة وهمومه المتراكمة في قصيدة ثانية قالها امام (المغيث العجلي نفسه) :

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تهب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

وهذه القصيدة تتضمن عدة أبيات كلما قرأتها ازداد قناعة بأنها تحمل أكثر من عتاب وأكثر من لوم لأبيه (صاحب الزمان) ولكنها تداخلت مع هذه القصيدة وشرحها كل الشراح من الزوايا اللغوية واللفظية والبلاغية فحسب. وتجاوزا لكل تلك الشروح أرى فيها صراحة منقطعة النظير في عتاب والده الذي خفي الزمان به. وأبعده عن أنظار الخاصة والعامة. حتى أصبح لغزاً في نظر أهل عصره ابقى (غلاماً صغيراً) كما اختفى يوم داهم الخليفة دار ابيه في سامراء ثم اصبح شيخاً كبيراً. ولا أطلب من القارىء أن يذهب مذهبي في هذا التعليل وإنما كل ما اطلبه أن يقرأ هذه الأبيات معي بتجرد من كل الشروح القديمة والحديثة لها ويخرج منها (برأي علمي نفساني).

وقد خفي الزمان به علينا ... كسلك الدر يخفيه النظام
تلذ له المروءة وهي تؤذي ... ومن يعشق يلذ له الغرام
تعلقها هوى قيس لليلى ... وواصلها فليس بها سقام
يروع ركانة ويذوب ظرفاً ... فما تدري اشيخ ام غلام
وتملكه المسالك في نداه ... واما في الجدال فلا يرام
وقبض نواله شرف وعز ... وقبض نوال بعض القوم.. ذام
اقامت في الرقاب له اياد ... هي الأطواق والناس الحمام

إن ظاهرة هذه الأبيات مدح لممدوح المتنبي (غياث العجلي) ولكن باطنها كما عودنا المتنبي ينم عن وجود (رجل معين) في مخيلة المتنبي (غاب الزمان به) وترك ابنه في محنة النسب. وبالرغم من ان ضمائر البيت الثالث في هذه القطعة:

تعلقها هوى قيس لليلى ... وواصلها فليس بها سقام

تعود (لغة) الى كلمة (المروءة) الموجودة في البيت الذي سبقه فان تداعي معانيها وعلاقته (بالحب) ومواصلة فتاة ليس بها (سقام) يصور لنا عمق الكبت الاجتماعي في نفس المتنبي من جراء قضية (ابيه وأمه) وهذا البيت بمثابة تفسير لعلاقة زواج معينة لا تزال مجهولة والذي يؤيد ذلك ان هذا المعنى (تداعى) من اللاشعور بعد المعنى الواضح (خفي الزمان به علينا) فكل اتجاه في شرح هذه القطعة التي وجدتها كصرخة معبرة في قصيدة مطلعها.

فؤاد ما تسليه المدام ... وعمر مثل ما تهب اللئام

لا يتجه اتجاه تحليل عقد المتنبي النفسية في نسبه وسجنه وهمومه يكون اتجاهاً سطحياً لا يفيد غير اللغة وقواعدها. ويكون بعيداً عن معاني الأزمات النفسية والانفعالات الانسانية التي تبوح بالحقائق عن طريق الرموز والتلميحات غير المباشرة وبدون شعور المتكلم نفسه. ولم تستقر التفاعلات النفسية عند المتنبي فنجده ينوء تحت ثقل الترسبات نفسها ويقذف ببعضها في وجه علي بن ابراهيم التنوخي في نفس الفترة الزمانية أي بعد عودته الى بلاد الشام من الكوفة:

أفكر في معاقرة المنايا ... وقود الخيل مشرفة الهوادي
زعيم للقنا الخطي عزمي ... بسفك دم الحواضر والبوادي
الى كم ذا التخلف والتواني ... وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل الناس عن طلب المعالي ... ببيع الشعر في سوق الكساد
وما ماضي الشباب بمسترد ... ولا يوم يمر بمستعاد

وحقد المتنبي على (الحواضر والبوادي) امر طبيعي لو أخذنا بنظر الاعتبار محنته في نسبه التي ازدادت تعقيداً فراح يحمل مسؤولياتها لكل الناس. ومثل هذه الظاهرة تصيب كل انسان عندما يشعر بعدم الاعتراف بحقه المشروع من قبل الآخرين فيتمنى او يفكر لو انه تمكن من القضاء على أولئك الآخرين. ولكننا نجد تحركات موضوعية جالت في فكره فانقذته من الحقد المطلق وطورته الى نوع من الحكمة:

وما ماضي الشباب بمسترد ... ولا يوم يمر بمستعاد

وهذا البيت اراه يفسر سلسلة معقدة وطويلة تصل ماضي المتنبي بحاضره وما مر بينهما من أيام لا يمكن استردادها او اعادتها. ولكن انفعالاته بقيت هي المسيطرة على أعماق نفسه وهي المتنفس الوحيد لهمومه وخيبة امله في (قضيته) فراح يقول لعلي بن ابراهيم التنوخي ايضاً:

بكل أرض وطئتها امم ... ترعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه ... وكان يبرى بظفره القلم
اني وان لمت حاسدي فما ... انكر اني عقوبة لهم
وكيف لا يحسد امرؤ علم ... له على كل هامة قدم

وقال في مدح أبي علي الأوراجي مروراً بانفعالاته ذاتها ومنطلقات محنته نفسها:

نـا صخـرة الـوادي إذا ما زوحمت ... وإذا نطقـت فانني الجوزاء
وإذا خفيـت «على الغبـي» فعاذر ... ألا تراني مقلـة عمياء

ومن نفس المنطلقات قال يخاطب بدر بن عمار:

كأن الحـزن مشغـوف بقلبي ... فساعـة هجرهـا يجـد الوصالا
كذا الدنيـا على من كان قبلي ... صروف لم يدمـن عليـه حالا

ومن الملاحظ ان شعر المتنبي - في هذه الفترة - التي تبدأ برجوعه الى أرض الشام وتنتهي بموت جدته كان يزخر بالمتنفسات الصارخة التي تعبر عن يأسه من قضية (علويته) وهمومه الجديدة التي بدأت تتراكم بعد عام ٣٢٦ للهجرة. وفي ختام هذه الفترة يجمع الرواة بأن كتاباً وصله من جدته لأمه تشكو شوقها اليه وطول غيبته عنها فتوجه نحو العراق ولم يمكنه (وصول الكوفة على حالته تلك) فانحدر الى بغداد وكانت جدته قد يئست منه فكتب اليها كتاباً يسألها المسير اليه فقبلت كتابه وحمت لوقتها سروراً به وغلب على قلبها فقتلها.

لدى قراءة هذه الرواية بامعان ليس بوسعنا الا ان نضع عدة علامات استفهام كبيرة على ما ورد فيها.

فما هي حالته تلك التي لم تمكنه من دخول الكوفة ؟ ومتى بدأ اليأس يدب في قلب جدته الصالحة والحازمة ؟ ولماذا ؟.

لماذا طلب منها أن توافيه الى بغداد ؟ وكيف ماتت ؟ وما هي علاقة الحمى بالسرور من الناحية الطبية ؟.

وأهم كل ذلك. كيف كانت تنقل رسائل الجدة الى المتنبي وبالعكس وماذا كان يجري من أحاديث شخصية أو توصيات عندما يتوجه حامل الكتاب.

وأين هي تلك النصوص. وقد أيد المتنبي نفسه في شعره وجود مثل هذه المراسلات ؟ ولماذا قبلت الجدة كتاب حفيدها أهي قبلة شوق حقاً. أم قبلة احترام لسليل نسب تعرف أصالته ؟.

ولكي نجيب عن علامات الاستفهام الكبيرة التي أشرنا اليها اعلاه لا بد لنا من أن نتذكر رواية ابن الجوزي عن هدم مسجد براثا عام ٣١٣ للهجرة وكيف أن رجال الخليفة عثروا في جيوب ثلاثين انساناً على خواتم من الطين كتب عليها اسم الامام كما كان يفعل دعاة الفاطميين. وأن نربط تلك الرواية بما رواه ابن الجوزي أيضاً[٧] من أن الأمير بجكم امر باعادة بناء مسجد براثا في عام ٣٢٨ للهجرة وبتوسيعه ليكون مسجداً لأهل السنة. ونجد ابن الجوزي بعد ذلك يذكر حادثة وقعت في عام ٤٢٠ للهجرة ويصف خطيب مسجد براثا بقوله (وكان شيعياً) وهذا ما يدل على أن إعادة بناء مسجد براثا في عام ٣٢٨ كان لسبب يتجاوز جعله مسجداً لأهل السنة. وانما - ربما - قد علمت الدولة بوفاة الامام محمد المهدي هذا العام فلم تعد تخاف تجمعات الطالبيين في مثل هذا المسجد ذي الدلالة الروحية. وإما جعله مسجداً لأهل السنة، فكان سببه - على ما يبدو - إرضاء لأهل السنة ودفعاً لمعارضتهم. علماً ان الزمن أعاد المسجد لأهله. وموت الامام في هذا العام أو قبله بقليل من أقوى الأسباب التي تفسر معنى قول الوكيل الرابع والأخير ابي الحسن علي بن محمد السمري والمتوفى عام ٣٢٩ للهجرة. عندما حضرته الوفاة (لله امر هو بالغه) وقوله عندما سئل عمن سيخلفه في الوكالة (لم أأمر بذلك) وكان صادقاً. لأن الرجل الذي يأمر (كان قد توفي) وانتهت غيبته وخشي الوكيل من التصريح بذلك حذر الفتنة او الانشقاق. وفي هذا العام وصل المتنبي الكتاب الذي نوهنا عنه ورواه الرواة بغموض. ولكن المتنبي تباطأ في الرحيل بعكس ما اظهره من العجالة عندما وصله كتاب جدته بعد خروجه من السجن قبل بضعة أعوام. وهذا التباطؤ يفسر معنى اليأس الذي أصاب الجدة كما ورد في الرواية. ويفسر معنى الشوق بعد اليأس.

وقد أدرك هذه الحقيقة الأستاذ ابراهيم العريض[٨] فقال: «وأثناء ما هو يتنقل في ربوع الشام يرد عليه كتاب لجدته العليلة من الكوفة تستجيفه (كذا) وتشكو شوقاً اليه وطول الغيبة عنها. ولا يغيبن عنك هنا دلالة تاريخ هذه الرسالة من جدته فقد حررتها اليه عام ٣٢٩ للهجرة. أفلا يدلنا ذلك على اكثر من شيء تبطنه تلك الرواية ولا يصرح به التاريخ؟.

وعندنا ان كتاب جدته في هذا التاريخ. كان يتعلق بموت ابيه أولاً وموت وكيله الأخير. والذي يفسر ذلك جملة فتوجه نحو العراق ولم يمكنه وصول الكوفة على حالته تلك. إذ اننا

---

(٧) المنتظم: لابن الجوزي. راجع ص ١١٧ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري. آدم متز.

(٨) مجلة العلوم اللبنانية عددا مايس وحزيران ١٩٦٣ (ابراهيم العريض).

لا نجد أي معنى لكلمة (حالته تلك) ما لم تكن ذات علاقة بموضوع سياسي أو مذهبي أو سلالي . وخصوصاً نحن نعلم انه تمكن من دخول الكوفة قبل هذا التاريخ ببضع سنوات . أما الآن وجدت الجدة نفسها وحيدة . وقد توفي اكثر او جميع من يعرفون زواج ابنتها ويعلمون حقيقة الزوج ويعلمون أن المتنبي هو الثمرة الشرعية لذلك الزواج ولم يبق لها سند يحميها من المتعصبين الذين يرفضون أن يكون للامام ولد . كما أن المتنبي نفسه بحس منه أدرك ذلك فلم يتمكن من الوصول الى الكوفة وهوَ بتلك الحالة . فكتب لها أن توافيه الى بغداد . ولكن كتابه وصلها متأخراً إذ كانت عليلة محمومة فلم تقدر ان تقاوم الحمى والسرور وقد شاخت وهرمت فتوفيت . ورثاها بقصيدة تكاد أن تكون ثورة على خصومه في إظهار نسبه وهم العلويـون أنفسهم :

ألا لا أرى الأحـــداث مدحـــاً ولا ذماً	فما بطشهـــا جهـــلاً ولا كفهـــا حلما
إلى مثـل ما كان الفتـى مرجـــع الفتى	يعـــود كما أبـــدى ويكـــرى كما أرمى
لك الله من مفجوعـــة بحبيبها	قتيلـــة شوق غـــير ملحقهـــا وصما
أحـــن إلى الكـأس التـــي شربـــت بها	وأهـــوى لمثواهـــا التـــراب ومـــا ضما
بكيـــت عليهـــا خيفة في حياتها	وذاق كلانـــا ثكل صاحبـــه قدما

أرى أن نقف قليلاً عند بكاء المتنبي (خيفة) في حياة جدته وقد ذاق كل منهما ثكل صاحبه من القديم ونبحث عن أسباب تلك (الخيفة) وعن الأسباب التي جعلت كل واحد منهما يفارق صاحبه قدماً . ولكن المتنبي في ثورته هذه يجيبنا عن ذلك :

ولـــو قتـــل الهجـــر المحبـــين كلهم	مضى بلـــد باق أجـــدت له صرما
عرفـت الليـــالي قبـــل ما صنعـــت بنا	فلما دهتنـــي لم تزدنـــي بهـــا علما

إنه كان يعرف الليالي وقد خبرها قبل ما صنعت به وبجدته فلما دهته بموتها لم تزده علماً بها :

منافعهـــا ما ضر في نفـــع غيرها	تغـــذي وتـــروي أن تجـــوع وأن تظما

وبعد هذا يعلن ثورته النفسية ويشرح قضيته :

أتاهـــا كتابـــي بعـــد يأس وترحة	فماتـــت سروراً بي فمـــت بهـــا غما

وله الحق في أن يموت غماً بموتها. بعد أن كانت له السد المنيع الذي يصد عنه كيد خصومه في إظهار نسبه:

حرام على قلبي السرور فانني أعد الذي ماتت به بعدها سما
تعجب من لفظي وخطي كأنما ترى بحروف السطر اغربة عصما

هذا البيت يشير بوضوح إلى أن جدته كانت غير مصدقة بسلامته من كيد الأعداء - وربما - كانت تظن أنه قتل بعد ان مات أبوه ووكيل أبيه مما أعطى فرصة لخصومه ولذلك راحت تعجب من كتابه ولفظه وخطه وكأنها ترى في كل حرف من حروفه (غراباً أعصم) وهو الغراب الأبيض نادر الوجود:

وتلثمه حتى أصار مداده محاجر عينيها وأنيابها سحما
رقا دمعها الجاري وجفت جفونها وفارق حبي قلبها بعد ما أدمى
ولم يسلها إلا المنايا وإنما أشد من السقم الذي أذهب السقما
طلبت لها حظاً ففاتت وفاتني وقد رضيت بي لو رضيت بها قسما
فأصبحت أستسقي الغمام لقبرها وقد كنت استسقي الوغى والقنا الصما

يشرح محمود محمد شاكر هذين البيتين بالشكل التالي [٩]، يقول:

«ومعنى البيتين عندنا. كانت العجوز رضي الله عنها قد رغبت الي أن اكتم أمر نسبتي العلوية إلى أن يشاء الله. ولكني خالفتها وآثرت فراقها لعلي أصيب بعيداً عن الكوفة ما لم أدرك بها فخرجت أطلب لها (حظاً) أي فضلاً وخيراً في رد شرف انتمائنا الى العلويين ولكن شاء ربك أن تفوتني بها الأحداث فتموت. ويفوتني أيضاً بعد موتها ذلك الحظ لما اعلم من أنها كانت هي السبب في امتناعهم عن الفتك بي ان حاولت أمراً - فوا حسرتاه - لم خالفتها وخرجت اطلب لها هذا الحظ وقد رضيت بي قسماً وحظاً ونصيباً وجعلت ظفرها بي عدلاً لما فاتها من الحظ الذي كنت اطلبه لها. فيا ليتني رضيت بها كما رضيت بي وجعلتها عدلاً لما فاتني من هذا الحظ:

وكنت قبيل الموت استعظم النوى فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى
هبيني أخذت الثأر فيك من العدى فيكف بأخذ الثأر فيك من الحمى

---

(٩) المقتطف عدد ١/كانون الثاني/١٩٣٦ ص ٢٩.

إذاً يوجد أعداء لتلك العجوز الصالحة. فمن هم؟ وما سر عداوتهم؟ لا شك ان تلك العداوة ذات علاقة مباشرة بزواج ابنتها من رجل أولدها طفلاً. وما أرادوا أن يكون لها ذلك. وكبر الطفل شاباً ودفعه حماسه الى المطالبة بحقه في نسبه فتركزت العداوة.

وما انسدت الدنيا علي لضيقها ولكن طرفاً لا أراك به أعمى
فوا أسفا ألا اكب مقبلاً لرأسك والصدر اللّذَيْ ملئا حزما

وأطلب من القارئ أن يتأمل كلمة (ملئا حزماً) وأسباب ذلك الحزم. والأسلوب الذي استعمل فيه والغاية من ذلك.

والا الاقي روحك الطيب الذي كأن ذكي المسك كان له جسما
ولو لم تكوني بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لي أما

وهذه التزكية بالنسب تدحض كل افتراءات الرواة.

لئن لذ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لأنفهم رغما

الشامتون الذين سرهم موتها هم اعداؤها وأعداؤه الذين ما أرادو أن يولد فولد رغماً لأنوفهم. وما أرادوها ان تخبره بحقيقة نسبه. ولكنها أخبرته. وكانوا يتوقعون أن يبقى زواج الامام محمد المهدي سراً من الأسرار عندما مر في الكوفة متستراً عن الأعين ولكن زواجه اثمر المتنبي وجهدوا ان لا يعرف الولد نسبه. ولكن النواحي الانسانية التي ظهرت بعدئذ عند من اعتنى به وأدخله مدارس العلويين لكي يتعلم علومهم اسكتت المتطرفين ممن يعرفون الحقيقة. وبعد أن كبر الطفل وأخبرته جدته بحقيقة نسبه. دفعه حماسه في صباه الى مطالبته بحقه في نسبه فسجن. ثم أطلق بتعهد أن لا يتفوه بهذا الأمر بعد ذلك. ولكن طبيعة سرية الدعوة بقيت تتعقب الشاب المهموم بطموحه وتتمنى قتله. ولكن جدته كانت وراءه حتى آخر حياتها. لذلك لذ لهم يوم وفاتها. فقذف بوجوههم بقوله (لقد ولدت مني لانفهم رغما).

وكان من المفروض أن يقول بعد هذا البيت ما يشير الى التحدي المباشر للشامتين ولكن الحقيقة أوحت له أن يقول بعد هذا البيت مباشرة ما يفسر سبب تغربه بعد أن (ولد لأنفهم رغما):

تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالقه حكما

ولا سالكـاً الا فؤاد عجاجة   ولا واجـداً الا لمكرمـة طعما
يقولـون لي ما أنـت في كل بلدة   ومـا تبتغـي ما ابتغـي جل أن يسمى
كأن بنيهـم عالمـون بأنني   جلـوب اليهـم من معادنـه اليتما
ومـا الجمـع بـين المـاء والنـار في يدي   بأصعـب من أن اجمـع الجـد والفهما

فهذه الأفكار المتداعية كالقنابل المتفجرة بعد ولادته عن أنفهم رغما لا تقبل المناقشة في اصالته التي هي أجل من أن تسمى غير (الامامة) والمطالبة بحقه فيها (لأنفهم رغما). واستمرت أفكاره تتداعى على هذا المنوال المتدفق والصريح في الانتساب الى العلويين الذين يحاربونه حتى لا يبوح بأمره.

ولكننـي مسـتنصر بذبابه   ومرتكـب في كل حال به الغشما
وجاعلـه يوم اللقـاء تحيتي   وإلا فلست السيـد البطـل القرما
إذا فل عزمـي عن مدى خوف بعده   فأبعـد شيء ممـكن لم يجـد عزما
وانـي لمن قوم كأن نفوسهم   بهـا أنف ان تسكن اللحـم والعظما

لنتأمل البيت الأخير:

كذا أنـا يا دنيـا اذا شئـت فأذهبي   ويـا نفس زيـدي في كرائهها قدما
فلا عبـرت بي ساعـة لا تعزني   ولا صحبتنـي مهجـة تقبـل الظلما

وهكذا انقطع حبل الرجاء الذي كان شاهد العيان الأول والأخير على نسب المتنبي وماتت الجدة الفاضلة التي جرعت الحياة غصصاً بموت ابنتها (ام المتنبي) وهي صبية بظروف قسرية. وبتربيتها للطفل الذي ماتت امه وأنكره أهله وتآمروا على إخفاء نسبه لظروفهم السياسية والمذهبية. ولكن القوم بدأوا يتهامسون بعد ذلك التاريخ بوجود ولد للامام محمد المهدي واستمر الهمس يتواتر حتى بلغ مسمع (الطوسي) بعد قرن من الزمان فناقشه كما أشرنا الى ذلك في الفصل السابق. وقد نفت تلك المناقشة وجود امام ثالث عشر ولكنها عجزت عن نفي وجود ولد للامام. وكل ما فعلت هو إبداء ارتياحها من زوال من قالوا بوجود ولد.

ومن الأمور التي تجلب الانتباه في القرن الرابع الهجري توافق تاريخ مقتل المتنبي وابنه محسّد في عام **٣٥٤** للهجرة مع تاريخ اختيار نقيب للطالبيين لأول مرة. وقد كان من العرف «أن يكون لبني هاشم من العباسيين والطالبيين نقيب واحد ولكنه صار لكل فريق منهم

نقيب» فيذكر ابن الجوزي انه في عام ٣٥٤ للهجرة تقلد أبو أحمد الحسين بن موسى نقابة الطالبيين[١٠] وهنا يخطر ببال القارىء أن يسأل. لماذا تأخر الطالبيون في اختيار نقيب لهم بعد موت الوكيل الرابع والأخير الذي توفي في عام ٣٢٩ للهجرة وبعد انتهاء الغيبة الصغرى. وهل كان اختيار نقيب لهم في نفس العام الذي قتل فيه المتنبي وابنه محسّد مجرد صدفة. أم تحسباً له في حياته وخوفاً من أن يطالب بحقه فيها كما فعل في شبابه.. وأية صدفة هذه التي تنظم الى سلسلة الصدف التي أثرت في حياته وكانت تتفق وتواريخ بعض منعطفات الطالبيين؟

ففي عام ٣٠٦ للهجرة تسلم وكالة (الامام الغائب) وكيل جديد وفي نفس العام دخل المتنبي (كتاباً) يدرس فيه أبناء أشراف العلويين لكي يتعلم علومهم وكان عمره أربع سنوات. وفي عام ٣٢٦ للهجرة توفي هذا الوكيل نفسه وانتقلت وكالته الى شيخ آخر. فغادر المتنبي الكوفة برماً بما رأى من تعصب ضده فقال:

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فان أجابوا فما قصدي بها لهم ... وان تولوا فما ارضى بها لهم

وفي عام ٣٢٩ للهجرة توفي الوكيل الرابع والأخير للامام المهدي ولم يوكل احداً ليخلفه «لأنه لم يؤمر بذلك» وفي العام نفسه كتبت جدة المتنبي كتاباً الى حفيدها تستدعيه فيه ولكنه - بعد ذلك - لم يقدر على دخول الكوفة (على حالته تلك) بالرغم من تريثه بالرجوع حتى يئست منه جدته وظنت بحياته الظنون.

ويتريث الطالبيون ولم يختاروا لهم نقيباً بعد موت الامام ووكيله الأخير وانتهاء الغيبة الصغرى حتى يقتل المتنبي وابنه الوحيد في عام ٣٥٤ للهجرة وينبتر نسبه ويبقى لغزاً في طي الزمن، لولا تلك التلميحات الصارخة في شعره وتلك الضحالة في روايات (المؤامرة) عن نسبه ونشأته وهذه التواريخ (الصدفة) بين منعطفات حياته وتطور حركة الطالبيين. فان كانت كل هذه المنعطفات وتوافقها صدفة حقاً، فان رجل سيىء الحظ كالسوء الذي يصيب الناس الذين يتطيرون ويتشاءمون من الرقم ١٣. وأنه لو سارت الأمور في غير مسراها الغامض لاصبح الامام الثالث عشر. ذلك الامام الذي لا احد يعترف بوجوده.

وهكذا ماتت جدة المتنبي، ومات أبوه قبيل او بانتهاء فترة (الغيبة الصغرى) والمتنبي في قمة الهموم.

---

(١٠) المنتظم: لابن الجوزي. راجع كتاب الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجري ص ٣١ - د. مليحة رحمة لله.

الفصل السادس

ما بين اليأس والركون

تكاد تكون الفترة الزمنية التي قضاها المتنبي ما بين عامي ٣٢٩ للهجرة و٣٣٧ غامضة وغير واضحة سلوكياً. وقد يعود ذلك الى الصدمة النفسية التي اصابته بموت جدته وبانتهاء الغيبة الصغرى وموت وكيل (ابيه) الأخير فانقطعت صلته بمن يعرفون حقيقة نسبه وكان بامكانهم أن يكونوا عوناً له في إظهار نسبه. فتبلورت انفعالاته بين حقيقته السلالية وبين الانحراف الاجتماعي الذي دفع اليه دفعاً وهو يحاول توطيد أركان ذاته على مسرح الحياة. وقد كان تأثير (الأسرة) أو (عقدة الأسرة) تتفاعل في نفسه. كما كان شعوره بالحرمان من عطف الأبوين الذي يستمد منه التأييد الاخلاقي والمعنوي والتعضيد العاطفي قد جعله يشعر[1] بالوحدة واحتقار المجتمع وأهل زمانه فراح يفتش له عن حلفاء يعوضون له عن عقدة حرمانه من عطف الأبوين حتى لو كان أولئك الحلفاء من الحيوانات المفترسة.

وكاد أن يصيب - هنا - الدكتور طه حسين في قوله (فقد كان المتنبي في حياته الأولى شقياً بالأمل وهو في حياته الثانية شقي باليأس)[2].

فكان موت أبيه وموت وكيل ابيه الأخير وموت جدته بمثابة الحد الفاصل بين اليأس والأمل في حياته. ومع ذلك فانه لم يخرج عن وسائل تعبيره الوجدانية في التعريف بذاته. فعندما مر (بقنسرين)[3] وسمع زئير الأسود نجده يخاطبها بقوله:

---

(١) سيكولوجية المراهقة ص ٨٥ د. عبد علي الجسماني.

(٢) مع المتنبي ص ١٠٥ د. طه حسين.

(٣) قنسرين قرية في منطقة الفراديس في بلاد الشام.

أجــارك يا أسد الفــراديس مكرم فتسكن نفسي ام مهــان فمسلم
ورائـــي وقدامـــي عداة كثيرة أحـــاذر من لص ومنــك ومنهم
فهــل لك في حلفــي على ما أريده فانـــي بأسبــاب المعيشة أعلم
إذا لاتـــاك الخـــير من كل وجهة وأثريـــت ممـــا تغنمـــين وأغنم

ويتجسد الافصاح في هذه القطعة عن وجود أعداء للمتنبي من ورائه (في العراق) ومن قدامه في البلاد التي سيمر بها. أو في حياته الأولى قبل أن ينقطع أمله في إظهار نسبه وفي حياته المقبلة التي بدأ يشعر باليأس من امكان إظهار نسبه وقد عبر في هذه القطعة تعبيراً صادقاً وموفقاً في الاشارة الى أعداء ماضيه الذين هضموا حقه في نسبه واعداء مستقبله الذين لا يزالون يلاحقونه ويتمنون له الموت بعد ان شمتوا بموت جدته. وقد أدرك خطورتهم على حياته فراح يحذرهم كما يحذر اللصوص والوحوش المفترسة. غير أنه فضل الوحوش عليهم واقترح أن تكون هذه الوحوش حلفاء له (فيما يريد) ثم بشر حلفاءه بأنهم سيغتنمون بالغنائم لأنه - من أجل ما يريد - سيدخل معارك تكثر فيها القتلى وتتراكم الاسلاب ويصيب الخير كلا المتحالفين. غير أن ... شعوره بالوحدة المطلقة بعد عام ٣٢٩ للهجرة لم يترك لانفعالاته الخيار في تفجير عواطفه والقذف بها في وجوه ممدوحيه حمماً بركانية. فقال امام علي بن أحمد بن عامر الانطاكي وهو يمدحه :

أطاعـن خيــلاً من فوارسهــا الدهر (وحيـداً) ومـا قولي كذا ومعـــي الصبر
وأشجـــع مني كل يوم سلامتي ومـــا ثبتـــت الا وفي نفسهـــا امر

فالمتنبي - إذاً - أخذ يحس بأنه يحارب الدهر نفسه وحيداً وصابراً. وأن سلامته الذاتية هي مصدر شجاعته إذ ان هذه السلامة لم تثبت إلا وفي نفسها امر. فما هو هذا الأمر الذي لا يفارق أفكار المتنبي. ويكاد أن يكون مصدر إحساساته كلها ؟

تمـرست بالآفات حتـى تركتها تقــول أمــات المــوت ام ذعــر الذعر

وفي بعض الأحيان تتجمع الأفكار والآلام والانفعالات مرة واحدة في حزمة من الواقع والأنفة والمرارة والغضب ويقذفها في وجه ممدوحه كما فعل امام علي بن محمد بن سيار بن مكرم التميمي :

أقــل فعــالي بلــه اكثــره مجد وذا الجـد فيــه نلـت أو لم أنــل جد

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد

إن تداعي هذا المعنى (سأطلب حقي بالقنا) في هذه الفترة الزمنية من حياة المتنبي يشير بما لا يقبل الشك الى أن يأسه أصبح يجول في نطاق فردي وهو بعيد عن السند الأسري ونشاطاته الاجتماعية الحالية أو اصبح يرجحها على نظام حياته الأولى التي نشأ فيها لأول مرة[(٤)]. فمثلما أعلن استقلاله عن ماضيه وصرح بأن اكثر أفعاله مجد قرر أن يطلب حقه بالقنا معتمداً على نفسه ولكن انشداده القوي الى أهله (الطالبيين) جعله يصفعهم بشيء من التلميح الغامض والايجاز (ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد).

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا عدوا كثير إذا شدّوا قليل اذا عدوا

ثم بعد ذلك تناول أهل زمانه بذم صريح وجريء :

أذم الى هذا الزمان أهيله فاعلمهم فدم وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد

وفي هذه الفترة الزمنية - ايضاً - كان قد تردد في مدح طاهر العلوي حتى الح عليه ابن طغج وكيل الإخشيدي في الرملة. وقد رأينا كيف ان طاهراً العلوي أجلس المتنبي في مكانه ومثل هو بين يديه يستمع الى انشاده مما جعل محمد بن قاسم الصوفي يعجب ويقرر انه لم ير قبل الآن ممدوحاً يجلس بين يدي مادحه.

وفي هذه القصيدة التي ألقاها (وطاهر العلوي بين يديه) تلميحات الى أن ذلك العلوي يعرف نسب المتنبي وحقيقته معرفة تامة. وفيها تعرض (بأدعياء العلوية) الذين توعدوه بالقتل وأعدوا له كميناً من العبيد السودان في قرية (كفر عاقب) لاغتياله[(٥)].

أتاني وعيد الأدعياء وأنهم أعدوا لي السودان في كفر عاقب

---

(٤) سيكلوجية المراهقة ص ٨٥ د. عبد علي الجسماني.

(٥) تقول الرواية: انه حين ازمع على الرحيل من طبرية عام ٣٣٦ للهجرة ارصد له بعض العلويين (الادعياء) قوماً من السودان عبيدهم في بقعة (بكفر عاقب) وهي قرية على بحيرة طبرية من اعمال الاردن فلم يظفروا بما أملوا لتجنبه الطريق التي كمنوا فيها.

ولـو صدقـوا في (جدهـم) لحذرتهم فهـل فيَّ وحـدي قولهـم غـير كاذب
اليَّ لعمـري قصد كل عجيبة كأنـي عجيـب في عيـون العجائب

وبعد هذا الكلام راح (يزكي) طاهراً في علويته كأنه المسؤول المباشر عن صحة نسب العلويين. ومثل هذا التداعي في الأفكار لا يأتي إلا من قبل من يكون مقتنعاً بصحة نسبه وأهميته السلالية :

إذا لم تكن نفس النسيـب كأصله فماذا الـذي تغنـي كرام المناصب
ومـا قربـت أشبـاه قوم أباعد ولا بعـدت أشبـاه قوم (أقارب)
إذا (علـوي) لم يكن مثـل طاهر فما هو الا حجـة للنواصب

بينما نجده في مكان آخر يمارس مثل هذا الشعور بالمسؤولية بشكل سلبي فينفي العلوية عن ناس آخرين ضمن قصيدة مدح بها محمد بن طغج في الرملة فقال :

وكاد سروري لا يفـي بندامتي على تركه في عمـري المتقادم
وفارقـت شر الأرض أهـلاً وتربة بها (علـوي) جده غـير هاشم

وهكذا كانت احساسات المتنبي تتلاحم ما بين اليأس والأمل والانفعال. وازدادت كثافة اليأس عنده مما أصابه ومضت تخرج من أعماق نفسه أنفة وعزة في وجه الملوك والأمراء. فقال ضمن قصيدة يمدح بها أبا الحسن علي بن أحمد المري الخراساني :

واحتمال الأذى ورؤيـة جانبـ ـه غذاء تضوي به الأجسام
ذل من يغبـط الـذليل بعيش رب عيش أخف منـه الحمام
كل حلـم أتـى بغـير اقتدار حجـة لاجـىء اليهـا اللئام
من يهـن يسهـل الهـوان عليه ما لجـرح بميـت ايلام
ضاق ذرعـاً بأن اضيـق به ذر عا (زمانـي) واستكرمتنـي الكرام
واقفـاً تحـت اخمصي قدر نفسي واقفـاً تحـت أخمصيَّ (الأنام)

وقال ضمن قصيدة وجهها الى بدر بن عمار:

أعـرض للرمـاح الصم نحري وانصب حر وجهـي للهجير

وأسري في ظلام الليل (وحدي) كأني منه في قمر منير
فقل في حاجة لم أقض منها على شغفي بها شروى نقير
ونفس لا تجيب الى خسيس وعين لا تدار على نظير
وكف لا تنازع من أتاني ينازعني سوى (شرفي) وخيري
(وقلة ناصر) جوزيت عني بشر منك يا (شر الدهور)
عدوي كل شيء فيك حتى لخلت الأكم موغرة الصدور
فلو اني حسدت على نفيس لجدت به لذي الجد العثور
ولكني حسدت على (حياتي) وما خير الحياة بلا سرور

ولكن قمة ذلك الفوران النفسي كانت في طريقه بعد أن غادر الرملة يريد (انطاكية) في أواخر عام ٣٣٦ للهجرة فنزل في طرابلس وكان عليها اسحق بن ابراهيم بن كيغلغ وكان أمياً جاهلاً يجالسه نفر من أصحابه[٦]. فقالوا له ما تحب ان يتجاوزك ولا يمدحك وجعلوا يغرونه. فراسله ان يمدحه فاحتج عليه بيمين لحقته انه لا يمدح احداً الى مدة فعاقه عن طريقه ينتظر انتهاء المدة. وبعد أن تمكن المتنبي من عبور جبل لبنان وانحدر الى الشام ظهرت هذه القصيدة بعد افلاته من (ابن كيغلغ) وقد صب فيها جام غضبه وسخطه على ابن كيغلغ ولا بأس ان نقرأ بعض أبياتها من غير تسلسل:

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضاً نظرت وخلت اني اسلم
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
لا يخدعنك من عدو دمعه وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من.. الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم
يحمي ابن كيغلغ الطريق وعرسه ما بين رجليها الطريق الأعظم
ومن البلية عذل من لا يرعوي عن جهله وخطاب من لا يفهم
يمشي بأربعة على أعقابه تحت العلوج ومن وراء يلجم
وجفونه ما تستقر كأنها مطروفة أوفت فيها حصرم

---

(٦) تصفهم الرواية بأنهم ثلاثة نفر من بني حيدرة وكانوا خصوماً للمتنبي.

وإذا أشار محدثاً فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم
وتراه اصغر ما تراه ناطقاً ويكون أكذب ما يكون ويقسم
أفعال ما تلد الكرام كريمة وفعال من تلد الأعاجم أعجم

وتتضح في البيت الأخير (عقدة النسب) عند المتنبي والتي تأجج أوارها منذ شبابه وهو ينطوي على سر أبيه فكان تأكيد عروبته وأصالة أجداده والتعرض للأعاجم متنفساً لهذه العقدة.

وبعد (الترفيه) عن نفسه بهجاء بن كيغلغ غادر الشام الى بعلبك ليقول لحاكمها علي بن عسكر وهو يودعه في طريقه الى انطاكية:

روينا يا ابن عسكر الهماما ولم يترك نداك لنا هياما
وصار أحب ما تهدي الينا (لغير قلى) وداعك والسلاما
ولم نملل تفقدك الموالي ولم نذمم أياديك الجساما
ولكن الغيوث إذا توالت بأرض مسافر كره المقاما

وما أن وصل الى انطاكية حتى مدح أبا العشائر الحسين الحمداني بقصيدة جاء فيها: -

فسرت اليك في طلب المعالي وسار سواي في طلب المعاش

وقد جعل المتنبي هذا البيت في آخر قصيدته (لكي لا ينسى) أو لكي يتذكر به أبو العشائر أن المتنبي ليس كغيره من الشعراء وإنما هو طالب (للمعالي).

وقبل أن ننقب في أعماق نفس المتنبي لاكتشاف دوافع هذا القول: أرى أن نتحدث قليلاً عن بني حمدان وقد وصفهم المؤرخون بأسوأ من يمثل خصال البدو من بين سائر امراء البلاد[٧]. ومن أمثلة طباعهم البدوية انه لما التقى علي بن عبد الله بن حمدان مع الخليفة المتقي وابن رائق في الموصل نزل المتقي في دار ابن فهد الموصلي ونزل بن رائق في دار بالقرب منه. أما علي بن حمدان فانه نزل (بدير الأعلى) في خيمة أقامها. وكان علي الحمداني قد

(٧) تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٢٨ آدم متز.

أنس بابن رائق وكان يدعوه للشراب وكان إذا عمل الشراب فيه وصف نفسه بالشهامة والرجولة وازدرى بني حمدان وقال (لعلي الحمداني) : - وأي شيء تسوون انتم وأي يوم كان لكم وهل انتم الا (أعراب)[8] وقد ذكر (مسكويه) وقائع كثيرة تشير الى نقض الحمدانيين للعهود وغدرهم بحلفائهم وإلى بداوتهم في تقطيع أشجار المدن التي يدخلونها وتهديم البنايات والدور وينقل (آدم متز) الحادثة الآتية عن كتاب العيون للتدليل على همجية الحمدانيين فيقول (قتل الحسين بن عباس ضيفه الوزير العباسي ابن الحسن في سنة ٢٩٦ للهجرة وهو راكب الى بستانه) وكذلك فعل ناصر الدولة أبو محمد بن حمدان بابن رائق فقتله وهو ضيف عنده في خيمته غدراً وخيانة. كما أن أبا المعالي بن سيف الدولة قتل خاله أبا فراس الحمداني وحز رأسه وترك جسده في العراء. ومن المعروف - بالنسبة لموضوعنا - أن أبا العشائر صديق المتنبي حاول قتله في حلب غدراً كما سنذكر بعد قليل.. ولم يظهر احد من الحمدانيين بشيء من الفروسية والأعمال العظيمة غير سيف الدولة. إلا أن تاريخ أبي الفرج يصف سيف الدولة بأنه كان معجباً بنفسه يحب ان يستبد ولا يشاور احداً لئلا يقال أنه أصاب برأي غيره[9] أي انه - بلغة العصر الحالي - كان أنانياً أو فردياً. ولا نشك أن المتنبي قد علم بطبائع الحمدانيين هذه لذلك أراد ان يذكر أبا العشائر ببيت لا ينسى وبأنه شيء آخر يختلف عن الشعراء المرتزقة فقال:

فسرت اليك في طلب المعالي   وسار سواي في طلب المعاش

ولم يكتف المتنبي بهذا التذكير وإنما أكد تفوقه السلالي وأصالته في قصيدة اخرى مدح بها (الحسين أبا العشائر) وهو في استمرارية ثورته مما أصابه في محنته الأولى عندما اخذ الى السجن في (مراهقته) لمطالبته بحقه بالعلوية ومحنته الثانية بموت جدته وانتهاء غيبة أبيه وموت وكيله الرابع والأخير.

فقال :

لا تحسبوا ربعكم ولا طلله   أول حي فراقكم قتله
قد تلفت قبله النفوس بكم   وأكثرت في هواكم العذله

---

(٨) اشارة الى الآية القرآنية رقم ٩٧ سورة التوبة (الاعراب اشد كفرا ونفاقا).
(٩) تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٢٩ - آدم متز -.

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البا   حث والنجل بعض من نجله
وإنما يذكر الجدود لهم   من نفروه وانفذوا حيله
فخراً لعضب أروح مشتمله   وسمهري أروح معتقله
وليفخر الفخر اذ غدوت به   مرتدياً خيره ومنتعله
أنا الذي بينً الاله به.. الا   قدار والمرء حيثما جعله
جوهرة تفرح الشراف بها   وغصة لا تسيغها السفلة
ان الكذاب الذي أكاد به   أهون عندي من الذي نقله
فلا مبال ولا مداج.. ولا وا   ن ولا عاجز ولا تكله
ودارع سفته فخر لقى   في الملتقى والعجاج والعجلة
وسامع رعته بقافية   يحار فيها المنقح القوله
وربما اشهد الطعام معي   من لا يساوي الخبز الذي أكله
ويظهر الجهل بي وأعرفه   والدر در برغم من جهله

وأكرر قراءة هذا البيت:

ويظهر الجهل بي وأعرفه   والدر در (برغم) من جهله

أفلا يرى معي القارىء أن هذا البيت بمثابة هوية شخصية للمتنبي حسب مفاهيم القرن الرابع الهجري ؟. وليس المهم أن يعترف بها من جهلها او من لم يعرفها. فكأنه أراد ان يقول بهذا البيت. أنا أحمد بن محمد بن الحسن برغم من جهل نسبي هذا لأن الدر در ان كان بيد من يعرفه او يد من يجهله.

وفي عام ٣٣٧ للهجرة قدم سيف الدولة الى انطاكية والتقى بالمتنبي هناك[١٠] للمرة الثانية وتقول الرواية:

إن المتنبي اشترط على سيف الدولة عندما دعاه الى الالتحاق به في حلب أنه إذا انشده مديحه لا ينشده إلا وهو قاعد وأنه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه. فنسب اليه الجنون ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط.

(١٠) كان المتنبي قد التقى بسيف الدولة في (رأس العين) عام ٣٢١ هـ. للمرة الأولى عندما كان خارجاً من العراق عازماً على الاقدام لاشهار نسبه.

إن كلمة شروط الواردة في هذه الرواية لا تتفق وواقع حال سيف الدولة حينئذ ولعل واضعيها ادركوا ذلك فبرروها (بجنون المتنبي) من غير أن يعلموا أن قبول سيف الدولة لتلك (المطاليب) كان موافقة (على اتفاق متكافىء) فهي ليست (شروطاً) وليست جنوناً من قبل المتنبي ، وليست خضوعاً من قبل سيف الدولة.. لأن سيف الدولة لا بد قد عرف قليلاً او كثيراً عن نسب المتنبي منذ ان التقى به للمرة الأولى عام ٣٢١ للهجرة في (رأس العين) وهو في طريقه الى المطالبة بحقه. ولا بد أنه قد تتبع أخباره عن قصد أو غير قصد. لذلك يجب ان تسقط كلمة شروط من هذه الرواية نهائياً وتحل محلها كلمة (واتفقا على) أن لا ينشد المتنبي قصائده واقفاً كالشعراء العاديين ولا يقبل الأرض بين يديه كالمرتزقة او المتهافتين.

وهذه الرواية تذكرنا بموقف طاهر العلوي من المتنبي عندما أجلسه في محله وجلس هو بين يديه يستمع الى شعره. مما يجعلنا - رغماً عنا - نبحث عن الأسباب الموضوعية التي جعلت مثل هذا يحدث من قبل (علوي شريف) ومن قبل (أمير شجاع) وصفه المؤرخون بالاستبداد بالرأي وعدم الأخذ برأي غيره. وهل نقدر أن نتوصل - بالنسبة لمقاييس القرن الرابع الهجري - إلى أقل من قناعة الأميرين كل على حدة بصحة نسب المتنبي وأصالته العلوية ؟ وهو الشاعر المطارد من خصوم ألداء يتمنون قتله والقضاء عليه نهائياً ؟ لا أظن يوجد سبب معقول غير هذا ولا اظن ان سيف الدولة امير الدولة العلوية - بصورة خاصة - يوافق على عقد مثل هذا الاتفاق المتكافىء لولا قناعته بصدق المتنبي في نسبه. وهو الذي قال عنه - أبو الفداء - وكان سيف الدولة معجباً بنفسه يحب أن يستبد ولا يشاور احداً لئلا يقال انه أصاب برأي غيره.

فكانت موافقته من قبيل القناعة بأهمية المتنبي. كما كانت موافقة المتنبي بالالتحاق بسيف الدولة تثميناً لفروسيته وشهامته وإعجاباً بهمته في محاربة الروم. وقد ظهر ذلك الاعجاب بوضوح في جميع قصائده التي مدحه فيها بعد الالتحاق به في حلب. وبقي وفياً للحمدانيين حتى أنه لم يغضب من أبي العشائر عندما حاول اغتياله. واكتفى بعتابه عتاباً رقيقاً وفاء منه لابن عمه سيف الدولة ووفاء له ولصداقته القديمة - وربما - من أجل حبه للأميرة خولة اخت سيف الدولة التي كتم حبها كتماناً شديداً حتى توفيت فرثاها بأجمل قصائد ديوانه طرا. وبعد أن سلم من محاولة الاغتيال قال وهو يشير الى عبد من عبيد أبي العشائر رماه بالنبال وهو يقول: (خذها من غلام ابي العشائر) : -

ومنتسب عندي الى من أحبه ... وللنبل حولي من يديه حفيف

فهيـج من شوقـي ومـا عن مذلة حننـت ولـكن الكريـم ألوف
وكل وداد لا يدوم على الأذى دوام ودادي للحسين ضعيف
فان يكن الفعـل الـذي ساء واحداً فأفعالـه اللائـي سررن الوف
ونفسي له نفسي الفـداء لنفسه ولـكن بعض المالكـين عنيف
فان كان يبغـي قتلهـا يك قاتلاً بكفيـه فالقتـل الشريف شريف

وعلى الباحث ان ينقب عن الأسباب الحقيقية التي جعلت المتنبي يركن الى الهدوء النفسي في حلب عند سيف الدولة بصورة نسبية ويكف عن مهاجمة الملوك والأمراء - والأمر عندي - يعود الى سببين لا ثالث لهما. السبب الأول يعود الى مولد محسّد ابنه في حدود عام ٣٣٧ للهجرة وهي السنة التي اتصل بها بسيف الدولة فبدأ يشعر بمسؤوليته تجاه ابنه الطفل كرد فعل أكيد لحرمانه هو من العطف الأبوي الحقيقي. صحيح ليس لدينا شهادة تثبت تاريخ مولد المحسد ابن المتنبي. ولكننا نملك شهادة وفاته حيث تقول الروايات ان محسّداً قتل مع أبيه عام ٣٥٤ للهجرة[١١] شاباً. وهذا يعني أنه ولد في حدود عام ٣٣٦ - ٣٣٧ للهجرة ونلاحظ أن محسّد لم يعرف شيء عن نشأته وتربيته. ولو لم يذكر الرواة قصة مقتله مع ابيه لبقي امره لغزاً كأمر جده (محمد المهدي) والسنوات العشر التي قضاها المتنبي عند سيف الدولة ووجود المحسد طفلاً من أقوى المبررات الى ركون الأب للأمر الواقع حرصاً على ولده وحماية له من الأعداء ومفارقات الزمان. وأما السبب الثاني فهو إعجابه - كما قلنا - بسيف الدولة نفسه. فكان هذا الاعجاب بمثابة تعويض لكل الأزمات النفسية التي تتفاعل في أغوار نفسه من جراء قضيته الأساس التي تثور كلما وجدت لها متنفساً. ولكن المتنبي أخذ في اخماد براكين نفسه منذ ان ولد المحسد ومنذ ان التقى بسيف الدولة للمرة الثانية عام ٣٣٧ للهجرة فخاطبه بما يشبه التحول عن القلق الى الارتياح النسبي.

سلكـت صروف الدهـر حتـى لقيته على ظهـر عزم مؤيـدات قوائمه
مهـالك لم تصحـب بهـا الذئـب نفسه ولا حملـت فيهـا الغـراب قوادمه

---

(١١) ارجح ان المحسد كان صبياً عندما قتل مع ابيه. ولا اتفق مع محمود محمد شاكر بأن عمره كان في الثلاثين. ولو كان عمره كذلك لسمعنا عنه شيئاً في مجلس سيف الدولة او عند كافور، وقد شب عن الطوق. وأما ورود كلمة الأبوة في شعر المتنبي حوالى عام ٣٣٢ للهجرة في قوله وهو يمدح ابا ايوب احمد بن عمران.

وترى المروءة والفتوة والأبوة في كل مليحة ضراتها فان ذلك من الاباء وليس من (الأب) كما ذهب شاكر. راجع ص ٢٩ من المقتطف العدد ١٩٣٦/١/١.

فأبصرت بدراً لا يرى البـــدر مثله　　وخاطبـت بحــراً لا يرى البحر عائمه
غضبت له لمـــا رأيـــت صفاته　　بلا واصف والشعـــر تهـــذي طماطه

وقبل أن يغادر انطاكية متجهاً الى حلب للالتحاق بسيف الدولة بلغه خبر وفاة والدة سيف الدولة فوجد في ذلك مناسبة لتفجير بعض آلامه المكبوتة في أعماق نفسه فقال:

رمانـــي الدهـــر بالأرزاء حتى　　فؤادي في غشـــاء من نبال
فصرت إذا اصابتنـــي سهام　　تكسرت النصـــال على النصال
وهـــان فما أبـــالي بالرزايا　　لأنـــي ما انتفعـــت بأن أبالي

وهذا البيت (الأخير) يمثل حصيلة تجارب المتنبي القاسية التي مر بها فتوصل الى انه لم ينتفع من (مبالاته) بالأحداث والرزايا. وأصبح (الآن) ينظر اليها بعدم مبـالاة مقـدراً مسؤوليته في تربية ابنه الذي ولد حديثاً وفي مساندة الفارس الشهم الشجاع سيف الدولة.

ويصادف أن يموت ابن سيف الدولة فيرثيه المتنبي بقصيدة يقول في بيتها الثاني بعد المطلع مخاطباً المتوفى:

كأنك أبصرت الـــذي بي وخفته　　إذا عشـت فاختـــرت الحمام على الثكل

أيّ امر كان بالمتنبي اذا عرفه او ابصره حتى الشاب الصغير كابن سيف الدولة يفضل الموت عليه ويفضل الحمام على الثكل أليس هذا البيت يستحق التأمل العميق وقد وصف المتنبي فيه نفسه بالثكل وفقدان شيء عزيز على نفسه يقوم مقام الأب او هو الأب نفسه؟

ومكث المتنبي عشر سنوات عند بني حمدان معززاً مكرماً وقد هادنه خصومه أول الأمر لما يعرفونه عن حماية سيف الدولة له وثقته به. ولا نريد أن نؤرخ تفاصيل هذه الفترة الزمنية وإنما سنكتفي بسرد بعض (الصيامات) التي كانت تشير إلى أن المتنبي يحبس في أعماقه معالم نسبه بشدة مطمئناً لحياته الجديدة في أبوته وفي ثقته بالأمير وقد المح الى تلك المعالم بتلميحات خفيفة ولكنها عميقة الغور.

فقال:

أزل حســـد الحســـاد عنـــي بكبتهم　　فأنـــت الـــذي صيرتهـــم لي حسدا

وقال :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ... ضعيف يقاويني قصير يطاول
لساني بنطقي صامت عنه عاذل ... وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل

وقال :

ليالي بعد الظاعنين شكول ... طوال وليل العاشقين طويل
يبين لي البدر الذي لا أريده ... ويخفين (بدراً ما اليه سبيل)
وما عشت من بعد الأحبة سلوة ... ولكنني للنائبات حمول

وقال في نفس القصيدة :

أنا السابق الهادي الى من أقوله ... إذا القول قبل القائلين مقول
وما لكلام الناس فيما يريبني ... أصول ولا للقائليه أصول
أعادي على ما يوجب الحب للفتى ... واهدأ والافكار فيّ تجول

وقال وكأنه أراد نفسه من وراء مدحه لسيف الدولة :

من كان فوق الشمس موضعه ... فليس يرفعه شيء ولا يضع

وقال في مطلع القصيدة نفسها :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع ... ان قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا
أهل الحفيظة إلا أن تجربهم ... وفي التجارب بعد الغي ما يزع
وما الحياة ونفسي بعدما علمت ... إن الحياة كما لا تشتهي طبع
ليس الجمال لوجه صح مارنه ... أنف العزيز بقطع العز يجتدع
أأطرح المجد عن كتفي وأطلبه ... وأترك الغيث في غمدي وانتجع؟

وزادت الحياة الجديدة في تعقيد لغز نسب المتنبي وذلك لشدة حرصه على الصمت من خلال ركونه واستكانته للأمر الواقع في هذه الحياة وانشغاله في رعاية ابنه ومصاحبة صديقه الحميم وأميره الشجاع هذا بالاضافة الى كبت عواطفه في حب الأميرة خولة اخت سيف الدولة مما جعله يزداد حرصاً على نفسه وعلى ابنه وعلى اميره وعلى اميرته .

ولم يكن سر نسب المتنبي هو الوحيد في التاريخ فهناك الكثير مما ذكر الباحثون كنسب زياد ابن أبيه ونسب عمرو بن العاص وما لم يذكروه فذهب بين طيات الزمن. ومن أقرب الأمثلة التاريخية على احتمال ضياع نسب الانسان تحت وطأة الظروف قصة مولد الجنرال (مكسيم ويغان) القائد الفرنسي الشهير الذي لم يعرف عنه (قبل موته) أنه كان (ولي عهد المكسيك) الشرعي. وقد عاش مجهول الأب طوال حياته ولم يعرف أحد عن نسبه شيئاً وتتلخص قصته بكونه ولد في بروكسل عاصمة بلجيكا في ١٨٦٧/١/٢١ لأبوين مجهولين ولكنه احيط منذ ساعة مولده بأبهة وترف عظيمين يرعاه أناس ذوو نفوذ ومقام وثروة دون أن يعلم من هم أو على الأقل لم يصرح يوماً ما بهم وقد بلغ ارفع المناصب وعمره ٩٨ سنة. وقد حارت الصحف الفرنسية والعالمية والدوائر الفرنسية في معرفة أبيه وتعليل المكانة التي بلغها في الحياة الفرنسية وهو البلجيكي المولد الذي لم يعرف له أهل ولا أقارب. حتى اتضح - بعد موته - أنه نجل مكسيميليان الـ هابسبورغ الذي نصبه نابليون الثالث أمبراطوراً على المكسيك ما بين عامي (١٨٦٤ - ١٨٦٧) للميلاد وزوجته الأميرة البلجيكية (شارلوت) وكانت الثورة المكسيكية في عام ١٨٦٧ قد أطاحت بذلك الأمبراطور وأعدمته رمياً بالرصاص. وأما (الأم) الأميرة شارلوت عادت الى بلجيكا وكانت (حاملاً) وقد أثرت النكبة على عقلها فأصيبت بلوثة عقلية لم تفارقها حتى ماتت في قصر معزول خارج بروكسل عام ١٩٢٧ للميلاد وسمي الطفل (مكسيم) عند ولادته اختصاراً لاسم أبيه الأمبراطور مكسيميليان. وكتم امر نسبه عنه. وربما كان ذلك من اجل ابعاده عن المطالبة بعرش المكسيك في المستقبل. ولكنه أحيط برعاية خاصة وتربية خاصة حتى بلغ أرقى المناصب كما هو معروف تاريخياً. ولو لم تنقب الصحافة الفرنسية عن لغز ولادة (مكسيم ويغان) بعد موته مباشرة لبقيت حياته سراً من أسرار التاريخ وربما ظهر من اعتبره (ابن حوذي) أو نادل في خمارة. وليس المهم أن يكون ذلك أوهذا وإنما المهم ان يكون البحث عن ترجمة رجال التاريخ نزيهاً بعيداً عن التزوير كما حدث لنسب المتنبي عندما أبعده اعداؤه وخصومه عن نسبه الحقيقي وجعلوه ابن سقاء يسقي الماء بالكوفة.

ونحن اذ نذكر قصة ولادة (ويغان) انما نقصد بها مثلاً على الألغاز التاريخية مع اعترافنا بالفارق الكبير بين ظرفي الرجلين. علماً ان المتنبي كان يعرف حقيقة نسبه من جدته الصالحة ويعرف انه ابن رجل عظيم غيبته تحتمها الضرورة الزمنية خوفاً من القتل وحرصاً على قضية سياسية ومذهبية في آن واحد. ولكن شعراء (بلاط) سيف الدولة فتشوا له عن المتاعب ولم يفهموا معنى ترفعه عليهم ولم يقدر أحد منهم ان يرتفع الى انفته الموروثة وعبقريته الفطرية

وثقافته المتعوب عليها منذ طفولته في مدارس اشراف العلويين في الكوفة. فعملوا عن طريق الوشايات والتلميحات اللئيمة على انزاله من مستواه الرفيع الى مستواهم القائم على الارتزاق. ومثل هذا السلوك طبيعي جداً في النفوس الانسانية الصغيرة التي تعيش على هامش الحياة بالرغم من وجودها في مراكز مسؤولة نسبياً. وفي عصرنا الحالي امثلة كثيرة وواضحة على هذا السلوك فكثيراً ما يحاول اصحاب الفكر المحدود الطعن بأصحاب الأفكار المتحررة التي تتجاوز الآفاق المحدودة في شتى الميادين. فكلما برزت بوادر عبقرية لشخص في الميادين العلمية أو الأدبية او الصحفية تألبت عليه العقول الجامدة لكي يهبط الى مستواهم التقليدي معتقدين أن الشيء الذي لا يعرفونه لا وجود له او الذي لا يفهمونه بعيد عن الواقع ومن هذا المنطلق يحاربون صاحبه دساً أو وشاية أو غمزاً ولمزاً. وكان المتنبي يعاني مثل هذه الحالة من شعراء وأدباء ومرتزقة سيف الدولة ويتحملها بصمت وكبت لعواطفه تجاههم وخصوصاً اولئك الذين يتكلمون من مراكز القوة أمثال ابي فراس الحمداني، وأبي العشائر في الفترة الأخيرة. وبقي المتنبي قابضاً على صمامات انفعالاته النفسية مكتفياً بتلميحات تمتد بعمقها الى محنه الكبرى ولكن تلك الصمامات لم تعد تتحمل التراكمات والضغوط في أعماق نفسه فانفجرت في وجه سيف الدولة وهو محاصر بشعرائه وأرباب دولته وأقربائه من وزراء وامراء معبرة عن الكره والحب والرضا والغضب واليأس والأمل والكبرياء في آن واحد فقال:

واحــر قلبــاه ممــن قلبــه شبم   ومــن بجسمــي وحــالي عنــده سقم

وكل ما قاله الرواة عن مناسبة هذه القصيدة وقد وضعوها بصفة تمثيلية يشوبها حوار جريء في مجلس سيف الدولة ومناقشة حادة بين المتنبي وبين الآخرين. فانه لا يتجاوز كونها ثورة نفسية لم تتحمل الكتمان واني ادعو القارىء الى قراءتها معي مرة ومرتين وعشر مرات.

وهذا المطلع - عندي - كان المتنبي يشكو فيه حاله الى الأميرة خولة أو يخاطبها من وراء مخاطبته لأخيها سيف الدولة - وربما - كانت تصغي اليه من وراء حجاب. ومثل هذه المخاطبة لا شك ان المحبين يدركون معانيها وخصوصاً اولئك الذين يحبون شقيقات اصدقائهم حباً نزيهاً فلا يقدرون التصريح به حفظاً للصداقة ووفاء للمحبوبة:

ما لي اكتم حباً قد برى جسدي ... وتدعي حب سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حب لغرته ... فليت انا بقدر الحب نقتسم
قد زرته وسيوف الهند مغمدة ... وقد نظرت اليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم ... وكان احسن ما في الأحسن الشيم
فوت العدو الذي يممته ظفر ... في طيه اسف في طيه نعم
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت ... لك المهابة ما لا تصنع البهم
الزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها ... أن لا يواريها ارض ولا علم
أكلما رمت جيشاً فانثنى هرباً ... تصرفت بك في اثاره الهمم
عليك هزمهم في كل معترك ... وما عليك بهم عار اذا انهزموا
أما ترى ظفراً حلواً سوى ظفر ... تصافحت فيه بيض الهند واللمم
«يا أعدل الناس الا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
وما انتفاع اخي الدنيا بناظره ... «اذا استوت عنده الأنوار والظلم»
«سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا ... بأنني خير من تسعى به قدم»
«أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي ... واسمعت كلماتي من به صمم»
«أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم»
«وجاهل مده في جهله ضحكي ... حتى اتته يد فراسة وفم»
إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم
«ومهجة مهجتي من هم صاحبها ... أدركتها بجواد ظهره حرم»
رجلاه في الركض رجل واليدان يد ... وفعله ما تريد الكف والقدم
ومرهف سرت بين الجحفلين به ... حتى ضربت وموج الموت يلتطم
الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت في الفلوات الوحش منفرداً ... حتى تعجب مني القور والأكم
يا من يعز علينا ان نفارقهم ... وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة ... لو أن أمركم من أمرنا أمم
إن كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكم الم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة ... إن المعارف في أهل النهى ذمم
«كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم»
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي ... أنا الثريا وذان الشيب والهرم

ليت الغمام الـذي عنـدي صواعقه		يزيلهـن الى من عنـده الديم
أرى النـوى يقتضينـي كل مرحلة		لا تستقـل بهـا الوخـادة الرسم
لئـن تركن ضمـيراً عن ميامننا		ليحدثـن لمن ودعتهـم ندم
إذا ترحلـت عن قوم وقـد قدروا		أن لا تفارقهـم فالراحلـون هم
شر البـلاد مكان لا صديق به		وشر ما يكسـب الانسـان ما يصم
وشر ما قنصتـه راحتـي قنص		شهـب البـزاة سواء فيه والرخم
بأي لفـظ تقـول الشعـر زعنفة		تجـوز عنـدك لا عرب ولا عجم
هذا عتابـك الا انـه مقة		قد ضُمِّـن الـدر الا انـه كلم

ولا أرى في إعادة قراءة بعض أبيات هذه القصيدة استطالة. إذ ان فيها الكثير مما ينم عن اصالة المتنبي وشرفه ونسبه العلوي:

سيعلـم الجمـع ممـن ضم مجلسنا		بأننـي خـير من تسعـى به قدم

* * *

أنـام ملء جفونـي عن شواردها		ويسهـر الخلـق جراهـا ويختصم

* * *

ومهجـة مهجتـي من هم صاحبها		أدركتهـا بجـواد ظهـره حرم

* * *

كم تطلبـون لنـا عيبـاً فيعجزكم		ويكره الله ما تأتـون والكرم

* * *

ما أبعـد العيب والنقصـان من شرفي		أنـا الثـريا وذان الشيب والهرم

* * *

وشر ما قنصتـه راحتـي قنص		شهـب البـزاة سواء فيه والرخم

وهكذا ختم المتنبي السنوات العشر التي عاشها في حلب عند سيف الدولة بهذه الثورة بعد أن اضطره الى الركون النسبي وفاؤه لسيف الدولة وشعوره بمسؤولية الأبوة.

اذا ترحلـت عن قوم وقـد قدروا		أن لا تفارقهـم فالراحلـون هم

الفصل السابع

ابن الامام في بعض العقائد

ليس من الصواب أن يعتبر الباحث في نسب المتنبي النصوص المتوافرة عن حياته نهائية أو يعتبرها مقدسة يتردد في إخضاعها للمناقشة والتحليل.

وعلى سبيل المثال أذكر هذه الرواية التي سجلها الثعالبي في يتيمة الدهر (ثم أن أبا الطيب المتنبي اتخذ الليل جملاً وفارق بغداد متوجهاً الى حضرة ابي الفضل بن العميد (مراغماً المهلبي الوزير فورد أرجان)[1]

كأني بواضع هذه الرواية أراد ان يتهم المتنبي بالهرب من المهلبي الوزير خلسة ناسياً أن الوزير كان قد (توفي قبل ذهاب المتنبي الى أرجان للقاء ابن العميد) بسنتين ؟ وقد بلغت الحماقة ببعض اعداء المتنبي ان يرفضوا حتى السماع باسمه (فهذا رجل من بغداد كلما وصل الى بلد سمع به ذكر المتنبي رحل عنه، حتى إذا وصل الى أقصى بلاد الترك سأل عن المتنبي فلم يعرفوه، فتوطنه. فلما كان يوم الجمعة ذهب الى الجامع فسمع الخطيب ينشد بعد ذكر اسماء الله الحسنى قول أبي الطيب في عضد الدولة)[2].

أساميـاً لم تزده معرفة وإنمـا لذة ذكرناها

ويعلق عباس محمود العقاد على هذه الرواية بقوله: فأنت ترى ان شهرة هذا الرجل في عصره قد صارت كالقدر الذي لا يغالب)[3].

---

(١) الثعالبي اليتيمة ج ١ ص ١٠٠.

(٢) عباس محمود العقاد: جريدة البلاغ المصرية ١٩/ك اول/١٩٢٣

(٣) عباس محمد العقاد: مطالعات في الكتب والحياة ص ١٣١

ولكن الا يحق لنا ان نتساءل عن السبب الذي جعل شعر المتنبي يتسرب الى خطب صلاة الجمعة ويستشهد به بعد ذكر اسماء الله الحسنى، فالموضوع أبعد من شهرة شاعر بل تجاوز الشهرة الى المعاني الروحية. فمهما كان ذلك الخطيب جاهلاً بقواعد خطبة الجمعة وأصولها لا يمكنه ان يدلل على أهمية أسماء الله الحسنى وقدسيتها بشاهد شعري لو لم يكن له رأي روحي بذلك الشاعر. ولو لم يكن عند المصلين استعداد فكري لسماع ذلك.

إن مثل هذه الومضات التراثية المبعثرة بين طيات الكتب[٤]. تؤيد ما يقال عن احتفال الطائفة (النصيرية) الشيعة سنوياً بمولد المتنبي احتفالاً روحياً بتكتم حسب تعاليم الطائفة[٥] وقد حدثني بهذا الحديث الشاعر العراقي رشدي العامل بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب. وأهمية هذا القول تأتي من كون السيد رشدي العامل نفسه (نصيرياً). وأيد لي هذا القول علويون في دمشق التقيت بهم في مكتب رئيس تحرير مجلة الثقافة السورية السيد مدحت عكاشة في منتصف ايلول ١٩٧٥فقال لي احدهم نصاً (إننا نحفظ ديوان المتنبي عن ظهر قلب منذ نعومة اظفارنا بتأثير من أبائنا وأجدادنا وضغط موروث. ويطلب منه اباؤنا ان نتدبر معاني الديوان مثلما نتدبر معاني القرآن) وضربوا مثلاً بالشاعر (بدوي الجبل) - وهو علوي - كيف انه يتحدث عن حفظه لديوان المتنبي وعمره عشر سنوات بتأثير من والده. وقد أكد لي حكاية الشاعر بدوي الجبل الدكتور عبد الله الجبوري[٦] وقد سمعها منه شخصياً.

أفلا يحق لنا بعد هذا التواتر أن نتأمل دوافع هذا السلوك عند العلويين (النصيرية) وتوارثهم ضرورة حفظ ديوان المتنبي بتأثير الآباء بغض النظر عن درجة أوضاعهم الاجتماعية والثقافية لأن حفظ الديوان وتدبر معانيه ذو علاقة روحية بمعتقداتهم وليس بمنهجهم الثقافي.

ومع كل هذا التواتر في قدسية المتنبي وديوانه عند العلويين و(النصيرية) أرى ان نأخذه بتحفظ ولا نقطع بموضوعيته قبل أن نعرف شيئاً عن هذه الطائفة وتاريخ نشأتها.

---

(٤) ضياء الدين ابو الفتح الموصل: المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ص ٢٦٢
والنواجي على هامش سكردان السلطان
وابن الشحنة على هامش ابن الأثير.
وقد ورد في الكتاب الأخير (لابن الشحنة) ان المتنبي دخل على كافور لابساً عمامة خضراء.

(٥) الثقافة العدد ٩ لسنة ١٩٧٤ مقال للمؤلف.

(٦) حديث شخصي مع الاستاذ عبد الله الجبوري في ١٩٧٧/٤/٧

تكاد تجمع كتب الشيعة على أن هذه الطائفة تنتسب الى محمد بن نصير النميري(٧) الذي نافس (عثمان بن سعيد المعروف بالسمان) الوكيل الأول للامام محمد المهدي على الوكالة وزعم انه هو الوكيل للحجة صاحب الزمان.

ومعنى هذه المنافسة - بالنسبة لموضوعنا - أن الطائفة النصيرية كانت معاصرة للامام محمد المهدي في نشأتها ومعاصرة لولادة المتنبي في سنة ٣٠٣ للهجرة في بداية تكوينها. وقد عملت لتكون هي الممثل الروحي للامام الثاني عشر من وراء منافسة السمان بالوكالة.

فاستمرارية احتفال هذه الطائفة بمولد المتنبي احتفالاً روحياً - حتى الآن - له دلالته وخصوصاً إذا اخذنا بنظر الاعتبار أنها تعتقد بصحة الأئمة الاثني عشر بأسمائهم كما هي في عقيدة الشيعة الامامية. بغض النظر عن مغالاة النصيرية واعتقاداتهم بالحلول وتناسخ الأرواح، لأن ذلك لا يغير الحقائق التاريخية. غير أن الطائفة النصيرية لم تنقطع عند الامام الثاني عشر، بل هي إحدى الفرق التي قالت ان للامام ولداً. ومن الذين قالوا ان للامام محمد المهدي ولداً اسماعيل النوبختي وهو من معاصريه. إذ جاء في الفهرست لابن النديم ما نصه: (ابو سهل اسماعيل بن علي بن نوبخت من كبار الشيعة وكان أبو الحسن الناشيء يقول انه استاذه وكان فاضلاً عالماً متكلماً وله مجلس يحضره جماعة من المتكلمين وله رأي في القائم من آل محمد لم يسبق اليه وهو انه كان يقول: أنا أقول ان الامام محمد بن الحسن ولكنه مات في الغيبة وكان تلاه في الغيبة ابنه)..

وأهمية هذا النص تأتي من كون صاحبه من كبار الشيعة المعاصرين للامام المهدي وابنه المتنبي، ومن كونه فاضلاً عالماً متكلماً له مجلس تدور فيه المناقشات بحرية من دون تقية. والصيغة التي عرض فيها رأيه جاءت بشكل رد على قائلين في مجلسه بامامة رجل آخر فقوله (أنا أقول الامام محمد بن الحسن) بمثابة رد على الذين كانوا يقولون بامامة جعفر أخي الحسن العسكري، وأما قوله: (ولكنه مات في الغيبة وتلاه ابنه) فجاءت بصيغة تدل على ان الحاضرين في مجلسه يعرفون هذه الحقيقة وهي ليست موضع شك لديهم.

وقد أخبرنا ابو محمد الحسن بن عيسى النوبختي وهو ابن أخت اسماعيل النوبختي - كما يقول ابن النديم أيضاً - في كتابه فرق الشيعة: ان الشيعة انقسموا الى أربع عشرة فرقة بعد موت الامام الحسن العسكري وذكر ثلاث عشرة فرقة فقط ولم يتطرق الى الرابعة عشرة(٧) أفلا

---

(٧) الشهرستاني: الملل والنحل ص ١٨٨ هامش (٢).

يجوز أن يكون خاله اسماعيل النوبختي الذي قال بموت الامام المهدي وأن ابنه تلاه من بعده صاحب الفرقة الرابعة عشرة ؟ ولكنه تحاشى ذكره مجاملة أو تقيداً بحكم علاقة القربى بينهما .

ونلاحظ من قول اسماعيل النوبختي أنه قرر وجود ولد للامام محمد المهدي ولم يذكر اسمه ، وقد أصبح بامكاننا معرفته عن طريق سلوك فرقة شيعية أخرى هي (النصيرية) لمؤسسها محمد بن نصير النميري التي لا تزال لحد الآن تحتفل سنوياً بمولد المتنبي احتفالاً باطنياً مكتوماً .

وقد حدثنا الطوسي عن مثل هذه الفرق بقوله (فأما من قال ان للمخلف ولدا وان الأئمة ثلاثة عشر فقولهم يفسد بما دللنا عليه من ان الأئمة عليهم السلام اثنا عشر . فهذا القول يجب اطراحه على ان الفرق كلها قد انقرضت بحمد الله ولم يبق قائل يقولها وذلك دليل على بطلان هذه الأقاويل[٨] وكما ذكرنا[٩] لم يتمكن الطوسي بهذا الكلام من دحض القول بوجود ولد للامام محمد المهدي ، وانما قرر من ناحية العقيدة الامامية - وكان شيخها في ذلك الزمان - عدم جواز وجود امام ثالث عشر . وعدم جواز ذلك لا يعني عدم جواز وجود ولد للامام الثاني عشر . والنصيرية لم تخضع لهذا القول بل قالت بوجود امام ثالث عشر وها هي لا تزال تحتفل بمولد المتنبي سنوياً كما تشير الاحاديث المنقولة شفاهاً عن بعض متحرريهم من قيود كتمان العقيدة .

ومما يجلب الانتباه في هذا الشأن ما ذكره النوبختي في كتابه (فرق الشيعة) في معرض ادانة الفرقة النصيرية وتكفيرها لأنها شذت عن قواعد الامامية الاصولية وذلك في قوله : (وكان يقوي أسباب هذا النميري محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات . فلما توفي قيل له في علته وقد كان اعتقل لسانه ، لمن هذا الأمر من بعدك فقال : لأحمد فلم يدروا من هو فافترقوا ثلاثة فرق)[١٠] .

لا نريد بعد الف عام أو يزيد ان نقول انه أراد احمد المتنبي بن محمد المهدي بن حسن العسكري . إذ قد يظهر لنا الف احمد في الطريق يزعم انه هو المقصود بذلك . ولكن بالنسبة لما جاء في النص نود ان نبحث في هوامش (محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات) الذي كان يقوي أسباب محمد بن نصير النميري .

هذا الرجل هو والد علي بن محمد بن موسى بن الفرات وقد وزر للمقتدر اكثر من مرة

---

(٨) الطوسي الغيبة ص ١٣٧ .

(٩) انظر ص ٤٢ من هذا الكتاب.

(١٠) النوبختي : فرق الشيعة ص ١٠٣ .

وصودر وقتل سنة ٣١٢ للهجرة. وهو والد جعفر بن الفرات ايضاً. وقد اصبح الفضل بن جعفر ممثلاً للوزير ابن مقلة سنة ٣٢٢ على اراضي الشام. وهذا الجعفر هو جد جعفر بن الفضل المعروف بابن خنزابة الذي كان وزيراً لكافور في مصر. ومن خلال هذه الهوامش عن آل الفرات ذوي العلاقة بالسلطان تمر بنا بعض المؤشرات عن الوزير ابن مقلة وعن المتنبي الشاعر.

ومن هذه المؤشرات ما ورد في المنتظم لابن الجوزي قوله (وزر بن مقلة للمقتدر في سنة ٣١٦ للهجرة وقبض عليه آخر سنة ٣١٧)[١١] ويؤرخ ابن خلكان حادثة القبض على ابن مقلة سنة ٣١٨ للهجرة وهنا لا بد من أن نتذكر أن المتنبي جاء الى بغداد في هذه الفترة لسبب نجهله وعمره أربع عشرة سنة.

وفي مؤشر آخر قال ابن الجوزي (وزر ابن مقله للقاهر سنة ٣٢٠ للهجرة بعد مقتل المقتدر واستتر خوفاً سنة ٣٢٢هـ فلم يظهر حتى بويع للراضي)[١٢] ويقول ابن الأثير في الكامل في احداث سنة ٣٢٢ هـ (استعمل ابن مقلة الفضل بن جعفر بن الفرات نائباً عنه على سائر العمال، بالموصل وماردين وطور عبدين وديار الجزيرة وديار بكر وطريق الفرات والثغور الجزرية والشامية واجناد الشام)[١٣] ومن وراء هذا المؤشر نتذكر مرة ثانية مطالبة المتنبي في هذه الفترة من الزمن بحقه بالامامة والعلوية وسجنه من جراء ذلك، ومما لا شك فيه على ضوء المؤشرات السابقة ان الفضل بن جعفر بن الفرات والوزير ابن مقله كانا وراء مطاردة المتنبي ومؤاخذته بذنب لم يقترفه وسجنه في حمص بايعاز منهما الى الأمير لؤلؤ امير حمص والأمير الهاشمي في كوتكين وغيرهما.

والمؤشر الثالث وهو الأهم نذر بن مقلة في محنته حيث قال: (كنت مستتراً في دار ابي الفضل بن ماري النصراني بدرب القراطيس فسعي بي الى القاهر وعرف موضوعي فاني لجالس وقد مضى نصف الليل اخبرتنا زوجة ابن ماري ان الشارع امتلأ بالمشاعل والخيل، فطار عقلي ودخلت بيتاً فيه تبن فدخلوه ونبشوه بأيديهم، فلم أشك اني مأخوذ فعاهدت الله تعالى ان نجاني ان أنزع عن ذنوب كثيرة، وان تقلدت الوزارة امنت المتسترين وأطلقت ضياع المنكوبين ووقفت وقوفاً على الطالبيين)[١٤]

---

(١١) ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣٠٩.
(١٢) المصدر السابق: ج ٦ ص ٣١٠.
(١٣) ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٢٣٨.
(١٤) ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣٠٩.

فما هي الذنوب الكثيرة التي نذر ان ينزع عنها ابن مقلة اثناء محنته بنذر عجيب؟ لقد اعترف بها وهو في معاناة عقدة الذنب. فهذه الذنوب ذات علاقة بالمتسترين والمصادرة ضياعهم والطالبيين.

ولما كان قبل هذا التاريخ وعلى وجه التحديد سنة ٣٢١ - ٣٢٢ للهجرة وزيراً للقاهر وقد عين من قبله الفضل بن جعفر بن الفراب ممثلاً له على الديار الشامية، فلماذا لا يكون المتنبي احد الطالبيين الذين طاردهم ولفق ضدهم التهم فأخذ بذنب لم يقترفه وقضى في السجن سنتين؟

اننا لو جمعنا هذه المؤشرات لكملت لدينا الصورة الحقيقية لهذه الفترة الحرجة من حياة المتنبي. فابن مقلة وابن الفرات كانا يعلمان جيداً ان المتنبي احد الطالبيين المهمين ولكنهما كان يريدان سبباً لادانته بذنب يعذرهما الناس فيه ان اخذاه به، فطلبا من ممثليهما في الديار الشامية تلفيق تهمة ضده، وجاءت الفرصة عندما قام المتنبي يطالب بحقه بالامامة والعلوية فخرج اليه لؤلؤ امير حمص وأسره. وقيده الهاشمي امير كوتكين بخشبة الصفصاف وقاداه الى السجن ليقضي فيه سنتين ما بين ٣٢١ للهجرة و٣٢٣ للهجرة وهي نفس الفترة الزمنية التي وزر فيها ابن مقله للقاهر كما تحدثنا كتب التراث، وهي نفس الفترة الزمنية التي توصل اليها الأستاذ محمود محمد شاكر. وأما ما توصل اليه طه حسين بأنه سجن سنة ٢٢٥ للهجرة فيمكننا ان نضع عليه بكل ثقة علامة خطأ استناداً الى ما رواه علي بن عبد الله بن وصيف الناشيء من أن أبا الطيب كان يحضر مجلسه في مسجد الكوفة سنة ٣٢٥ للهجرة ويأخذ عنه بعض قصائده في مدح آل (البيت) ولم يكن يعرف بالمتنبي بعد(١٥) فليس من المعقول أن يكون الانسان مسجوناً في حمص ثم يحضر في نفس الفترة يأخذ الشعر في مسجد الكوفة. ويفيدنا هذا النص أيضاً أن أبا الطيب لم يعرف بالمتنبي حتى بعد خروجه من السجن. ومعنى هذا أنه سجن لسبب لا علاقة له بادعاء النبوة كما زعموا.

وكان المتنبي يعلم بشكل أو بآخر بتأثير ابن مقلة وابن الفرات في قضيته أيام شبابه. لذلك عندما التقى بحفيد ابن الفرات في مصر بعد ربع قرن تقريباً من احداث سجنه هجاه بدون مناسبة ببيت جاء ضمن قصيدة قالها اصلاً في هجاء كافور، ولكن مكبوتات شبابه ضد اسرة آل (الفرات) جعلته يعرض (بجعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات) بقوله:

---

(١٥) الحموي: معجم الأدباء ج ١٣ ص ٢٨٠.

بهـــا نبطـــي من أهـــل السواد يدرس أنساب أهـــل الفلا

وكأني به أراد أن يقول : -

بهـــا نبطـــي من آل الفرات يدرس انساب أهـــل الفلا

واعتبر وجود هذا (النبطي) في مصر سبة لها .

وليست هذه الصور المبعثرة وحدها تؤيد نسب المتنبي وعلويته . فهناك في ديوانه ما يوضح ذلك ويشير الى عقيدته الاثني عشرية أيضاً . ولا ادري لماذا لم ينتبه شراح ديوان المتنبي القدامى والحديثون الى مثل هذا البيت .

فتمليك دِلَّـــير وتعظيـــم قدره شهيـــد بوحدانيـــة الله والعدل

من الأمور التاريخية التي اصبحت ثابتة ولا جدال فيها تبلور تلك المجادلات التـي حدثت بعد معركة صفين حول قواعد الايمان وتفرق المسلمون عنها فرقاً وشيعاً شتى . وقد استقرت الشيعة الامامية حول قواعد خمس للايمان هي التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والامامة ، والميعاد .

فعندما نجد المتنبي يأتي بالركنين الأول والثاني من هذه القواعد وبنفس التسلسل الذي تؤمن به الشيعة الامامية فماذا نقول عنه .

فهذا البيت :

فتمليك دلـــير وتعظيم قدره شهيـــد بوحدانيـــة الله والعدل

يثبت الركنين الأول والثاني وهما (التوحيد والعدل) بشكل جلي وواضح معبراً عن عقيدته الامامية . ثم ان المناسبة لهذا القول تعزز هذا الاتجاه في شرح البيت . ففي سنة **٣٥٣** للهجرة هاجم القرامطة مدينة الكوفة فحارب المتنبي الى جانب أهلها وكانت معقلاً للشيعة الامامية حتى هرب القرامطة قبل ان يصل القائد (دلير بن لشكروز) . وهذا مما ينقض رأي الدكتور طه حسين بقرمطية المتنبي . وبمناسبة هذه الحرب بين الشيعة الامامية والقرامطة مدح المتنبي القائد دلير بقصيدة مطلعها :

كدعـــواك كل يدعـــي صحـــة العقل ومن ذا الذي يدري بمـا فيـه من جهل

ومن ضمنها البيت الذي حدثنا الشاعر فيه عن التوحيد والعدل . ومعنى هذا البيت كما أراه (أن تمليك القائد دلير الذي هب لنصرة الطالبيين والشيعة الامامية ضد القرامطة الملحدين شهادة بينة على صحة قواعد الايمان عندنا نحن الشيعة وهي التوحيد والعدل الى آخره .

وأما قول الشراح أن هذا البيت ضعيف وقد صرف المتنبي فيه الممنوع من الصرف ونونه أو ما يشبه هذا الكلام فاني لا افهمه ، لأن مثل هذه الشروح تتحدث عن انفعالات الشارح قبل انفعالات الشاعر ومعاناته الزمنية عند نظمه القصيدة . وانفعالات الشراح والرواة والنساخ والمحققين كم أضاعت على الدارسين من الحقائق ؟ وعلى سبيل المثال أذكر بعض النماذج التي تخص المتنبي ونسبه .

فهذه مخطوطة المنتظم لابن الجوزي الموجودة في جامع أيا صوفيا برقم ٣٠٩٦ والتي تعتبر هي الأصل[١٦] قد جاء فيها عند الحديث عن المتنبي هذا النسب . (احمد ابن ... بن الحسن) ولكن المحققين الذين أشرفوا على طبعة (حيدر أباد) وضعوا مكان الفراغ الذي جاء في هذا النسب كلمة (الحسين) استناداً الى مصادر اخرى واعتقاداً منهم أن ابن الجوزي نسي الاسم . فعلى فرض أنه نسي الاسم فعلاً فكيف يثبتون أنه أراد أن يسجل مكان هذا الفراغ الحسين بن عبد الصمد ؟ وكيف يثبتون أنه لم يرد تسجيل الاسم (محمد) مكان هذا الفراغ ؟ ونحن نعلم ان الاسم محمد قد ورد كاسم لوالد المتنبي في إحدى روايات الخطيب البغدادي وإذا كان اسم والد المتنبي الحسين بن عبد الصمد فما معنى كلمة (ابن الحسن) التي كتبها ابن الجوزي بعد الفراغ مباشرة . ولماذا لم ينسَ ابن الجوزي في كل (منتظمه غير اسم والد المتنبي ويترك مكانه فراغاً بعد أن ذكر اسم الولد واسم الجد الحسن ؟ . فاذا أردنا حل هذا اللغز معتمدين على إحدى روايات الخطيب البغدادي كما أشرنا يكون اسم المتنبي (احمد بن محمد بن الحسن) وأما عبد الصمد فهي دخيلة لسبب او لآخر.

وأما النموذج الثاني فيتعلق برواية مقتل المتنبي . وكنت قبل هذا قد شككت بصحة هذه الرواية استناداً الى المنطق الذي لا يقبل قطعاً احتمال مناقشة المتنبي مع خادمه مفلح بمثل تلك المناقشة التمثيلية وهما في معركة حياة أو موت كل ثانية فيها تحدد مصيرهما . كما لا تقبل كل القرائن أن تكون قصيدة هجاء (ضبة) من شعر المتنبي . فهي تختلف عن ديوانه غرضاً وأسلوباً وسلوكاً . وأما الآن فقد اصبح هذا الشك يقيناً بزور الرواية . فهي مأخوذة بكل

---

(١٦) المنتظم طبعة حيدر ابادج (٥).

تفاصيلها عن (أبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصفهاني) في كتابه (ايضاح المشكل لشعر المتنبي) ورواها صاحب ايضاح المشكل عن مجهول يدعى (ابو الحسن الطرائفي) قال صاحب الايضاح : (وأخبرنا أبو الحسن السوسي في دار الوقف بين السورين ، قال : كنت أتولى الاهواز من قبل المهلبي وورد علينا المتنبي ونزل عن فرسه ومقوده بيده . فتح عيابه وصناديقه لبلل مسها في الطريق . وصارت الأرض كأنها مطارق منشورة فحضرته أنا وقلت : قد اقمت للشيخ نزولاً .. الخ) وتستمر الرواية تحكي عدم سماعه لنصيحة السوسي بترصد فاتك الأسدي له حتى حدث ما حدث من قتله .

وإذا تمعن الباحث في هذه الرواية يكتشف زورها من فقرتها الأولى وذلك لأن المتنبي قصد ابن العميد فعضد الدولة ثم عاد عن طريق الاهواز سنة ٣٥٤ للهجرة بينما الوزير المهلبي كان قد توفي سنة ٣٥٢ للهجرة ، فلا تدري كيف جاز لأبي الحسن السوسي ان يزعم انه كان يتولى الاهواز من قبل المهلبي في سنة مقتل المتنبي ؟ فهل أراد الرواة منا ان نصدق ان الوزير المهلبي كان يصدر التوقيعات بالتولية وهو في قبره وقد لاحظنا أن الثعالبي قد وقع في نفس الخطأ ربما اقتباساً من صاحب ايضاح المشكل .

ومن الواضح ان هذه الرواية وضعت للطعن بشجاعة المتنبي وقد جاء في آخرها (وقال بعض من شاهده انه لم تكن فيه فروسية) . كما أن من رواتها (أبو الحسن الطرائفي) وسأبقى شاكراً لمن وجد لي ترجمة ولو بنصف سطر في كل كتب التراث المعروفة لهذا (الطرائفي) وقد لفقوا اكثر من كذبة على لسان هذا الرجل الموهوم . حتى أن ياقوت الحموي نقل عن لسانه علاقة المتنبي بابن جني . والعجب في بعض المحققين المعاصرين انهم يأخذون الرواية من دون تمحيص في حقيقة راويها أو حقيقة التواريخ المحيطة بها ويعتبرونها حقائق ثابتة ويبنون عليها بحوثهم .

وهذا نموذج ثالث . وهو قول بعض الرواة : (وصل المتنبي من جدته كتاب تشكو فيه شوقها اليه وطول غيبته عنها فتوجه نحو العراق ولم يمكنه وصول الكوفة على حالته تلك فانحدر الى بغداد) .

تساءلت من قبل[١٧] . عن (حالته تلك) التي لم يتمكن من أجلها الذهاب الى الكوفة فانحدر الى بغداد رأساً وطلب من جدته الالتحاق به .

---

(١٧) انظر ص ٨٥ من هذا الكتاب.

يجب ان نتذكر انه عاد الى العراق ولم يتمكن من الذهاب الى الكوفة سنة ٣٢٩ للهجرة وهذا التاريخ يعطي أهمية خاصة لتساؤلنا عن حقيقة (حالته تلك) وخصوصاً عندما يخبرنا ابن الأثير في الكامل أن بغداد في هذه السنة (عمها غلاء شديد فاستسقى الناس . فلم ينزل المطر واشتد الغلاء والوباء وكثر الموت حتى كان يدفن الجماعة في القبر الواحد ولا يغسلون ولا يصلى عليهم ورخص العقار ببغداد والاثاث حتى بيع ما ثمنه دينار بدرهم وانقضى تشرين حتى نيسان ولم تنزل المطر[١٨] .

هذه الصورة والمأساة التي يعرضها ابن الأثير عن بغداد في احداث سنة ٣٢٩ للهجرة تجعلنا نكرر تساؤلنا ما هي الأمور المهمة التي جعلت المتنبي يقتحم الجوع والوباء والموت ويأتي إلى بغداد والناس تفر منها ؟ ولم يكتف بذلك بل دعا جدته أيضاً بالرغم من خطورة مجيئها على حياتها . فحالته تلك اذا كانت حالة مصيرية وعائلية وأهم من الوباء والموت ولا تقبل التأجيل ولا يمكن أن تكون مثل هذه الحالة غير الأمل في اللقاء مع والده أو الاستماع الى وصية منه ولكن القدر كان أقوى . فتوفيت جدته في الكوفة قبل وصولها الى بغداد وهي الشاهد العدل الوحيد الباقي على حقيقة نسبه وتوفي وكيل الامام الرابع والأخير في هذه السنة أيضاً معلناقبيل وفاته انتهاء الغيبة الصغرى مما يشير بشكل غامض الى أن الامام محمد المهدي قد توفي في هذه السنة أو قبلها بقليل . فراح الوكيل يتمتم وهو يعاني سكرات الموت (لله امر هو بالغه)[١٩] . فأسقط بيد المتنبي مما جعله يصرخ صرخته الحزينة مخاطباً جدته المتوفاة .

ولو لم تكوني بنت اكرم والد ... لكان أباك الضخم كونك لي أماً

ويبدو انه كان هناك من لا يسرهم حضور الجدة الى بغداد لسبب يتعلق بنسب المتنبي فشمتوا بموتها قبل ان تدلي بشهادتها أمام الوكيل الرابع قبل موته أو امام الامام نفسه قبل وفاته . فخاطب هؤلاء الشامتين بقوله :

لئن لذ يوم الشامتين بيومها ... لقد ولدت مني لأنفهم رغما
تغرب لا مستعظماً غير نفسه ... ولا قابلاً الا لخالقه حكما

(١٨) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٢٢٩ .
(١٩) الطوسي : الغيبة ص ١٣٧ .

ويقول :

يقولــون لي .. ما أنــت في كل بلدة   ومــا تبتغــي .. ما ابتغـي جلّ أن يسمى

والذي لا يقبل الا لخالقه حكماً يتمتع بأخلاق الامام قبل ان يكون رجلاً من عامة الناس.

وبانتهاء الغيبة الصغرى سنة ٣٢٩ للهجرة انقسم الشيعة الامامية الى فرق جديدة وبعض هذه الفرق قال بالامام الثالث عشر وبعضها قال بوجود ولد للامام محمد المهدي . وقد أفرد الطوسي في كتابه الغيبة فصلاً للرد على الذين قالوا بوجود ولد للامام الثاني عشر أو جواز وجود إمام ثالث عشر[٢٠].

ومن الطوائف التي لا تزال تحتفل بمولد المتنبي كما ذكرنا الطائفة العلوية النصيرية. ويجب أن لا ننتظر العثور على وثائق مكتوبة عن قدسية المتنبي عند بعض فرق الشيعة لأن تاريخ هذه الفرق يشير الى انها كانت معرضة للتصفية الدموية كلما اتيحت فرصة لاتهامها بالزندقة أو أخذها بالغلو لذلك تطورت تعاليمها الى طقوس باطنية يتوارثها الابناء عن الآباء عن الاجداد بتكتم وحذر. ولكننا في عصرنا الحاضر قد نسمع همساً عن معتقدات هذه الطوائف الباطنية. وعدم اعارة اهمية لهذا الهمس المكتوم عند بعض فرق الشيعة الباطنية قد يضيع علينا كثيراً من التتبعات والتحريات. وعلى سبيل المثال ما تتناقله بعض الطوائف[٢١] من ان المتنبي (امام) ولكنه من الأئمة غير المعصومين باعتبار ان الأئمة المعصومين هم الاثنا عشر فقط ويرثهم غير المعصومين.

فهل يمكننا ربط هذا الهمس المكتوم بما جاء في (تاج العروس)[٢٢] عن تسمية المتنبي (بالامام) وهل نقدر أن نربطه بديباجة الطبعة الحجرية المطبوعة في (المطبع المحمدي في المنبىء) وقد وصف أصحاب الطبعة المتنبي (بامـام الفضلاء وهمام الأدبـاء) في مستهل الديباجة في الصفحة الأولى. لا شك أننا نقدر على ربط ذلك الى حد ما. فيما إذا اطلعنا على اعتقاد بعض هذه الملل (بوجود العالم الشيعي المأمون الصادق في زمان الغيبة قائم مقام

---

(٢٠) كشف الغمة في معرفة الأئمة ص ٣٢٠.

(٢١) حدثني بهذا الحديث المهموس الاستاذ المحامي فهد المولى نقلاً عن احد المطلعين على معتقدات الفرق الباطنية من الشيعة.

(٢٢) تاج العروس ج ٨ ص ٤٤٩.

الأئمة ليعلم رعيتهم وهو اما مطاع وإما غير مطاع عرفه من عرفه وأنكره من أنكره)[٢٣] ومثل هذا القول يتفق تماماً مع الهمس المكتوم الذي تتناقله شفاها هذه الملل عن المتنبي واكثر إثارة في هذا الهمس، قولهم ان المتنبي حماه الله من شرب الخمر ولم يشرب غير مرة واحدة فاستحال الخمر في جوفه الى مادة مقيئة فقذفه قبل أن يخدره. وهذا القول يتفق من الوجهة التاريخية بأنه لم يشرب الخمر غير مرة واحدة عند بدر بن عمار. كما يتفق من الناحية العقائدية عند بعض فرق الغلاة كالشيخية والكشفية في تفسير الركن الرابع عند الاثني عشرية وهو (الامامة) باعتبار هذا الركن يقوم مقام الامام المهدي والمراد به ولاية الأولياء، والأولياء لا مانع من صدور الصغائر عنهم - كشرب الخمر - وأما الكبائر فهم محفوظون بحفظ الله لهم منها[٢٤].

ويعتقدون أيضاً ان المتنبي لم يولد في الكوفة وإنما ولد في بغداد وحدثت فتنة عظيمة تعرضت لها الشيعة للقتل فنصحت ام المتنبي أن تتستر على ابنها وتهرب به الى الكوفة فشب هناك والناس يعتقدون أنه ولد في حي كندة.

ولو رجعنا الى احداث سنة **٣٠٣هـ** في كتب التراث وهي السنة التي ولد فيها المتنبي لوجدنا هذه الرواية: (أوقع ورقاء بن محمد بالاعراب بناحية الأجفر مقتل جماعة واستأسر جماعة وقدم بهم الى بغداد فوثبت العامة على الأسارى فقتلتهم وقيل انه صاحب حصن الحاجر وأن الحاج استجاروا به فوصل اليه من امتعتهم شيء كثير. ووقع حريق في سوق النجارين بباب الشام فاحترقت السوق بأهلها وانقطع كرسي الجسر والناس عليه فغرق خلق كثير[٢٥]. وفي مصادر أخرى أن الناس كانت تهجم على الاعراب - الشيعة - وترميهم بالنهر.

فاذا صح الهمس في أن ام المتنبي نصحت ان تأخذ رضيعها وتهرب به الى الكوفة من هذه الأحداث؟ فمن هو الناصح وما هي أهمية المتنبي لتتستر عليه وتأخذه الى الكوفة امه؟ وأين كان أبوه؟.

وليست الطائفة النصيرية وحدها لها اعتقاد خاص بالمتنبي وتمارس طقوسها بالكتمان

---

(٢٣) محمد كريم خان: مجمل اصول العقائد راجع مجلة البيان العدد ١٧ ص ١٧ السنة ١٩٧٠.
(٢٤) عبد الله الموسوي جريدة البيان العدد ٢١ ص ١٠ لسنة ١٩٤٧.
(٢٥) ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٣٠.

إذ يحدثنا الأستاذ عباس العزاوي عن (وجود رسالة مخطوطة عنده ناقصة الأول مجهولة المؤلف تقول ان الاسحاقية تقول بمقالة النصيرية)[٢٦]. في مبدأ عبادة الأشخاص.

وممن أيد هذا الاتجاه في نسب المتنبي ورأي بعض الفرق الباطنية به الأستاذ المحامي مجيد حمد النجار صاحب كتاب (ISLAM JAFARi RULS) وهو كتاب يبحث في الأحوال الشخصية عند الشيعة. وهذا الكتاب أتاح له فرصة الاطلاع على بعض المصادر المخطوطة. فكتب لي يقول (ان هناك فرقاً كثيرة من الشيعة تنزل المتنبي منزلة الامام غير المعصوم. ولم يكن إعجاب أبي العلاء المعري به الا لهذا السبب[٢٧] وأهمية رأي مجيد حمد النجار عندي تأتي من كونه شيعياً ومختصاً في دراسة بعض اصول الفقه الشيعي.

أما الفرق الكثيرة التي أشار اليها (النجار) لا يمكن التحري عن معتقداتها في المتنبي بسهولة لكثرتها أولاً، وقد حدثنا النوبختي ان الشيعة انقسمت الى اربع عشرة فرقة بعد موت الامام الحسن العسكري[٢٨]. كما حدثنا الطوسي عن انقسام آخر حدث بعد انتهاء الغيبة الصغرى[٢٩]. ولمبدأ التكتم حتى الموت في معتقدات بعض هذه الفرق ثانياً وهي تعتقد ان روح الأنبياء أو روح الأئمة تحل في الأولياء من الذراري. ولعل المعري ذهب هذا المذهب عندما سئل عن نبوة المتنبي فقال: ولست اظن في المتنبي هذا الظن لأنه (قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه ولكن الدنيا حظوظ)[٣٠]. ولا فرق بينه وبين من تقدمه في هذا الامر غير انهم وفقوا وأخطأه التوفيق ووصلوا وعثر وهو في وسط الطريق[٣١]. وان كان المعري في زمانه قد ظن ان سوء حظ المتنبي ضيع عليه مجده الروحي وافقده نسبه فان الزمن عاد ليظهر هذا النسب ويشهره ويعطي صاحبه حقه بالامامة والعلوية.

---

(٢٦) عباس العزاوي الكاكائية ص ٦٤.

(٢٧) مجيد حمد النجار كلمة خاصة سجلها بخطه.

(٢٨) النوبختي: فرق الشيعة ص ١٠٥.

(٢٩) الطوسي الغيبة ص ١٣٦.

راجع كتاب الفرق بين الفرق لعبد القهار البغدادي ص ٢٣ وما بعدها.

(٣٠) المعري: رسالة الغفران. تحقيق بنت الشاطىء ص ٤١٣.

(٣١) عباس محمود العقاد: مطالعات في الكتب والحياة ص ١١٨.

الفصل الثامن

المتنبي عاشق كبير

قلت ان ديوان المتنبي يكاد يكون المصدر الوحيد الذي يفسر لنا دوافع الانفعالات النفسية التي عاشها الشاعر. وفي هذا المصدر نجد شاعرنا يقول في أواخر أيام حياته في قصيدة رثى فيها عمة عضد الدولة.

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه لم يسبه

هذا البيت يوضح بجلاء التحول الذي طرأ على أفكار المتنبي فجعله فيلسوفاً، كما يوضح هذا البيت العقلاني أنه حصيلة تجربة شخصية مر بها المتنبي. أنه عشق ولم يفكر خلال أيام حبه بمنتهى معشوقته. ولكنها انتهت الى الموت، فلو فكر في حينه بالنهاية التي آلت اليها تلك المعشوقة لما سبته حباً وغراماً.

هذا التقرير الفلسفي ورد في شعر المتنبي حصيلة التجربة. أفلا يحق لنا ان نبحث في ديوان ابي الطيب عن اللمحات العاطفية لكي نتعرف على الحبيبة التي كتم امرها باصرار كما كتم امر امه وابيه؟

قبل ان يقول المتنبي هذا. قال وهو في الكوفة مرثية رثى فيها الأميرة خولة اخت سيف الدولة. فكانت قصيدة فريدة بين مراثيه بل فريدة في ديوانه كله بالنسبة لسمو غرضها ونبل هدفها وصفاء نبضاتها الوجدانية.

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب كناية بهما عن أشرف النسب

أود ان اقف قليلاً عند هذا البيت لأستفهم. ماذا قصد ابو الطيب بقوله (يا اخت خير أخ)

جميع الشراح يقولون أنه أراد (يا أخت خير أخ لك) الذي هو علي الحمداني الملقب بسيف الدولة. بينما أراه قد قصد به (يا أخت خير أخ لك ولي) في آن واحد. وبهذا يقرر أنه من سيف الدولة بمنزلة أخ قبل أن يكون بمنزلة شاعر. تجمعهما قضية واحدة هي القضية العلوية. ورب معترض يقول ان الجملة الثانية من الشطر (يا بنت خير أب) تنقض هذا الشرح .فان كان سيف الدولة أخاً لأبي الطيب مجازاً بالنسبة للعمر والقضية والمعاصرة. فكيف يجوز أن يكون أبو سيف الدولة أباً للمتنبي أو أبو المتنبي أباً لسيف الدولة؟ إن الجواب عن هذا الاعتراض بين أيدينا على مستوى الانتساب القبلي والعشائري. فعندما ينتسب الناس كلهم الى آدم يعنون العرف في تجاوز الفروع للوصول الى الأب - العلم - الذي تربطهم به رابطة القضية أو النسب. وهذا ما قصده المتنبي في قوله (يا بنت خير أب). فانه أراد ان يقول بعد أن قال يا أخت خير أخ لي ولك ويا أخت خير أب لي ولك الذي هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي تجمعنا به أنا وأنت عوامل القضية العلوية بالنسبة لك وعوامل النسب بالنسبة لي.

بكل تأكيد لا أرفض الشروح الأخرى لهذا الشطر من البيت ولكني لا ابتعد عن تصوراتي لهذا المعنى طالما الشطر الثاني يتجه بمعناه في نفس الاتجاه. (كناية بهما عن أشرف النسب) وكلمة (كناية) أرى المتنبي اختارها بعناية كما يدل موضعها من البيت لتورية المعنى العميق الذي قصده من دون أن ينتبه الى أن جملة (أشرف النسب) تنم عن ذلك القصد وتفصح عنه وتفضح الكناية.

فهل هذا يكفي؟ لأقل مع المتنطعين انه لا يكفي. ولكن هل نقدر ان نعترض على أسلوب المتنبي نفسه في تخطي الأسماء المباشرة للوصول الى الأب العلم؟ فراح يسمي معاوية ابن ابي سفيان بابن حرب) كما يشير بغير حذر الى علويته في تسمية علي بن أبي طالب بخير الخلفاء والأنام بلا تردد أو تقية أو خوف من التيارات المذهبية التي كانت لا تتورع عن الكيد كيداً دموياً للقضية العلوية في القرن الرابع الهجري.. وذلك في أبيات ثلاثة مدح بها سيف الدولة بعدما هزم عساكر بن طغج وجلاها عن صفين[1].

يا سيف دولة ذي الجلال ومن له	خير الخلائف والأنام سميُّ
أو ما ترى صفين كيف اتيتها	فانجاب عنها العسكر الغربيّ
فكأنه جيش ابن حرب رعته	حتى كأنك يا عليّ عليّ

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر ج ١ ص ١٨.

ومما يؤكد ان اسلوب المتنبي في مجالات القضية العلوية ونسبه العلوي يستند على تجاوز ذكر آبائه الأقربين والاشارة الى الأب العلم قوله عندما عوتب في تركه مديح آل البيت:

وتـــركت مدحـــي للـــوصي تعمداً اذ كان نوراً مستـــطيلاً شاملاً
واذا استطـــال الشيء قام بنفسه وصفـــات ضوء الشـــمس تذهـــب باطلا

لا أدري عندما يصف المتنبي علياً ابن ابي طالب بخير الخلائف ويصفه (بالوصي) وأن نوره مستطيل شامل يقضي على ضوء الشـمس كيف يجـازف البعض في انكار علويتـه والتشكيك بنسبه.

مثلما استوقفني مطلع مرثية خولة يستوقفني بيت آخر ورد فيها لما يضم من انفعالات نفسية تنم عن نبل العاطفة.

كأن فعلـــة لم تمـــلأ مواكبها ديار بكر ولـــم تخلـــع ولـــم تهب
ولـــم ترد حياة بعـــد تولية ولـــم تغـــث داعياً بالـــويل والحرب

لنقف طويلاً.. طويلاً في تأمل وجداني أمام اصرار المتنبي على عدم النطق باسم الأميرة خولة واستبداله بوزنه الصرفي (فعلة). اذ لم يطاوعه قلبه المجروح ونفسه المفجوعة بوفاتها على ذكر اسمها. فلم يقل (كأن خولة) وتجرع الاسم الحبيب واستبدله بـ (كأن فعلة). وكأني به لا يريد أن يسمع اسمها وقد ماتت عندما يتناقل الرواة قصيدته في رثائها.

ومن خلال فجيعته هذه بدأت نتائج تجربته العاطفية تتجسد فلسفة موضوعية. أحقاً ماتت الحبيبة خولة؟ أين هي وأين مواكبها التي كانت تملأ ديار بكر وتساهم باغاثة المظلومين وتخلع الخلع وتهب العطايا وترد أمل الحياة الى المعدمين كرماً وبذلاً. ان هذه الأفكار تطورت بعد أقل من سنتين لتصبح معادلة رياضية صحيحة ذات طرفين حسابيين مثل:

عشرة + خمسة = خمسة عشر

كذلك :

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه = لم يسبه

أقترح ان نترك مرثية الأميرة خولة موقتاً ونعود اليها مرة اخرى في آخر هذا الفصل . ونبحث في اول عهد أبي الطيب بالحمدانيين في حلب.

وقف المتنبي يوم الأربعاء للنصف من شهر رمضان سنة ٣٤٤ للهجرة أمام سيف الدولة يعزيه بوفاة اخته الصغرى (الأميرة فاطمة) وأخت الأميرة خولة . وقال ضمن قصيدة مطلعها :

ان يكن صبر الرزيئة فضلاً تكن الأفضل الأعز الأجلا

هذه الأبيات :

قاسمتك المنون شخصين جوراً جعل القسم نفسه فيه عدلا

فاذا قست ما أخذن بما غا درن سرّى عن الفؤاد وسلى

وتيقنت ان حظك أوفى وتبينت أن جدك أعلى

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر في شرح هذه الأبيات[٢] (فأبو الطيب يطلب من سيف الدولة ان يقيس أخته الصغرى التي ماتت الى أخته الكبرى التي بقيت فاذا فعل ذلك كان سلوى له وتسرية للهم عن قلبه . ولا ندري كيف يتفق لشاعر يرثي امرأة ماتت ان يذكر اخرى - وتكون اختها ويعزي أخاها بهذا العزاء الغريب) .

لا غرابة في ذلك يا أستاذ شاكر. فان الحب الصادق يفعل الأعاجيب في التحايل بدوافع من تداعي الأفكار والكبت العاطفي ، لاستغلال المناسبات للتلميح او التصريح او الرمز او الافصاح عن المودة والحب أو ذكر المحبوب والترنم باسمه او التحدث عنه من غير أن يلفت الأنظار الى مقاصده الحقيقية . وكانت نفس المتنبي واقعة تحت هذا التأثير النفسي لكي يؤكد للأميرة خولة الأخت الكبرى ان منزلتها عنده عظيمة فلا يمنع رثاء أختها من ذكرها والتأكيد على أن بقاءها قسمة عادلة لأخيها ومحبيها . ومثل هذا التحليل - النفعي بلغة علم النفس يأتي بدافع (ان اهداف الانسان تركز تفكيره في المستقبل . وبالقدر الذي تكون بعض أهدافه

---

(٢) محمود محمد شاكر: المتنبي ص ١٣٠ عدد خاص من المقتطف سنة ١٩٣٦ .

ثمينة تكون درجة قوة كفاحه من أجل بلوغها)[٣]. فالحب الذي كان يكنه المتنبي للأميرة خولة كان من الأهداف الثمينة بتعابير علم النفس فلا بد ان يركز تفكيره فيه ويعمل على بلوغه مستغلا المناسبات بعوامل الوعي الباطن للتلميح كما فعل في رثائه لأختها ففضلها بهذا الشكل الذي لا يخرج عن كونه تقريراً علمياً قدمه الى سيف الدولة مدلوله : إذا قست يا سيف الدولة باقياً بما ذهب لوجدت أن القسمة كانت عادلة وتيقنت ان حظك ببقاء خولة أوفى . وبقدر ما في هذا الكلام من تسلية لأخي المتوفاة فيه ارضاء ذاتي لنفس قائله المتنبي.

لنرجع قليلاً الى ما قبل هذا التاريخ الى عام ٣٣٦ للهجرة حيث اتصل المتنبي بالأمير الحمداني ابي العشائر في انطاكية . وبعد عام قدم سيف الدولة الى هناك والتقى بالمتنبي واتفقا ان يلتحق ابو الطيب بالأمير الى حلب. وبعد التحاقه - كما أرى - أعجب بالأميرة خولة إعجاباً شديداً وقد لاحظ صفاتها الأصيلة . فهي تغيث الملهوف وتهب العطايا بعكس الرجال من الحمدانيين الذين كانوا غارقين بمباذل العصر من غزل في الغلمان ومعاقرة الخمرة. فهذا ابن عمها الحسين ابو العشائر اصابته علة هجمت عليه فسأله احد عوّده : ما يجد الأمير؟ فأشار الى غلام قائم بين يديه اسمه (نسطوس) كأن رضوان غفل عنه فأبق وانشد[٤].

أسقم هذا الغلام جسمي ... بما بعينيه من سقام
فتور عينيه من دلال ... اهدى فتوراً الى عظامي
وامتزجت روحه بروحي ... تمازج الماء بالمدام

وهذا ابن عم لها آخر اسمه وائل تغلب ابن داود يقول :

لا والذي جعل الموا ... لي في الهوى خدم العبيد
وأصار في أيدي الظبا ... ء قياد اعناق الأسود
وأقام البوية المنية ... بين أفنية الصدود
ما الورد احسن منظراً ... من حسن توريد الخدود

وهذا ابن عم آخر اسمة ابو المطاع ذو القرنين بن ناصر الدولة الحمداني يقول :

اني لأحسد (لا) في أسطر الصحف ... اذا رأيت اعتناق اللام بالألف
وما أظنهما طال اجتماعهما ... الا لما لقيا من شدة الشغف

---

(٣) قيس النوري: طبيعة المجتمع البشري ج ٢ ص ٣٣٢.
(٤) الثعالبي: يتيمة الدهر: ج ١ ص ٧٣.

وحتى الحارث أبو فراس الحمداني كان منحدراً الى هذا المستوى من السلوك فيقول في ساعات لهوه :

وإذا يئست من الدنو رغبت في فرط البعاد
أرجو الشهادة في هوا ك لأن روحي في جهاد

فالى جانب خيبة الأمل التي كانت تعانيها الأميرة خولة من أبناء عمومتها وعشيرتها باستثناء رجولة أخيها سيف الدولة وشجاعته لاحظت - كأنثى - استقامة احمد المتنبي بن محمد المهدي وحبه لها وعفافه واخلاصه وصيانته لكرامتها وكرامته. فعندما أراد ان يذكرها تحاشى لفت النظر اليها واستغل احد انتصارات أخيها على الروم ليقول فيها من وراء مدحه لأخيها سيف الدولة.

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر عيونك يعشق
وبين الرضى والسخط والقرب والنوى مجال لدمع المقلة المترقرق
وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

هذا البيت وحده يكفي للدلالة على حب المتنبي للأميرة اذ ان مركزها الأسري ووجودها مع الحرائر وغيرة ابناء عمها وحقدهم على المتنبي يجعله في شك دائم ما بين الوصول الى قلبها وبين هجرها. فيقدر ما هو يرجو الحب يتقيه مخافة عليها وعفافاً منه في شأنها واخلاصاً لعشقه العظيم. ثم يفسر كل هذا البيت الذي تلاه مباشرة في القصيدة.

وما كل من يهوى يعف اذا خلا عفافي ويرضى الحب والخيل تلتقي

انه يؤكد عفافه في حبه للأميرة ثم يعلن عن فروسيته وواجباته القومية عند المعارك والتقاء الخيل. ومع ذلك فهي ملء قلبه حتى مثل تلك الساعات الدموية الحرجة وهو راض بحبها.

قد يقول البعض أن هذه الأبيات بمثابة أسلوب تقليداً لشعراء الجاهلية. ولكن مثل هذا القول ينقضه ديوان المتنبي نفسه اذ انه لم يعودنا على المطلع الغزل. وحتى في حالة الاستهلال بالمطلع الغزل تأتي معانيه بطابع عام لا يدل على اكثر من الاستهلال مثل قوله في ذكر سيف الدولة:

عـواذل ذات الخـال فيّ حواسد وأن ضجيج الخـود متـي لماجد
يرد يداً عن ثوبهـا وهـو قادر ويعصي الهـوى في طيفهـا وهـو راقد

ومثل قوله بعد ذلك في مصر:

من الجآذر في زيّ الأعاريب حمـر الحلى والمطـايا والجلابيب
ان كنـت تسـأل شكا في معارفها فمـن بلاك بتسـهيد وتعذيب

ان هذا الكلام مجرد شعر متين لا يحمل عاطفة الحب المشبوبة صدقاً كما هي في قوله:

لعينيك ما يلقـى الفـؤاد ومـا لقي وللحـب ما لم يبـق منـي ومـا بقي

علينا أن نتأمل بهذا القول من الزوايا الأخرى غير زاوية المتانة الشعرية وبلاغتها. نتأمل به من زوايا المجتمع في ذلك العصر، زوايا مركز المرأة ومفهومها عند الرجل في القرن الرابع الهجري لنكشف عن محنة الحب عند المتنبي وعند الأميرة خولة في آن واحد. لقد كانت المرأة في ذلك العصر بصورة عامة عنصراً خاملاً (لا يسهم الا في تقديم المتعة والجسد والخدمة البيتية للرجل وصار الرجل السيد المطلق. وانزوت المرأة في بيته يحميها ويحيطها برقابة شديدة وبخاصة إذا كانت حرة أو امة)[٥] فأبو الفرج الأصفهاني عندما يتكلم في كتابه (النساء) لا يخرج عن مزايا الجسد والحسن واللون والمقارنة بين البيضاء والصفراء ومورّدة الخدود ومكتنزة الأرداف ومهزوزة العجز. وعندما ينظم ابن بسام شعراً يرفض ان تكون المرأة كاتبة أو خطيبة في مسجد او عالمة على مصر من الأمصار ويصر على ان هذه المهمات للرجل فقط ولهن ان يقدمن المتعة للرجل:

ما للنسـاء وللكتابة والعمالـة والخطابة
هذا لنـا ولهـن منا أن يبتـن على جنابة

وكانت تشذ عن هذه الصورة للمرأة في ذلك العصر نساء يتجهن إما اتجاهاً صوفياً كرد فعل نفسي لكل تعقيدات مفهوم المرأة عند الرجل وأما اتجاهاً إنسانياً في سلوكهن وفي ثقافتهن وذلك في بعض المجتمعات. ويهمنا ان نذكر هنا على سبيل المثال منهن جميلة بنت ناصر الدولة

(٥) عبد اللطيف نوري: المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة ص ٣١٢.

الحمداني امير الموصل التي كانت توزع الأموال على الفقراء بسخاء وتطعم الحجاج السويق والسكر. والأميرة خولة أميرة حلب التي وصفها المتنبي بأنها تهب وتعطي وتغيث الملهوف وتحمل عقول الرجال - وترد الحياة الى المعدمين. فهاتان السيدتان من الحمدانيات كانتا من الشواذ في سلوكهما الانساني خلافاً لواقع المرأة العام في ذلك العصر. بل كانتا في هذا السبيل تعملان في نشاط انساني مشرف حتى بالنسبة لطبيعة الرجل الحمداني. الذي وصفه المؤرخون بأسوأ من يمثل خصال البدو بين سائر امراء البلاد بالاضافة الى طبيعة الغدر الموسومة بالأمراء الحمدانيين. وبدوافع هذه الطبيعة المتأصلة في نفوس الحمدانيين نرى (الحارث أبا فراس) ابن عم سيف الدولة يخاصم المتنبي خصومة لا هوادة فيها. خصومة لا علاقة لها بالحرب والفروسية. إذ اننا نلاحظ أبا فراس قلما تعرض في قصائده للحرب لذكر الحروب التي كانت ناشبة بين الحمدانيين وبين الروم. وحتى هذا القليل لا يشير الى اكثر من وصف قتال كأنه يجري بين قبيلتين من البدو. ويرى آدم متز أن القصائد التي قالها ابو فراس في سجنه ببلاد الروم لا تمثل اكثر من نثر مسجوع ويقول أيضاً (إذا وجدنا من يبالغ في امتداحها كالصاحب بن عباد والثعالبي فهذا برهان على ضعف الفارق بين الكاتب والشاعر)[٦] ومما يؤيد رأي (متز)، ونحن نعود للموضوع الأساسي، هذه المقارنة التي أضعها امام القارىء بين أبي فراس وبين المتنبي وقد قال كل منهما شعراً في مناسبات مشتركة: فعندما أسر سيف الدولة في احدى معاركه مع الروم (قسطنطين) بن الدمستق قال أبو فراس:

وآب بقسطنطين وهو مكبل تحف بطاريق به وزرازر

بينما قال المتنبي في نفس المناسبة:

لكل امرىء من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن بالعدا

أفلا نلاحظ البون الشاسع بين عمق ما قاله المتنبي وضحالة ما قاله ابو فراس. وفروسية المتنبي وعنجهية أبي فراس؟ وقد يسأل بعضهم عن السبب الذي جعل لفيفاً من القدامى ينتصرون لأبي فراس ضد المتنبي في أمثال هذا الكلام كابن خالويه النحوي والنامي والخالديان وغيرهم. فالأمر لا يخرج عن مباذل روح العصر آنذاك. العصر المتميز بالتناقضات الاجتماعية والتردي السلوكي فربما كانت فرحة انصار ابي فراس بقسطنطين كما

(٦) آدم متز الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٤٨٥.

ذكره صاحبهم اكبر من فرحتهم بالنصر كما ذكره المتنبي. ويذكر الدكتور فيصل السامر (أنه مما يلفت النظر ان سيف الدولة برهن في ذلك الموقف على فروسية نادرة. فعندما اعتل قسطنطين في حلب مرّضه بنفسه واعتنى به غاية العناية ولما توفي اعتنى بدفنه وأمر النصارى فتولوا امره وكفن بكفن فاخر وجعل في تابوت في احدى الكنائس)(٧) وفي مناسبة اخرى يروي الثعالبي ان سيف الدولة كان قد اصطنع بني كلاب وأدناهم وأمن سربهم فقروا العرب وعلت كلمتهم إلى أن بدرت منهم هفوة احفظته. فأسرى اليهم وأوقع بهم وملك حرمهم وأموالهم ثم صفح عنهم.

لست بصدد مناقشه هذه الرواية وما ينم عنها من احوال دولة بني حمدان ومفاهيمها. أو البحث عما اعتبره الثعالبي هفوة من بني كلاب يستحقون عليها العقاب. وانما أدعو القارىء ليتأمل معي ما قاله المتنبي في هذه المناسبة وما قاله أبو فراس. قول الأول يدر فروسية وشهامة وفرحة في عودة نساء بني كلاب مكرمات بعد الأسر بينما قول الثاني كان قولاً عجيباً في المنة على الأسرى. فيه اللوم المبطن لابن عمه سيف الدولة الذي امر باطلاق الأسرى واطلاق سراح نساء بني كلاب. وكأنه أراد ان يقول ليتك يا ابن العم ما أصدرت مثل هذا الأمر ولكن أمرك مطاع.

فالمتنبي يقول:

فعدن كما أخذن مكرمات ... عليهن القلائد والملاب
وليس مصيرهن اليك شيئاً ... ولا في صونهن لديك عاب

بينما ابو فراس يقول:

وما أنس لا أنس يوم المغار ... محجبة لفظتها الحجب
دعاك ذووها بسوء الفعال ... لما لا تشاء وما لا تحب
أمرت وأنت المطاع الكريم ... ببذل الأمان ورد النهب

وهناك مناسبة ثالثة قال الرجلان فيها شعراً وهي تمس موضوعنا في عشق المتنبي مباشرة. وتأتي هذه المناسبة عندما هاجم (المبرقع) - وهو من الذين يحقدون على الحمدانيين - حدود

(٧) د. فيصل السامر الدولة الحمدانية ج ٢ ص ٢٦٧.

الامارة الحمدانية وافتتح بعض مدائن الشام وأسر - أبا وائل الحمداني - ممثل سيف الدولة في حمص فلحق به سيف الدولة وقتله وأنقذ ابن عمه أبا وائل . فقال ابو فراس :

وأنقذ من مس الحديد وثقله أبا وائل والدهر أجدع صاغر

ما هذا ؟ اليس من حق - متز - أن يقول ان شعر ابي فراس نثر مسجوع ؟ بينا يقول المتنبي في هذه المناسبة :

ولو كنت في أسر غير الهوى ضمنت ضمان ابي وائل

إذاً كان المتنبي في تلك الفترة أسير هوى . أسير نوع من الهوى لا يوجد من يضمن فيه حياته . ولو لم يكن هواه من النوع الذي لا يصرح به لضمنت حياته من قبل سيف الدولة نفسه كما ضمنت حياة ابي وائل وهو في الأسر من جراء معركة حربية وفي نفس القصيدة يقول أيضاً :

دعا فتسمعت وكم ساكت على البعد عندك كالقائل

هل نقدر ان نفسر تداعي تلك الأفكار بغير انها صادرة عن قلب عاشق ولكنه ساكت . وأهمية هذه القصيدة أنها تعطينا تاريخاً لبداية الحب الكبير بين المتنبي والأميرة خولة .

ففي عام ٣٣٧ للهجرة حدثت المناسبة وبعد وصول المتنبي الى حلب . ومما لا شك فيه كان أهل القصر الحمداني بمن فيه علموا بوصول المتنبي ، فرآه من رآه من الأمراء والأميرات والحاشية وهم ينتظرونه وشهرته تسبقه اليهم . ورأى هو من رأى من الأمراء والأميرات والحاشية . فأعجب بالأميرة خولة وأعجبت به . وتطور الاعجاب الى حب . وفي تلك الأثناء يستحيل على المتنبي وعلى غيره تقدير الفوارق بين تكوين شخصيته وبين تكوين شخصية المجتمع الحمداني المتشابكة مقوماتها ما بين العقلية البدوية والأسس الحضارية المعاصرة مما يعتبر في (العلم البشراني)[٨] الحديث يمثل نظاماً كلياً تشتق اجزاؤه وجودها من الاعتماد المتبادل الجاري بينها والذي يطلق عليه (التكامل الوظيفي) أما شخصية الفرد فهي الأخرى ليست مجرد صفات متفرقة تميز الفرد عن غيره وانما هي نظام يتصف بالوحدة والترابط[٩] .

---

(٨) يقترح عبد الحق فاضل استعمال كلمة العلم البشراني كتعريب للاصطلاح (انتروبولجي) .

(٩) قيس النوري . طبيعة المجتمع البشري ج ٢ ص ٣٢٣ .

فتحت تأثير هذه القاعدة العلمية كان المتنبي فرداً، تكوينه مرتبط بمجتمع أسسه غير أسس تكوين المجتمع الحمداني. فكل منهما ينظر الى الأمور ضمن أساليبه للتعبير عن عواطفه. فاستغل انتصار سيف الدولة على (المبرقع الخارجي) وانقاذه أبا وائل من الأسر فقال قصيدة استهلها لأول مرة بغزل رقيق اشتمل على تسعة أبيات خلافاً لأسلوبه. في كل ما قاله قبل هذا التاريخ الذي نعتبره بداية للحب الذي وقع فيه:

الام طماعية العاذل ولا رأي في الحب للعاقل

في هذا البيت المطلع نجد نوعاً من التبـريرلانعطافه نحو الحب حيث يقر وهو يشعر بانعطافه نحو انثى معينة انـه لا رأي لهبذلك هوالمتصف بالعقـل لأن الحـب لا يخضـع لقواعد العقلانية. ثم يقول:

يراد من القلـب نسيانكم وتأبـى الطبـاع على الناقل
وانـي لأعشـق من أجلكم نحـولي وكل امـرىء ناحل
ولـو زلتـم ثم لم أبككم بكيت على حبـي الزائل

وقد صدق حدسه بهذا فراح يبكي حبه بعد ستة عشر عاماً من هذا التاريخ وهو يرثي الأميرة خولة بالبائية التي سنتناولها بعد قليل.

أينـكر خدي دموعـي وقد جرت منـه في مسـلك سابل
أأول دمـع جرى فوقه وأول حزن على راحل

وبهذين البيتين إشارة نعتبرها بمثابة وصل لماضيه بحاضره اذ يتذكر اول دمع جرى فوق خده على سيدة كان حبه لها صادقاً وهي - في رأينا - جدته التي حزن عليها وبكاها عام ٣٢٩ للهجرة.

وهبـت السلـو لمن لامني وبـت من الشـوق في شاغل
كأن الجفـون على مقلتي ثياب شققـن على ثاكل
ولـو كنـت في أسر غـير الهوى ضمنـت ضمان ابـي وائل

ويبدو أن المجتمع الحمداني لم يهضم مثل هذه المبادرة بالرغم من أنه تجرعها تحت تأثير التساؤلات والأقوال التي نجهلها. إذ لا يعقل أن أي شاعر او اي اديب أو مفكر يكون تراثه

المكتوب هو كل شيء في حياته. فهناك امور تجري في كل المجتمعات من أخذ ورد ومناقشات ولا تسجل. ولا بد للباحث ان يستنبطها للوصول الى الحقيقة او ليكون على درب الصواب وثمة امر يجب ان ننتبه له وهو أن الأقوال بصورة عامة عندما تقال بمناسبات مشتركة لا بد من أن تكون موضع مقارنة خلال مناقشات خاصة للتميز بين الناحيتين السلوكية والأدبية وتقويم أهمية أصحاب الأقوال نفسها. فعندما تسمع الأميرة خولة فرحة المتنبي برد الأسيرات سليات مصونات مكرمات محليات بالقلائد ومعطرات - بالملاب - وهو نوع من العطر تطرب بدافع غريزتها النسوية وتقدر مثل هذه الشهامة التي كانت تنقص ابن عمها أبا فراس وهو يمن عليهن ويستعظم امر ابن عمه في اطلاق سراحهن. وعندما نسمع انه اسير هوى ولا ضامن له. بينا لو كان اسير حرب لضمنه أخوها كما ضمن أبا وائل تهتز إعجاباً بهذا الكلام وتشمئز من قول ابن عمها الذي يرى الدهر أجدع الأنف وليس له في ذلك دخل مباشر. ويخيّل لي وأنا امر مروراً بشعر ابي فراس وألاحظ عنجهيته حيناً وتخاذله حيناً وأنانيته تارة وكبرياءه تارة اخرى وشكواه من قومه وشعوره بالاضطهاد، يخيل لي أنه كان مصاباً بانفصام الشخصية او مريضاً بشيء من الأمراض النفسية مما يستحيل تشخيصها في ذلك العصر. ورجل بمثل هذه الحالة النفسية في مجتمع بدوي لا يخرج حقده على المتنبي من دائرة قضية شخصية بحتة تتعلق بالصميم كقضية (حب).

فلا غرابة اذاً أن يحول ابناء عمومة الأميرة خولة دون حب المتنبي لها أو حبها له وهم مغموسون في مفاهيم اجتماعية بدوية فتطوق عقولهم الغيرة العشائرية. فلا يدركون أن مثل هذا الحب بعيد عن تفاهة العصر ويرفضون كونه يحمل معنى كبيراً وأن خولة لها من المزايا ما يجعلها تقدر صدق المتنبي فيها وهي في مستوى من رجاحة العقل.

ويبدو ان لغطاً حدث في البيت الحمداني وكلاماً جال همساً في هذا الشأن فراح الحمدانيون يتلاومون ويغتاب بعضهم بعضاً فمنهم من فكر باغتيال المتنبي - كأبي العشائر - ومنهم من رأى سبيل، الخلاص منه يأتي عن طريق الكيد له عند سيف الدولة ليقتله او يطرده بأسباب بعيدة عن الضجة الغرامية.

إننا نلاحظ في اخوانيات ابي فراس الحمداني قصيدة غريبة في غرضها، كتبها الى سيف الدولة مشيراً فيها الى ازمة عائلية في بني حمدان. كان الحديث فيها جمجمة واخفاء له واسراراً به. وأي حديث يكون الكلام فيه جمجمة وأسراراً ولا يتعلق بأمور شخصية أو خاصة ذات علاقة بامرأة مهمة أو ذات صلة مباشرة بالبيت الحاكم أو البيت الذي تجري على شفاه أهله الجمجمة والأسرار؟

يقول ابو فراس :

الا من مبلــغ سروات قومي وسيف الدولــة الملك الهماما
بأنــي لم أدع فتيات قومي إذا حدثــن جمجمــن الكلاما
شريت ثناءهــن ببــذل نفسي ونــار الحــرب تضطــرم اضطراماً

ليس من المهم معرفة المناسبة التي يقال فيها الكلام لأن المناسبات هي مجرد فرص يستفاد منها للتعبير عن المكبوتات في النفس الانسانية. فعندما يريد أبو فراس أن يبلـغ سروات قومه أن يكففن عن جمجمة الكلام فيه وهو الذي لم يدعهن للآخـرين يقصـد الافصاح عن تصورات خاصة في ذهنه لها علاقة بالمرأة الحمدانية كعلاقة خولة بالمتنبي مثلاً. وأكثر من ذلك فانه يذكرهن بفتيات قومه - وقد يعني خولة بالذات - بأن ثناءهن أو ثناءها شخصياً اشتراه بشجاعته وبذل نفسه في المعارك ونار الحرب تضطرم اضطراماً. فكيف بعد ذلك يحق لهن - أولها - أن يغتبنه او يغتبن مواقفه من شؤونهن الشخصية. ومثل هذا الشعور تجسد اكثر من مرة في شعر أبي فراس فكأن هناك دائماً من يغتابه. ولا يأتي مثل هذا الشعور المزمن الا نتيجة الشعور بعقدة الذنب. فقد بعث بقصيدة الى سيف الدولة جاء فيها :

ويغتابنــي من لو كفانــي غيبة لكنــت له العــين البصــيرة والأذنا
وعنــدي من الاخبــار ما لو ذكرته اذا قرع المغتــاب من ندم سنا

ما هذا ؟ ومن هو الذي يغتاب ابا فراس وهناك من يعترف بشجاعته وأدبه وفروسيته. ولمن يريد ان يكون العين البصيرة والأذنا وما هي الأخبار التي عنده ولو ذكرها لقرع مغتابه من الندم السن بالسن.

مثل هذا الكلام لا يقال الا لشخص قريب منه مثل سيف الدولة ولكنه لا يقدر أن يخبره بعلاقة اخته خولة بالمتنبي لأنه يشك بسيف الدولة أنه يغتابه. ولو اخبره بهذه العلاقة لندم سيف الدولة على احتوائه لأبي الطيب، ومع ذلك فانه يعرض نفسه ليكون العين البصيرة والأذنا لابن عمه على ما يدور في القصر الحمداني في هذا الشأن. ولم تفارق هذه التصورات فكر ابي فراس حتى في رومياته وهو بعيد عن حلب فراح يشكو من قومه بنفس الروح التي شكا فيها من آسره.

أرانــي وقومــي فرقتنــا مذاهب وان جمعتنــا في الأصــول المناسب

فأقصاهم أقصاهم عن مساءتي وأقربهم مما كرهت الأقارب
غريب وأهلي حيث ما كرّ ناظري وحيد وحولي من رجالي عصائب
نسيبك من ناسبت بالود قلبه وجارك من صافيته لا المصاحب

فهذا القول يمثل سلوكاً دفاعياً عن موتورية خاصة وصراع شخصي مع الذات عن أمور لا علاقة لها بالمناسبة المباشرة. موتورية تنزع الى الدفاع عن وجهة نظر مرتبطة بأهمية الذات الفردية كذات ابي فراس أو الاجتماعية كالمجتمع الحمداني الذي ينتسب له [١٠].

فهذه الأمور هي المصدر الأصيل لمثل هذا القول وليس الأسر أو الشعور بأن الأهل تخلوا عن المأسور وتقاعسوا في دفع الفدية.

وإذا رجعنا الى الحماس الذي اظهره سراً وعلانية أبو فراس في خصومة المتنبي نجد الأميرة خولة وحب المتنبي لها في مقدمة الأسباب لتطور الجفاء بين الرجلين. واذا اضفنا تنكر الحسين ابي العشائر ابن عم الأميرة الآخر للمتنبي بعد أن كان صديقاً له في اللاذقية وقبل التحاقه بحلب وتعرفه على الأميرة نتلمس الأسباب نفسها في هذا التنكر وهي الغيرة على الحرائر الحمدانيات وعلى الأخص على الانثى التي يقول فيها المتنبي.

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي

ولكن أبا العشائر قرر قتل المتنبي فأرسل عبيده ليكمنوا له ففعلوا ولكن نبالهم لم تصبه فأنشد المتنبي، برقة بدل أن يغضب:

ومنتسب عندي الى من أحبه وللنبل حولي من يديه حفيف
فهيج من شوقي وما عن مذلة حننت ولكن الكريم الوف

فما أجمل - فهيج من شوقي - هنا والنبال تتوجه نحوه لتصيب منه مقتلاً. ولكن المحب الصادق في حبه يستعذب الموت فداء محبوبته وخصوصاً إذا كان قاتله من أهلها وعشيرتها.

وكل وداد لا يدوم على الأذى دوام ودادي للحسين، ضعيف
فأن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاتي سررن الوف
ونفسي له نفسي الفداء لنفسه ولكن بعض المالكين عنيف

(١٠) انظر نظرية شافر في ميادين علم النفس ج ٦ ص ٣٧١.

ما وراء كلمة (بعض المالكين عنيف) ؟ وهي بديهية اجتماعية لا تحتاج الى تقرير أو تأكيد. فالقضية التي كاد أن يقتل من أجلها المتنبي على يد عبيد ابي العشائر وبأمره اذاً تتعلق بالمالكين من بني حمدان. وهي (الأمر الواحد) لا غيره الذي ساء هؤلاء المالكين فقرر احدهم بل بعضهم كأبي العشائر أن يستعمل العنف من أجل هذه القضية. من غير أن يقدر ان الحب الذي يكنه المتنبي لخولة ابنة عم أبي العشائر هو غير الحب المبتذل والمتعارف عليه في مفاهيم مجتمع القرن الرابع للهجرة والذي يمارسه بتفاهة واسراف الأمراء الحمدانيون أنفسهم فيقيسون عليه حب المتنبي لابنة عمهم من غير وعي. وأراد أن يؤكد المتنبي المستوى الرفيع لحبه وأنه لا يتورع عن الموت من أجله فذلك سيشرفه فقال:

فان كان يبغي قتلها يك قاتلاً بكفيه فالقتل الشريف شريف

وشعر المتنبي بمحنة حبه فانقطع عن مدح سيف الدولة وفي انقطاعه علامة استفهام كبيرة لا علاقة لها بمادح وممدوح حتى أن الرواية تقول: فاستبطأه سيف الدولة وتنكر له. فركب يوماً في رجاله فقدم عليه ابو الطيب راكباً مهره فلما سلم عليه إزور عنه وأعرض فقال المتنبي شعراً فيه ما يؤكد أن انقطاعه عنه كان لأسباب تتعلق بقلبه المضرم ناراً.

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل السلام اختصارا
تركتني اليوم في خجلة اموت مراراً وأحيا مرارا
أسارقك اللحظ مستحيياً وأزجر في الخيل مهري سرارا

هذا القول يدل على أن المتنبي كان يشعر بأنه ند للأمير وليست علاقته به علاقة شعر وجائزة وإلا لما عاتبه بمثل هذا العتاب الاخواني. وبعد هذا العتاب راح يلمح له بأسباب انقطاعه عنه:

ولكن حمى الشعر إلا القليـ ـل هم حمى النوم إلا غرارا

فما هو (الهم) الذي كان المتنبي يحمله فيضطره على الانقطاع عن مجلس سيف الدولة.

وما أنا اسقمت جسمي به ولا أنا اضرمت في القلب نارا
فلا تلزمني ذنوب الزما ن الي أساء واياي ضارا

فهل هناك غير الحب يسقم الجسم ويبعث الهم ويوقد في القلب ناراً[١١].

---

(١١) محمود محمد شاكر: المتنبي طبعة المقتطف ص ١٣٧.

وهل يكون هذا الحب خارج نطاق اسرة سيف الدولة ليضطر صاحبه الى الانقطاع عن مجلس له في منزلة خاصة تقية وضناً لسمعته وحفظاً لعفاف محبوبته وحماية لنفسه من كيد الكائدين. ومن تكون غير الأميرة خولة يتفق وضعها الشخصي وانقطاع المتنبي عن مجلس أخيها وحال ابناء عمومتها وموقفهم من المتنبي. ولكن كل هذه المفارقات لم تؤثر في صدق مودته وحتى بعد ان ساءت الأمور وكثر حساده. فلم يهبط الى مستواهم وانما قال مؤكداً حبه، مؤكداً نسبه، مؤكداً فروسيته ومهاجماً لخصومه وحتى الحمدانيين منهم في قصيدته:

واحر قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمي وحالي عنده سقم

أكرر ما قلته أن هذا المقطع موجه أصلاً الى الأميرة خولة ولا استبعد أنها كانت تستمع اليه من وراء ستار، فهو يشكو حاله اليها ويخاطبها من وراء مخاطبته لأخيها.

ما لي أكتم حباً قد برى جسدي   وتدعي حب سيف الدولة الأمم

ومما يؤكد هذا الاتجاه في استنباط مرامي المتنبي من شعره ما قاله بعد فترة قصيرة من مغادرته لحلب.

حببتك قلبي قبل حبك من نأى   وقد كان غداراً فكن أنت وافيا
واعلم أن البين يشكيك بعده   فلست فؤادي ان رأيتك شاكياً
فان دموع العين غدر بربها   إذا كن اثر الغادرين جواريا

إن كلمة - من نأى - في البيت الأول تفسر معنى كلمة فالراحلون هم في قصيدته الميمية.

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا   أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فبالرغم من واقع حاله في رحيله هو عن حلب ونأيه هو عن خولة فانه يصر على أنها هي التي رحلت طالما لا يزال وفياً لها وهي التي نأت عنه طالما لم تسنده وتنتصر له في مواقفه الحرجة تجاه خصومه من أولاد عمها. ومن هذا الانفعال العاطفي وجروح قلبٍ لم تندمل بعد، كانت خواطره تتجاذبه بين وصفها بالغدر وبين البقاء على حبها. فراح يخاطب قلبه: لقد حببتك قبل أن تتعلق بحب خولة وقد نأت عنك وغدرت بك فكن وفياً لي يا قلب وابق الى جانبي. فأنا أعلم أن البعد يشكيك بعدها ولكنك لست فؤادي ان رأيتك شاكياً. فأنت يا

فؤادي الذي تحملت كثيراً من المحن من أجل امور اخرى فان الدموع التي قد تسكبها على فراق خولة هي غدر بي وبقضيتي الأساس قضية نسبي. فلا تبك يا قلب على فراق لم تكن أنت سببه.

قال كل هذه المعاني وما يدور حولها وتحاشى أن يقول الأهم. فلم يطلب من فؤاده ان ينساها أو يسلوها. وأثبتت الأيام انها بقيت ملء فؤاده ووجدانه وخواطره. فلا تمر مناسبة الا ذكرها تورية أو تلميحاً أو أشار الى حبه لها. ففي عام ٣٤٦ أنشد كافوراً قصيدة مطلعها.

أود من الأيام ما لا توده وأشكو اليها بيننا وهي جنده

نجده يطلب من الأيام ان تجمع بينه وبين أحبته. ولكن ذلك ما لا توده الأيام لأن شأنها التفريق بين الأحبة وليس الجمع بينهم.

ويلي هذا مطلع ما يفسر معناه.

يباعدن حباً يجتمعن ووصله فكيف بحب يجتمعن وصده

يقول من شيمة الأيام أن يباعدن محبوباً يجتمعن ووصله فيكف أطلب منها ان تقرب بيني وبين محبوبتي وقد اجتمعن على الصد بيننا. ثم يصف اخلاق الدنيا بعد ذلك.

أبى خلق الدنيا حبيباً تديمه فما طلبي منها حبيباً ترده

انه طلب لا معنى له بالنسبة لأخلاق الدنيا التي تأبى ان تديم الحبيب لمحبيه.

ويقول في مناسبة اخرى:

فراق ومن فارقت غير مزمم وأم ومن يممت غير ميمم

إن أسلوب التقية واستعمال ضمير المذكر للفت النظر الى أنه يقصد سيف الدولة فحسب. انطلى على معظم شراح ديوان المتنبي وقلما انتبهوا الى العواطف المشبوبة لواعج وحباً في كلام لا يمكن ان يقال الا في انثى كان المتنبي صادقاً في حبها فكتمها ملء نفسه وذكرها ملء تلميحاته وخواطره.

أما تغلط الأيام في بأن ارى بغيضاً تنائي او حبيباً تقرب

هذا البيت الذي حسبه كافور مديحاً له أو انتبه لما به وكظمه يطفح بألم الحب. وكان

المتنبي في نفس القصيدة قد طلب الولاية صراحة ليدنو من أحبته ولم تبهره مراسيم العيد الذي كان مناسبة لالقاء قصيدته.

فان لم تنـط بي ضيعـة أو ولاية　　فجـودك يكسونـي وشـغلك يسلب
يداعـب في ذا الصيد كل حبيبه　　حذائـي وأبـكي من أحـب وأندب

وبعد أن يئس المتنبي من كافور وامكانية الحصول على مركز رسمي يعزز به موقفه من أهل حبيبته ويعوض به عن ضياعه الأسري بعد أن كتم امر ابيه غادر مصر برماً بكافور وهو ينشد.

عيد بأية حال عدت يا عيد　　بمـا مضى ام لأمـر فيك تجديد
أمـا الأحبـة فالبيداء دونهم　　فليت دونـك بيداً دونهـا بيد

ثم يقول:

يا ساقيي أخمـر في كؤوسكما　　أم في كؤوسـكما هم وتسهيد
أصخـرة أنـا مالي لا تحركني　　هذه المدام ولا هذه الأغاريد

لا يا ابا الطيب انت لست صخرة لا تحركك هذي المدام أو هذي الأغاريد أو فتنة الانثى في مصر وجمالها من عهد كليوباترة حتى عهدك بل حتى عهد برلنتي عبد الحميد. وانما انت ذو قلب كبير ونفس جياشة بالحب الملتزم والوفاء كما قال في أمثالك (أدلر) العالم النفساني، (ان الذين يملكون ذاتاً خلاقة تكون هي صاحبة السيادة في بناء شخصياتهم. والذات الخلاقة يصعب وصفها من قبل الآخرين ولكن بعضهم يستطيع رؤية أثارها لكنه لا يستطيع رؤيتها. انها شيء يحتل مكاناً متوسطاً بين المنبهات المؤشرة في الشخص والاستجابات التي يستجيب بها لهذه المنبهات)[١٢] فكل سلوكاتك وكل أقوالك يا أبا الطيب هي آثار تنم عما يحمله وتحمله قلبك من غضب ورضا وكره وحب. ففي ساعة من ساعات انفعالاتك الحاسمة تصورت انك صخرة لا يحركك ترف الحياة بينما كنت ترفض في ذاتك كل شيء يناقض ارومتك العلوية وحبك لخولة. وتتحمل كل مكروه من أجل كتمان امر ابيك ونسبك المجيد وأمر حبك الصادق. فهذا هو تفسير قولك.

أصخـرة أنـا ما لي لا تحركني　　هذي المدام ولا هذي الأغاريد

(١٢) مجموعة من المؤلفين. النظريات الشخصية ص ١٦٩.

لأنك كونت شخصيتك بأسس تختلف عن أسس طبيعة العصر الذي عشته. ذلك العصر المتفسخ خلقاً والمتردي سلوكاً.

ووصل المتنبي في أوائل عام ٣٥١ للهجرة. وبعد أقل من سنتين بلغه نعي خولة فصرخ في رثائها صرخة المفجوع.

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب كناية بهما عن أشرف النسب
أجل قدرك أن تسمى مؤبنة ومن يصفك فقد سماك للعرب
لا يملك الطرب المحزون منطقه ودمعه وهما في كفة الطرب

لا أريد أن اقف عند كل بيت من هذه القصيدة، وكل بيت فيها جدير بالوقوف عليه وقفة تأمل.

غدرت يا موت كم افنيت من عدد بمن اصبت وكم اسكت من لجب
وكم صحبت أخاها في منازلة وكم سألت فلم يبخل ولم تخب
طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه املاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

يقول المتنبي: (جاءني خبر) فيضع نفسه موضع المقصود في سماع النعي. فالخبر الذي طوى الجزيرة طياً ليصل بسرعة الى الكوفة كان في طريقه ليجيء الى المتنبي شخصياً لأهمية الفقيدة عنده، وأكثر من ذلك فقد تعثرت الألسن في نقل الخبر وتعثر البريد في الطريق وتعثرت الأقلام في الكتب حذرة من نقله الى اسماع المتنبي العاشق. وبالرغم من كل هذه التعثرات فقد وصل يطوي الجزيرة طياً.

تعثرت به في الأفواه السنها والبرد في الطرق والأقلام في الكتب
كأن (فعلة) لم تملأ مواكبها ديار بكر ولم تخلع ولم تهب
ولم ترد حياة بعد تولية ولم تغث داعياً بالويل والحرب
أرى العراق طويل الليل مذ نعيت فكيف ليل فتى الفتيان في حلب

ألا يرى القارىء معي ان هذا الليل الطويل لم يكن ليل شاعر يرثي امرأة ارتزاقاً او مجاملة او طمعاً. وإنما هو ليل عاشق مفجوع، هو ليل محب ملتاع، ولكن يا ترى كيف هو ليل أخيها سيف الدولة في حلب هل هو طويل كليله؟ أم ماذا.

هل كان سيف الدولة يحب أخته بمقدار حب المتنبي لها ؟

وهذا الليل الطويل والمقصود به حب الأميرة خولة صراحة يذكرنا بليل طويل آخر مضى قبل ثماني سنوات من هذا التاريخ أشار فيه المتنبي تلميحاً في حينه الى حبه الكبير في حلب سنة ٣٤٣ للهجرة.

ليالِيّ بعـــد الظاعنـــين شكول طوال وليل العاشقـــين طويل

وبعد أن تساءل المتنبي عن ليل سيف الدولة في حلب قال:

يظـــن ان فؤادي غـــير ملتهب وأن دمـــع جفونـــي غـــير منسكب

لماذا هذا الاتهام بالظن وبعض الظن اثم ؟ أيظن سيف الدولة ان السنوات التي باعدت بين المتنبي وخولة انسته حبها ؟ أيظن أن موتها لم يلهب فؤاده ويجري دمع جفونه ؟ إن هذا الاتهام الذي أطلقه المتنبي ضد سيف الدولة مبني على واقع حال جرى له في حلب. يوم تهامس الحمدانيون في حب المتنبي لابنة عمهم ان كان صدقاً او عبثاً. وأما الآن وقد ماتت خولة فقد حان وقت العتاب وحان وقت مبادلة اتهام باتهام.

يظـــن ان فؤادي غـــير ملتهب وان دمـــع جفونـــي غـــير منسكب

ومرة ثالثة وباضافة كلمة: مع الأسف ان سيف الدولة

يظـــن أن فؤادي غـــير ملتهب وأن دمـــع جفونـــي غـــير منسكب
بلى وحرمـــة من كانـــت مراعية لحرمـــة المجـــد والقصـــاد والأدب
ومـــن مضـــت غـــير موروث خلائقها وان مضـــت يدهـــا موروثـــة النشب

ان هذا القسم بحرمة خولة وما تبعه من تفاصيل في وصف أخلاقها وسلوكها بمثابة تزكية لحبه الكبير.

مسرة في قلـــوب الـــطيب مفرقها وحسرة في قلـــوب البيض واليلب

اذا رأى ورآها رأس لابسه رأى المقانع اعلى منه في الرتب
وان تكن خلقت انثى لقد خلقت كريمة غير انثى العقل والحسب
وان تكن تغلب الغلباء عنصرها فان في الخمر معنى ليس في العنب
فليت طالعة الشمسين غائبة وليت غائبة الشمسين لم تغب
وليت عين التي آب النهار بها فداء عين التي زالت ولم تؤب
فما تقلد بالياقوت مشبهها ولا تقلد بالهندية القضب

وبعد هذه التفاصيل في ذكر صفاتها يقول المتنبي بيتين فيهما الكثير الكثير من آثار محنته :

ولا ذكرت جميلاً من صنائعها الا بكيت ولا ود بلا سبب
قد كان كل حجاب دون رؤيتها فما قنعت لها يا أرض بالحجب

انه يؤكد في البيت الأول تفاصيل صنائعها الجميلة التي يعرفها جيداً وأنه ذو صلة بها الى حد معرفته ان مفرق شعرها مسرة لأنواع الطيب، فهو أزكى عطر من الطيب نفسه ومسرة له . كما أن هذا المفرق حسرة في قلب الخوذ الحديدية (البيض) كما تتمناه الخوذ الجلدية (اليلب) التي لا يلبسها الا الرجال ولكنها لا تصله لأن هذا المفرق اعلى قدراً وأوسع عقلاً . وهذا القول من جهة اخرى يشير ولو بصورة غامضة الى أن المتنبي كان يعرف رائحة مفرقها الذكية وطيبه او معرفة نوع العطر الذي تستعمله . ولكنه يؤكد انها ليست في مستوى الأنثى حسب مفاهيم ذلك العصر ، فان تكن خلقت انثى فقد خلقت كريمة لها عقل الرجال وحسبهم ولها أنشطة اجتماعية وانسانية .

وقليل من التفكير يجعلنا نرى ان امرأة لها مثل هذه الأنشطة لا بد وأن تكون لها حرية في الحركة والتصرف ولو بصورة نسبية . ولم تكن جزءاً من نظام الحريم . لذلك بكى المتنبي عند كل جميل من صنائعها . ثم أوضح سبب بكائه وهو الحب (فلا ودّ بلا سبب) واكتفى في هذه الجملة في شرح محبته كجواب حاسم ونهائي للمتطفلين او الفضوليين الذين قد يسألون عن سبب بكائه . فبتر كل دوافع حبه حتى لا يدخل بمناقشات من أجلها . فجملة« فلا ود بلا سبب» تكفي لقطع الأسئلة المحتملة . وبعد هذا الجواب الحاسم يقول :

قد كان كل حجاب دون رؤيتها فما قنعت لها يا أرض بالحجب

ما هذا ؟ هل هو نقيض ما تقدم وانها كانت قابعة وراء كل حجاب فلم تقنع الأرض بذلك فأضافت الى تلك الحجب حجاب القبر؟ لا أبداً انه غير ذلك . بل انه يشير الى فترة

زمنية منع الحمدانيون فيها المتنبي من رؤية ابنة عمهم أو منعوها هي من رؤية المتنبي. ووضعوا كل حجاب دونها هما العاشق والمعشوقة. ونقدر أن هذا حدث سنة ٣٤١ للهجرة وهي السنة التي القى فيها قصيدته:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي … وللحب ما لم يبق مني وما بقي

فتهامس الخواص وآل حمدان بمقاصد الشاعر أو ليس من المعقول ان يقصد المتنبي في قوله:

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه … ولكن من يبصر عيونك يعشق

يقصد سيف الدولة شخصياً!! فحدث لغط في الأسرة الحمدانية جعل ابو العشائر يتحول عن المتنبي وجعل أبو فراس يحرض المتشاعرين على هجو المتنبي أو التعريض به او الكيد له عند سيف الدولة وجعله أيضاً يخاطب سيف الدولة - ولعله كان آخر من يعلم بحب المتنبي لأخته - يخاطبه بمثل هذا القول:

وعندي من الأخبار ما لو ذكرته … اذاً قرع المغتاب من ندم سنا

وشعر المتنبي بكل هذا فانقطع عن مجلس سيف الدولة حفظاً لسمعة محبوبته وحفظاً لكرامته ما يقارب السنة لعل الألسن تسكت والموضوع ينساه أو يتناساه المقربون من الأسرة الحمدانية، وعندما لمس ازورار سيف الدولة عنه في أوائل عام ٣٤٢ للهجرة كاد يعترف بحبه:

وما أنا اسقمت جسمي به … ولا أنا اضرمت في القلب نارا

وكأنه أراد أن يقول في هذا البيت - الهوى قدر - فلا ذنب لي به وقد اسقم جسمي وأضرم في قلبي ناراً. وهكذا نرى أن التاريخ المعقول لمنع خولة من مقابلة المتنبي أو مشاهدته هو عام ٣٤١ للهجرة. وهذا التاريخ أيضاً هو الذي استغله خصومه فبدأوا يكيدون له ويفتعلون المناسبات للهجوم التشهيري به. ولكنه لم يركع لكل ذلك الكيد ولم يتخل عن حبه وصرخ في وجه الحمدانيين وحاشيتهم وفي وجه خولة نفسها مذكراً بنسبه:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا … بأنني خير من تسعى به قدم

وأعلن أنه أشرف منهم حاشية وأمراء وبيتاً مالكاً. وأنه خير من سارت به قدم.

ان هذه الصورة المتشعبة الأطراف من حب وثورة واعتزاز بنسب نراها مؤطرة في قوله:

ولا ذكرت جميلاً من صنائعها إلا بكيت ولا ود بلا سبب
قد كان كل حجاب دون رؤيتها فما قنعت لها يا أرض بالحجب

ويستمر المتنبي على هذا النهج في مرثيته مستثيراً ذكرياته من أعماقه حتى يختم الأربعة والأربعين بيتاً بقوله:

ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

وتحل المناسبة بعد ثلاث سنوات وهي مناسبة موت ورثاء أيضاً ليجمع كل هذه التجربة الضخمة في فلسفة منطقية ويقول:

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه لم يسبه

الفصل التاسع

قلنا في فصل سابق ان المتنبي ضمن قصيدته التي مطلعها:

مبيتي من دمشق على فراش حشاه لي بحر حشاي حاش

وهي القصيدة التي مدح بها الحسين أبا العشائر يوم قصده الى أنطاكية عام ٣٣٦ للهجرة ضمنها بيتاً جعله آخر بيت في القصيدة كي لا ينسى هو:

فسرت اليك في طلب المعالي وسار سواي في طلب المعاش

فحدد به سبب مسيرته الى أبي العشائر وأخبره سلفاً انه قاصده في طلب المعالي خلافاً للشعراء الذين يقصدونه في طلب المعاش والارتزاق.

وبنفس الأسلوب رمى في وجه كافور الأخشيدي في أول قصيدة قالها فيه. بيتاً (لا ينسى) وجعله مطلعاً هذه المرة تأكيداً على أن مسيرته اليه جاءت لأسباب تتعلق بنفسه وما أصابها من رزايا عبر الزمن حتى اصبح يرى المنية امنية من امانيه والذهاب الى كافور كالمنية التي طلبها ليشفي داءه بها فقال يخاطب نفسه:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا إن يكن امانيا

ثم قال:

تمنيتها لما تمنيت ان ترى صديقاً فأعيا أو عدواً مداجيا
إذا كنت ترضى ان تعيش بذلة فلا تستعدن الحسام اليانيا

قال شارحو ديوانه:

انه بقي في دمشق والرملة بعد مغادرته حلب مدة شهرين من الزمن ترفع خلالها عن مدح (ابن مالك) عامل الأخشيدي في دمشق ومكث عند (ابن طغج) صديقه القديم في الرملة وهناك كاتبه كافور الأخشيدي ودعاه بالمسير اليه. فلما ورد مصر اخلى له كافور داراً وخلع عليه وحمل اليه الافاً من الدراهم فقال يمدحه في جمادى الأخرى سنة ٣٤٦ للهجرة بالقصيدة التي مطلعها لا ينسى - كما قلنا -:(١)

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكنّ امانيا

وبقدر ما في هذا البيت من اليأس والألم فان فيه (انذاراً) غير مباشر الى كافور وتهديداً ضمنياً فيما اذا لم يدرك حاكم مصر مقاصده الحقيقية في مسيرته اليه. كما أنه برر مجيئه الى كافور في نفس البيت وهو يخاطب نفسه بقوله: (كفاك داء - يا احمد - أن ترى الموت شافياً لك مما حل بك من الرزايا التي آخرها وجودك عند كافور وكفى للمنايا أن تتمناها وتسجلها في قائمة امنياتك).

ولكن تعلق المتنبي بالأمل الى آخر لحظة من حياته جعله يرضى بذلك. لعله يصيب عند حاكم مصر منصباً يعوض له ما فاته من مجد اسري. وأخيراً خاب امله ولم يندم على انذاره المبطن الى كافور وقد لاحظ بثاقب بصيرته أن أهل زمانه كلهم سواسية يتهافتون على تصديق أكذوبات أرباب المراكز طمعاً في جائزة ويبتعدون عن الصادقين في أقوالهم وسلوكهم ما داموا بعيدين عن مراكز القوة.. فقرر أن يطالب (صراحة) بولاية ترفعه الى مركز. ولكن وعيه الباطن وتراكمات محنته لم يطيقا احتمالاً للنفاق فتداعت تلك الترسبات كأسباب موجبة لطلب الولاية عن غير قصد تشرح محنته بشكل أو بآخر.

إن من الأصول المتبعة في كل العصور - تقريباً - أن يبين طالب المنصب أو الوظيفة مبررات لطلبه أو كما نسميها في عصرنا الحاضر - الأسباب الموجبة - كأن يقدم طالب الوظيفة مرفقات بعريضته تشير الى درجته العلمية او خبرته او كفاءته أو انتمائه الحزبي أو السياسي أو بطاقة توصية بينما كان طالب المنصب سابقاً يقدم ما يتفق وسلوك الحاكم او رغبته فحسب. فاذا كان الحاكم فارساً شجاعاً يدعي طالب المنصب الشجاعة والفروسية وإذا كان

---

(١) العرف الطيب ص ٤٧١ ناصيف اليازجي.

ديناً يدعي طالب المنصب الفقه والعلم والدين . وإذا كان متفسخاً يدعي طالب المنصب سعة الاطلاع بأوصاف الجواري والغلمان وأسواق الرقيق . وإذا كان محباً لجمع المال يقدم طالب المنصب فنوناً من طرق جمع الضرائب واستيفاء الخراج . وأنواع السياط التي تستعمل عند مصادرة دور السراة والاغنياء وأنواع التهم التي تبرر تلك المصادرات . وإذا كان الحاكم شاعراً أديباً يتودد اليه طالب المنصب بسعة اطلاعه على أخبار الشعراء والأدباء وأخبار الأمم الأخرى وآدابها .

ولكن المتنبي لم يتقدم بشيء من كل هذا عندما طلب الولاية من كافور صراحة . وإنما قدم مبررات تتعلق بمحنته وأهله واشتياقه الى لقاء أحبته فقال قصيدته التي أنشدها امام كافور عام ٣٤٧ للهجرة .

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله ... فاني أغني منذ حين وتشرب
وهبت على مقدار كفي زماننا ... ونفسي على مقدار كفيك تطلب
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية ... بجودك يكسوني وشغلك يسلب

فهذه الأبيات الثلاثة تمثل عريضة الطلب . وبعدها مباشرة جاءت المرفقات أو الأسباب الموجبة لهذا الطلب أو تداعي الأفكار التي برزت من مكامنها العميقة في نفس المتنبي وانحدرت على لسانه شعراً يفسر ارتباطه بنسب مهدور وحب يحن اليه وأهل يشتاق اليهم بالرغم من قناعته ان هذا الاشتياق هو (خرافة) . كالذي يأمل أن يلتقي (بالعنقاء)[٢] ومثل هذا المعنى لم يكن يخطر بباله لولا قناعته بأن أولئك الأهل الذين يشتاق اليهم هم الذين كانوا السبب في هدر نسبه ومع ذلك فانه لا يزال متعلقاً بحبهم . فقال بعد تلك الأبيات مباشرة :

يضاحك في ذا العيد كل حبيبه ... حذائي وأبكي من أحب وأندب
احن الى أهلي وأهوى لقاءهم ... وأين من المشتاق عنقاء مغرب

وهكذا نجد ان المتنبي لم يكن طامعاً (بالولاية) من كافور من أجل (الولاية ذاتها) كما قال القدماء وحتى المحدثون . وإنما كان ذلك من أجل التعويض (الطبقي) إن صح التعبير

---

(٢) العنقاء : طائر خرافي لا وجود له يضرب به المثل للدلالة على من يطلب تحقيق الأمر المستحيل .

بعد ان تنكر له من تنكر في إعلان نسبه. فأراد ان يعوض على ما فاته. فتداعت كوامن أفكاره تأكيداً لذلك. فتألم وهو يرى الناس كلا يضاحك حبيبه في العيد وهو يبكي ويندب أحبته ويحن الى أهله ويشتاق الى لقائهم بالرغم من قناعته ان مثل هذا اللقاء قد أصبح مستحيلاً وخرافة كخرافة وجود العنقاء. فهو يعلم ان أباه قد توفي وانتهت غيبته الصغرى وجدته توفيت وشمت بموتها اعداؤه وذهب من كان وراء تثقيفه والاعتناء به في صغره في مدارس أشراف العلويين في الكوفة. وما دام الأمر كذلك فليس امامه من سبيل للتعويض عن كل ذلك إلا ان يرتفع الى (حاكم ولاية) حتى لو جاء ذلك من كافور الأخشيدي الذي لا يضمر له حباً ولا احتراماً فقال:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله　　　فاني اغني منذ حين وتشرب

ومهما قيل في عدم استجابة كافور لطلب المتنبي فان ذلك لا يخرج عن احتمالات خوف كافور من العواقب السياسية. إذ ان تلاحم حدود الإخشيديين مع حدود الحمدانيين قد تجعل المتنبي إذا اصبح (والياً) ينحاز الى سيف الدولة ويتحد معه وهو المعروف برأيه في تشتت العرب وقد قال في ذلك:

وإنما الناس بالملوك وما　　　تفلح عرب ملوكهم عجم

وربما أخذ كافور بتقارير عامله في دمشق (ابن مالك) الذي رفض المتنبي مدحه عند مروره به. او ان كافورًا كان يعلم اصالة نسب المتنبي فاذا ولاه احد الاقاليم او البلدان لالتف الناس حوله وسبب ذلك له المتاعب. ففضل ان يبقي الهدوء السياسي الذي امتازت به مصر آنئذ ولكن ذلك الهدوء لم يجعل نفس المتنبي المتألمة هادئة أو راضية بعكس ما كانت عليه حاله في حلب بالرغم من عدم الاستقرار السياسي في بلاد الحمدانيين وكثرة الحروب مع الروم وكثرة غزوات الاعراب على الدولة الحمدانية. ويعود ذلك - كما قلنا - إلى إعجاب الشاعر الأثيل بالأمير الشجاع والى طفولة محسد وهذان السببان قد انتفيا في مصر فانه لم يكن معجباً بكافور كما أن محسداً قد كبر نسبياً وشب عن الطوق وتجاوز مرحلة الطفولة. هذا بالاضافة الى أن مسيرته الى حلب كانت من أجل العمل باخلاص في صف سيف الدولة الأمير العربي الشجاع بينما كانت مسيرته الى كافور من أجل التشبث في طلب الولاية ليعوض بها عما فاته من مجد أسري. ولولا ضآلة شعراء سيف الدولة وضحالة أفكارهم في فهمه لبقي هناك. ولكنهم - عن جهل به - سدوا في وجهه سبل طموحه وأصروا أن يحطوا من شأنه ويجروه الى

مستواهم حتى دفعوه الى التمرد على صديقه سيف الدولة. وبعد أن أهمل كافور مطاليبه اصبح حساساً تتأثر نفسه بأقل حادثة فينزح من أعماقه سلسلة طويلة من آلام حياته.. فقد بلغه أن قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة بحلب فتأثر تأثراً شديداً وقال في قصيدته النونية (المشهورة التي لم ينشدها لكافور) : -

بم التعلل لا أهـل ولا وطن   ولا نديم ولا كأس ولا سكن

إن هذه الـ (بم التعلل) تمتد بعمقها عبر مسيرة حياته كلها حتى تتصل بقوله في الكوفة أثناء صباه :

محبـي قيامـي ما لذلـكم النصل   بريئـاً من الجرحـى سليماً من القتل

لقد ذهب محبو قيامه ومحبو إظهار نسبه.. ومنهم جدته ذهبوا منذ عهد بعيد.. فبم التعلل بعدهم. كما أن قيامه في الشام ومطالبته بحقه في العلوية اصيب بالفشل ودخل من وراء ذلك القيام السجن ولم يخرج منه إلا بعد أن تعهد بعدم مطالبته بالعلوية مرة ثانية. فبم التعلل بعد ذلك. وأخيراً رحل عن صديقه الحميم سيف الدولة والذي يجله ويحبه ويعرف عنه وعـن أصالته الشيء الكثير. فبم التعلل بعد كل هذا ولم يبق له أهل علويون ولا وطن في الكوفة ولا نديم في حلب ولا سكن في مصر وأما علاقته بكافور فقد كانت علاقة (مقايضة) تشوبها المصلحة والحذر بعيدة عن روح الود والثقة ولكن هذا لم يمنع المتنبي من التصريح بضخامة مطلبه وعظمته.

أريد من زمنـي ذا أن يبلغني   ما ليس يبلغـه من نفسـه الزمن

وينفث المتنبي في هذه القصيدة من صدره الحزين حسرة كبرى يلخص فيها كل حياته.

ما كل ما يتمنـى المرء يدركه   تجـري الـرياح بمـا لا تشتهـي السفن

أي نعم (يا أبا الطيب - تجري الرياح بما لا تشتهي السفن) ولو أن رياح سفينة حياتك جرت بما يتطلب الواقع والانصاف لكنت سيد قومك إذا لم تكن الامام الثالث عشر.

وقطع المتنبي امله من كافور وشعر بأن مصر قد اصبحت له سجناً كبيراً - وربما كانت كذلك - فخرج منها سراً منحدراً الى الكوفة عبر الصحراء في مستهل ذي الحجة من عام ٣٥٠ للهجرة وقال قصيدته الشهيرة :

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد

وكعادته راح يوضح في هذه القصيدة ما في نفسه من كبرياء وحزن وألم ويأس اضافة الى هجاء كافور. فقال فيها:

لولا العلا لم تجب بي ما أجوب بها   وجناء حرف ولا جرداء قيدود

وقال فيها:

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي   شيئاً تتيمه عين ولا جيد
يا ساقيي أخمر في كؤوسكما   أم في كؤوسكما (هم) وتسهيد
أصخرة أنا ما لي لا تحركني   هذي المدام ولا هذي الأغاريد

وقال فيها:

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه   إني بما أنا شاك منه محسود

وقال فيها:

ما كنت احسبني احيا الى زمن   يسيء لي فيه عبد وهو محمود

وصل الكوفة بعد ثلاثة أشهر من خروجه من مصر ووصف سفرته هذه وطريق (انسحابه الطويل) بمقصورته الرائعة:

الا كل ماشية الخيزلى   فدى كل ماشية الهيذبى

والتي شمخ فيها وهو يقول:

لتعلم مصر ومن بالعراق   ومن بالعواصم اني الفتى
واني وفيت واني ابيت   واني عتوت على من عتا
وما كل من قال قولاً وفى   ولا كل من سيم خسفاً أبى
ومن يك قلب كقلبي له   يشق الى العز قلب التوى

ولست بصدد هذه القصيدة وقد شرحها وأعجب بها كل الشراح. ولكنه يهمني فيها بيت واحد لا غير. لا ازال أسأل نفسي لماذا قاله المتنبي في هذه القصيدة:

بها نبطي من اهل السواد   يدرس أنساب اهل الفلا

من هو هذا النبطي ولماذا هجاه او حشر هجاءه وهو في معرض هجو كافور ومصر:

ومــاذا بمصر من المضحكات	ولكنــه ضحــك كالبكا
بهــا نبطــي من اهــل السواد	يدرس أنســاب أهــل الفلا
واســود مشفــره نصفه	يقــال له أنــت بدر الدجى
وشعــر مدحــت به الكركد	ن بــين القــريض وبــين الرقى
فما كان ذلك مدحــاً له	ولكنــه كان هجــو الورى

ومرة ثانية لماذا تعرض لهذا النبطي ولم نسمع منه انه قد أساء له. إن جميع الذين هجاهم المتنبي صراحة وضع الرواة اشارات لأحداث وقصص أو خصومات كانت بينهم وبين المتنبي مثل ابن كروس وزير بدر بن عمار ومثل اسحاق ابن كيغلغ وغيرهما. أما هذا النبطي فلم نجد اشارة مبررة لحشر هجائه مع كافور. ولكن المعضلة تتضح جوانبها عندما نعلم انه ابن خنزابة وهو ابن الوزير الخطير علي بن الفرات احد وزراء (الخليفة العباسي المقتدر) وكان قد تقلد الوزارة عام ٢٩٦ للهجرة. ومن المعلوم ان عهد المقتدر كان عهداً متميزاً باضطهاد العلويين وهدم مساجدهم وكان المتنبي في ذلك العهد طفلاً. يسمع ويرى ويتحرق تحت ضغوط جدته التي حذرته كثيراً من المجاهرة بنسبه أو علويته. والا قتل أو اصابه مكروه لغيبة ابيه. وقد نسي المتنبي بعد كبره تلك الأمور وتغلغلت الى اعماق نفسه مكبوتة منذ عهد طفولته. ولما رأى ابن خنزابة بن علي بن الفرات في مصر. حدث عنده (اقتران سيكولوجي) حسب المصطلحات العلمية الحديثة. فكأن هجاء هذا النبطي بمثابة هجاء عهد المقتدر ذاته الذي يحمله مسؤوليه ضياع نسبه. ومثل هذه الحالة النفسية اصبحت من بديهيات علم النفس في عصرنا الحاضر. فمثلاً إذا أصاب طفلاً صغيراً مكروه داخل سيارة صفراء اللون. ينسى ذلك الطفل تفاصيل ذلك المكروه في كبره ولكنه يبقى متشائماً من اللون الأصفر من غير أن يعلم السبب.. ولا أشك لو أن المتنبي بعث حياً وسألناه عن سبب حشره (ابن خنزابة) في قصيدة اعدت اصلاً لهجاء كافور ووصف مسيرة طويلة في الصحراء لتردد في الاجابة وما عرف السبب. لأن الاقتران النفسي كان منبعثاً من علاقة هذا الرجل بأبيه الذي كان وزيراً لعهد يكرهه ويحمله مسؤولية ضياع نسبه بشكل أو بآخر. إذ ان الطالبيين لو لم يكونوا مضطهدين حتى الموت لما تخفى ساداتهم وغاب زعيمهم وامامهم عن الأنظار حذر القتل. ولشمخ المتنبي بنسبه وعرف أباه الحقيقي. وجميع من تكلم عن المتنبي مروا بهذا البيت مر الكرام ولم يثأر احد للنبطي ويبرىء ساحته من التعريض غير المقصود لذاته. وأما كافور فقد ثأر له الدكتور طه

حسين حتى يكاد قارىء كتابه - مع المتنبي - يشعر ان طه حسين من أحفاد كافور ان كان له أحفاد.

وهناك امر آخر يجرنا الى التحدث عن دخول المتنبي الكوفة بعد خروجه من مصر وقد وصلها في أوائل عام ٣٥١ للهجرة. ويبدو ان حاله عندئذ كانت غير حاله التي منعته من دخولها حوالى عام ٣٢٩ للهجرة. ومن المعروف ان المتنبي خرج من الكوفة صغيراً الى بغداد وعاد اليها في حدود عام ٣١٧ للهجرة بعد أن خدش إحساساته المراهقة بائع البطيخ (البغدادي) ثم خرج منها مرة ثانية وعاد اليها ما بين عامي ٣٢٣ - ٣٢٥ للهجرة اثر خروجه من السجن ووصول كتاب جدته اليه تستدعيه اليها. وها هو اليوم في عام ٣٥١ للهجرة يدخلها مختاراً. وكانت المرة الوحيدة التي لم يتمكن من دخولها - على حالته تلك - في حدود عام ٣٢٩ للهجرة وهذا التاريخ يذكرنا بموت الوكيل الرابع والأخير للامام محمد المهدي. وهذا التاريخ يذكرنا بانتهاء (الغيبة الصغرى) التي أعلن عنها ببراعة وتقية الوكيل الرابع وهو على فراش الموت بقوله (لله امر في ذلك) وانتهاء الغيبة معناه العلمي وفاة الامام نفسه خلال فترة وكالة (ابي الحسن السمري) ما بين عامي ٣٢٦ - ٣٢٩ للهجرة. ولا شك أن تجمع هذه الأمور سببت حالة متوترة عند الخاصة من العلويين لم تكن في صالح المتنبي فكان كبش فداء تلك الحالة التي ضحت بنسبه وحقه في العلوية حفظاً على وحدة العامة، والتفافهم حول الامام الغائب. ومن هنا انطلقت فكرة المهدي المنتظر الذي قالوا انه لا يزال حياً في غيبة كبرى. واستفادت الفكرة في ثبوتها من ظاهرة الأمل المتفاعلة في نفس الانسان المضطهد والمظلوم كما استفادت من عقائد الحضارات البشرية المختلفة التي تطمح الى ظهور المنقذ من الظلم والضلال. وقبل أن تتضح معالم ذلك التوتر بالنسبة للمتنبي ماتت جدته وسنده الوحيد في ذلك التاريخ أيضاً. فانقطع أمله وصرخ صرخته الجريحة لدى رجوعه الى بلاد الشام من غير أن يدخل الكوفة.

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد

ونراه بعد ربع قرن تقريباً من - تلك الحالة - التي لم تخوله دخول الكوفة يدخلها مختاراً - كما قلنا - ولحد هذا التاريخ لم نسمع أو نقرأ انه ابن سقاء كوفاني. ولكن خروجه منها الى بغداد وبقاءه فيها ما يقارب السبعة اشهر وترفعه - حسب اجماع الرواة - عن مدح (المهلبي) وزير معز الدولة البويهي جعل ذلك الوزير يحرض شعراء بغداد للنيل من عرضه وشرفه فظهرت للوجود - لأول مرة - مزاعم كونه ابن سقاء.

عند عودته الى الكوفة صادف أن هاجمها القرامطة فأبلى المتنبي بلاء حسناً في الدفاع عنها مع أهلها ولا شك ان ذلك قد بلغ السلطة المركزية . فأكرمه القائد (دلير بن لشكروز) وخلع عليه تقديراً لدفاعه مع المدافعين عن الكوفة ضد القرامطة او الخوارج فمدح المتنبي دلير القائد بقصيدة مطلعها :

كدعــواك كل يدعــي صحــة العقل ... ومن ذا الـذي يدري بما فيه من جهل

ويشاء القدر أن يمتحنه هذه المرة في قلبه فيبلغه نبأ وفاة (حبيبته) وأخت صديقه سيف الدولة خولة فيرثيها بأجمل قصائده مصرحاً بلواعج قلبه وكوامن نفسه وقد غلبه الحزن والبكاء فقال :

يا أخـت خـير اخ يا بنـت خـير اب ... كنـاية بهـم عن اشرف النسب
اجـل قدرك ان تسمـي مؤبنة ... ومـن يصفـك فقـد سماك للعرب
لا يملك الطـرب المحـزون منطقه ... ودمعـه وهما في كفـة الطرب
غدرت يا موت كم افنيت من عدد ... بمـن اصبـت وكم أسـكت من لجب
وكم صحبـت أخاهـا في منازلة ... وكم سألـت فلـم يبخـل ولـم تخب
طوى الجـزيرة حتـى جاءنـي خبر ... فزعـت فيه بآمـالي الى الكذب
حتـى إذا لم يدع لي صدقـه املاً ... شرقـت بالدمـع حتـى كاد يشرق بي

ويستمر المتنبي في حزنه وبكائه ويضم موت الأميرة خولة الى قائمة همومه الكثيرة ..

أرى العـراق طويل الليل مذ نعيت ... فكيف لي فتـى الفتيان في حلب

وينكفيء المتنبي على نفسه فترة من الزمن في الكوفة بعد هذه الصدمة العاطفية . وفي تلك الأثناء يتسلم كتابين الأول من سيف الدولة يستدعيه فيه الى (حلب) والثاني من أبي الفضل ابن العميد يستدعيه فيه الى (ارجان) ولا شك ان المتنبي فكر طويلاً قبل أن يعتذر لسيف الدولة اعتذاراً لبقاً في قصيدته :

فهمـت الكتـاب أبـر الكتب ... فسمعـاً لأمـر امـير العرب

ويقول الرواة : أنفذ سيف الدولة كتاباً (بخطه) الى الكوفة يسأله المسير اليه فأجابه بهذه القصيدة وأنفذها اليه في شهر ذي الحجة سنة ٣٥٣ للهجرة . وقد يكون من أسباب

اعتذاره لسيف الدولة وعدم المسيرة اليه شعوره بأنه لم يعد قادراً على حمايته من مؤامرات خصومه التي حيكت وتحاك ضده وربما خشيته من غدر الحمدانيين انفسهم - وقد عرفوا بالغدر - وربما من غدر سيف الدولة نفسه. وقد عبر المتنبي عن ذلك في ساعة من ساعات انفعاله فقال ضمن قصيدة كافورية يخاطب قلبه ويعرض بسيف الدولة:

حببتك قلبي قبل حبك من نأى ... وقد كان غداراً فكن انت وافياً

وهكذا عزم على المسير الى ابن العميد. ولعل هذه الاستجابة تدل على تغلب (عقدة الأب) أو عقدة الحرمان من (العطف الأبوي) التي عاناها في صغره فتمثلت في كبره باندهاشه بعلم ابن العميد وفرحته بلقائه وبالطريقة التي مدحه بها. فأعطاه من الأوصاف ما يتمنى كل امرىء أن يراها في أبيه إذا فقده صغيراً أو لم يره منذ طفولته أو لم يعرف عنه شيئاً سوى اسمه وما يروى عنه من أخبار. فاذا شب عن الطوق ينجذب الى الانسان الذي يحمل مثل الصفات التي يحلم بها ان تكون لأبيه أو يتمناها له لذلك كانت الفرحة التي أعلنها المتنبي في قصيدته الأولى لملاقاته ابن العميد لا تقل عن فرحة لقاء الابن لأبيه بعد غيبة طويلة:

باد هواك صبرت ام لم تصبرا ... وبكاك ان لم يجر دمعك او جرى

وقد جاء في هذه القصيدة:

من مبلغ الاعراب اني بعدها ... جالست رسطاليس والاسكندرا
ومللت نحر عشارها فأضافني ... من ينحر البدر النضار لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه ... متملكاً متبدئاً متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما ... رد الاله نفوسهم والأعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدماً ... وأتى فذلك اذ اتيت مؤخرا
يا ليت باكية شجاني دمعها ... نظرت اليك كما نظرت فتعذرا

فهذه الأوصاف التي وصف المتنبي بها ابن العميد بأسماء (اعلامها) من غير الدخول في التفاصيل هي من نسج لا شعوره فتصور هذا الرجل الكبير في علمه وعقله وسنه[٣] بمكانة

(٣) جاء في الاعلام للزركلي ان ابن العميد عاش نيفاً وستين سنة وكانت وفاته سنة ٣٦٠ للهجرة ومعنى ذلك انه ولد في اواخر العقد الأخير من القرن الثالث للهجرة اي انه اكبر من المتنبي سناً وقد استلم الوزارة ٢٤ سنة وهناك رواية تقول استلمها ٣٠ سنة.

أبيه أو انه يحمل من الصفات ما يحملها ابوه البعيد عنه طي الزمن - وأرى - لا بد من السؤال عن مقصد (وعيه الباطن) في الباكية التي شجاه دمعها - والتي تمنى ان تنظر الى ابن العميد كما نظر هو تعويضاً عن حرمانه من (حنان اب) فهل يحق لنا ان نتجاوز أقوال من شرحوا ديوان المتنبي ونقرر انه قصد (جدته) التي ماتت بحسرة من (رد الأمانة الى أهلها . والولد الى ابيه) ؟... واننا نجد المتنبي يزداد تواضعاً امام ابن العميد في قصيدة ثانية قالها بمناسبة حلول عيد النوروز. وكانت مخاطبته لممدوحه تختلف عن كل ما قاله فيما مضى . فلم يحشر نفسه ولم يتعال على ممدوحه ولم يفخر بعروبته بل برر أعجمية ابن العميد :

جاء نيروزنا وأنت مراده ... وورت بالذي أراد زناده
هذه النظرة التي نالها منـ ... ـك الى مثلها من الحول زاده
ينثني عنك آخر اليوم منه ... ناظر أنت طرفه ورقاده

ويقول فيها أيضاً :

عند من لا يقاس كسرى أبوسا.... سان ملكاً به ولا اولاده
عربي لسانه فلسفي ... رأيه فارسية أعياده
كيف يرتدّ منكبي عن سماء ... والنجاد الذي عليه نجاده
قلدتني يمينه بحسام ... اعقبت منه واحداً أجداده

ولم تتضح عقدة الأب هذه عند المتنبي في شعره بعد ملاقاته لابن العميد فحسب بل تطرقت الى سلوكه معه فقد قالوا : إن المتنبي كان يزور ابن العميد يومياً ويتطلع في وجهه(٤) . ومثل هذا التطلع الملحاح في وجه ابن العميد لم يفهم دوافعه النفسية الأقدمون ولم يخطر ببالهم ان له تعليلاً آخر لا علاقة له بالأدب والشعر لأنه ذو علاقة بشعور المتنبي من ناحية عقدة الأب للتعويض عما أصابه من عطف وحرمان أبوي وجدهما في شخص ابن العميد . وقد ازدادت هذه العقدة تميزاً في قصيدة ذكر فيها اسم (المهدي) لأول مرة في شعره ببيت معقد منبعث من اعماق نفسه شبه به ابن العميد بالمهدي نفسه وذلك في قوله وهو يودعه في طريقه الى عضد الدولة سنة ٣٥٤ للهجرة :

نسيت وما أنسى عتاباً على الصد ... ولا خفرا زادت به حمرة الخد

---

(٤) البرقوقي جـ ١ ص (خ- أ) عن ايضاح المشاكل للاصفهاني .

علينا ان نتأمل بمفردات هذا البيت الدالة على أن قائلها يحني رأسه تواضعاً امام رجل يجله ويحترمه فذكر. (العتاب) وذكر (الخفر) وذكر حمرة الخد. ومهما قيل في هذا البيت من شروح فان اختيار مفرداته تدل على اضطراب الأبناء امام آبائهم عندما يزمعون على قول شيء. ويستمر المتنبي على هذه الوتيرة حتى يقول :

فان يكن المهـدي من بان هديه ... فهـذا. والا فالهـدى ذا. فما المهدي
يعللنـا هذا الزمـان بذا الوعد ... ويخـدع عما في يديه من النقد
هل الخـير شيء ليس بالخـير غائب ... أم الرشـد شيء غائـب ليس بالرشد
أأحـزم ذي لب واكرم ذي يد ... وأشجـع ذي قلـب وأرحـم ذي كبد

ففي البيت الأول يقول المتنبي ان كان (المهدي) هو الذي يظهر هداه فهذا (ابن العميد) الذي نراه هو المهدي. وان لم يكن هو فان صلاحه وعلمه هما الهدى بعينه ... وبقدر ما في هذا البيت من تكلف وتعقيد وتنازع لتثبيت (معنى) ما بين الشعور واللاشعور وأزمة نفسية حادة. فانه ينطوي على عتاب غير مباشر (للمهدي) الذي مضى بهداه ولم يظهر ليكشف عن كثير من الحقائق ومنها ابوته له. وكان لا بد بعد هذا العناء ان يقول البيت الثاني. ويستعمل كلمة (يعللنا) بدل (يبشرنا) او غيرهما من الكلمات المناسبة الأخرى التي لا تفوت المتنبي في دقة معناها وهذه الـ (يعللنا) بدل (يبشرنا) لا تختلف بعمقها عن (بم التعلل) التي قالها بمصر قبل بضع سنوات من هذا التاريخ :

بم التعلل لا اهـل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن

وترك المتنبي ابن العميد في مطلع عام ٣٥٤ للهجرة في مسيرة الى عضد الدولة. ولا اراه قد انسجم معه كما انسجمت نفسه مع ابن العميد لذلك تكلف مدحه وأجاد في وصف بلاده وخصوصاً في قصيدته التي وصف بها (شعب بوان وعاد بها الى عادته في تفضيل العرب على العجم :

مغانـي الشعـب طيبـاً في المغاني ... بمنزلـة الـربيع من الزمان
ولـكن الفتـى العربـي فيها ... غريب الوجـه واليد واللسان

ولم يبق في (شيراز) عند عضد الدولة طويلاً فاستأذنه للرجوع الى العراق. وفي تلك الأثناء كانت (الضجة) التي افتعلها الوزير المهلبي ضد المتنبي قد بدأت وأخذ صداها يتردد. وربما المهلبي اوغيره من خصوم المتنبي دبروا امراً له عند رجوعه فتربص له جماعة من

الاعراب في (دير العاقول) على بعد عدة فراسخ من جنوب بغداد فقتلوه وقتلوا ابنه محسّداً ونهبوا قافلته. ولا بد من الاشارة الى التناقضات الموجودة في روايات مقتله للدلالة على ان مقتله كان مقصوداً بمؤامرة سياسية ولم يكن رد فعل لقصيدة قيلت بهجاء (ضبة بن يزيد العتبي) عن لسان المتنبي ولم تكن من نظمه وقد أنكرها وروى هذا الإنكار بعض الرواة المعروفين بالصدق.

ومما قيل في ذلك ان قوماً من أهل العراق قتلوا والد ضبة (يزيد العتبي) وسبوا امرأته (ام ضبة) وفسقوا بها. وكان ضبة غداراً بكل من نزل به واجتاز به ابو الطيب في جماعة من (أشراف الكوفة) فامتنع منهم وأقبل يجاهر بشتمهم فأرادوا ان يجيبوه بمثل ألفاظه وسألوا ذلك أبا الطيب فتكلفه لهم على كراهة وقال هذه القصيدة:

ما انصف القــوم ضبه وامه الطرطبة
رمــوا برأس ابيه وبــاكوُا الأم غلبه[٥]
فلا بمــن مات فخر ولا بمــن نيك رغبة

وتستمر القصيدة بهذا الفحش من الكلام الى آخرها. وان تدبرنا القصيدة بكاملها نجدها تختلف اختلافاً كبيراً عن نهج المتنبي في جده وهزله وهجائه. فعندما استعمل البذاءة مع (ابن كيغلغ) عزز ذلك بأبيات ذهبت مذهب الأمثال والحكم:

لا يسلــم الشرف الــرفيع من الأذى حتــى يراق على جوانبــه الدم

وعندما هجا (ابن كروس) وزير بدر بن عمار بقوله:

يا ابــن كروس يا نصف اعمى وان تفخــر فيا نصف البصير
تعادينــا لأنــا غــير لُكْنٍ وتبغضنــا لأنّــا غــير عور؟

قال في نفس القصيدة:

وأسري في ظلام الليل وحدي كأنــي منــه في قمــر منير

ولا استبعد ان يكون احد خصوم المتنبي في بغداد نظم هذه القصيدة ودسها على لسانه الى (ضبة) استكمالاً لخيوط المؤامرة على حياته وان المتنبي انكر هذه القصيدة. وأيد هذا

---

(٥) باك: تعاطي العملية الجنسية (عند الحمير) ويقابلها كلمة «ناك» عند البشر.

الانكار (ابن جني)[٦] كما أن (الواحدي) أكد انكار المتنبي لهذه القصيدة أيضاً ولم تكن هي المرة الأولى التي يدس فيها شعر عن لسان المتنبي للايقاع بينه وبين الآخرين فقد ورد في ديوانه أن قوماً قالوا هجاء في (ابن اسحاق التنوخي) ونسبوه للمتنبي فلما سمع ذلك بعث اليه بقوله :

اتنكر يا ابن اسحاق اخائي وتحسب ماء غيري من اناني
أأنطق فيك هجواً بعد علمي بأنك خير من تحت السماء

غير ان الثعالبي (في يتيمة الدهر)[٦] روى عن مقتل المتنبي رواية قريبة من الصحة لو حللنا معانيها قال : (لما نجحت سفرته وربحت تجارته بحضرة عضد الدولة ووصل اليه صلاته اكثر من مائتي الف درهم استأذنه في المسير عنها - شيراز - ليقضي حوائج نفسه ثم يعود اليها فأذن له وأمر ان تخلع عليه الخلع وأنشده ابو الطيب الكافية التي هي آخر شعره :

فدى لك من يقصر عن مداكا فلا ملك اذن الا فداكا

وارتحل عن شيراز بحسن حال ووفور مال فلما فارق أعمال فارس حسب ان السلامة تستمر به كاستمرارها في مملكة عضد الدولة . ولم يقبل ما أشير به عليه باستصحاب الخفراء والبذرقين فجرى ما هو « مشهور » من خروج سرية من الاعراب عليه ومحاربتهم إياه وتكشف الوقعة عن قتله وابنه محسداً ونفراً من غلمانه وفاز (الاعراب) بأمواله وذلك في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة) .

اننا نجد بصمات المؤامرة في هذه الرواية وذلك بوجود من أشار اليه بالاحتياط وحذره من دخوله العراق بدون خفراء . وهذا مما يدل على أن المتنبي كان مطلوباً لقتله وثبت ذلك اذ ان (سرية من الاعراب) خرجت لمحاربته (فجرى ما هو مشهور) وهذا المشهور لم نعرف عنه شيئاً لأن الروايات الأخرى عزت مقتله الى قصيدة زعموا انه قالها في ضبة ومن المؤكد أن تلك الروايات وضعت بعد مقتله لاخفاء معالم المؤامرة الدنيئة التي - ربما - دبرها نفس بطانة

---

(٦) الرواية لا تعني ان ابن جني قد التقى بالمتنبي فعلاً . بل رواها عَمَّنْ شاهد المتنبي . انظر بحثنا (هل التقى المتنبي بابن جني) .

(٧) يتيمة الدهر ج ١ ص ١٨٧ الثعالبي . انظر المنتظم لابن الجوزي ج ٧ ص ٢٧ حيث يذكر ابن الجوزي ثلاثة اقوال في مقتل المتنبي واحد يشير الى ان هناك مؤامرة مقصودة لقتل المتنبي لأسباب لا علاقة لها بقصيدة (ضبة) .

المهلبي الذين شهروا به وزعموا انه ابن سقاء في نفس ظروف مقتله. وتشاء الصدف ان ينتخب الطالبيون نقيباً لهم في نفس السنة لأول مرة ويا لها من صدفة عجيبة تذكرنا بقوله وهو الصادق:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي … وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا … د وعوذ الجاني وغوث الطريد

ومضى والاحقاب تتحدث عنه - كما تنبأ - ويسهر الخلق في شأنه ويختصمون.

أنام ملء جفوني عن شواردها … ويسهر الخلق جراها ويختصم

واستناداً الى ما ذهبت اليه في هذا الكتاب يصبح نسبه كما يأتي:

أحمد (المتنبي) بن محمد (المهدي) بن الحسن (العسكري) بن علي (الهادي) بن محمد (الجواد) بن علي (الرضا) بن موسى (الكاظم) بن جعفر (الصادق) بن محمد (الباقر) بن علي (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

وإن صح هذا فلا فضل لي فيه وإنما الفضل كله يعود الى الأستاذين محمود محمد شاكر وابراهيم العريض لأنهما اول من كشف النقاب عن نسب المتنبي ورداه الى أصله العلوي كما يقتضيه العلم والانصاف.

الفصل العاشر

برهان رياضي على صحة نسب المتنبي

سأتجاوز الأدلة التاريخية والقرائن الأدبية وأجرب البرهنة على صحة نسب المتنبي باعتباره ابن الامام محمد المهدي بعلوم الهندسة المستوية وتشابه المثلثات وتطابقها وتساوي الزوايا وتطابقها.

ولكن هل يجوز ان نطبق علوم الرياضيات في مثل هذا الأمر بدلاً عن التاريخ والأدب؟.

ولماذا لا يجوز ذلك؟ طالما يتعلق الموضوع بحساب الزمن واستمرارية الحياة وعلوم الوراثة ضمن قواعد ثابتة لا يكون الاختلاف فيها مبرراً لعدم وجودها.

وقبل اقامة البرهان الرياضي على صحة نسب المتنبي يجب ان نضع عدة حقائق تاريخية وفكرية متفق عليها بين أكثر من طائفة من الطوائف الاسلامية. ومن ثم نرمز الى هذه الحقائق برموز هندسية تمثل كميات حسابية ثابتة المقدار. ومن هذه الحقائق ما يأتي:

١ - اعتناق الشيعة الامامية قواعد ثابتة للايمان هي (التوحيد والعدل والنبوة والامامة).

٢ - وجود طوائف اخرى تعتنق نفس القواعد وبنفس التسلسل.

٣ - وجود طوائف شيعية تتفق على تسلسل اسماء الأئمة الأثني عشر ابتداء بالامام علي ابن ابي طالب وانتهاء بالامام محمد المهدي كما هم معروفون.

٤ - ومما هو متفق عليه ان المتنبي ولد سنة ٣٠٣ للهجرة وعمر الامام محمد المهدي ٤٨ سنة باعتباره ولد سنة ٢٥٥ للهجرة.

٥ - ومن الطوائف المتفقة على ما تقدم، الامامية، والنصيرية، والشيخية، والاخبارية وغيرها.

وهناك طوائف اخرى تؤمن بنفس قواعد الايمان وبنفس التسلسل للأئمة الاثني عشر ولكننا نكتفي باختيار ثلاث طوائف فقط تسهيلاً للبرهان، ولتكن هذه الطوائف (الامامية والنصيرية والشيخية) طالما تمثل اتجاهاً واحداً بالنسبة للأسس بغض النظر عن التفاصيل الفكرية والشعاب الفلسفية أو الروحية التي لا علاقة لها بالبرهان الرياضي، فأقول:

بما أن قواعد الايمان واحدة عند الطوائف الثلاث وهي ذات أساس اسلامي مرتبط بالرسالة المحمدية، فان كل قاعدة منها تمثل نفس الكمية الحسابية - بالاصطلاح الرياضي - عند كل طائفة من هذه الطوائف. لذلك تكون متساوية القيمة - نظرياً - حسب المعادلات الآتية:

١ - التوحيد عند الامامية = التوحيد عند النصيرية = التوحيد عند الشيخية
٢ - العدل عند الامامية = العدل عند النصيرية = العدل عند الشيخية
٣ - النبوة عند الامامية = النبوة عند النصيرية = النبوة عند الشيخية
٤ - الامامة عند الامامية = الامامة عند النصيرية = الامامة عند الشيخية

وبناء على ما تقدم اصبح بامكاننا أن نقوم بالخطوات الرياضية الآتية:

أولاً:

نرمز لكل قاعدة من قواعد الايمان برمز هندسي متمثل بخط مستقيم ذي طول معلوم (انظر الشكل رقم ١). وبما أن كل قاعدة عند طائفة من الطوائف تساوي نظيرتها عند الطائفة الأخرى تكون المستقيمات التي تمثل كل قاعدة متساوية وإذا طبقنا منطوق بديهية رياضية تقول: (إذا جمعنا كميات متساوية الى كميات متساوية تكون النتائج متساوية)، نحصل بعد جمع قواعد الايمان - وهي متساوية عند كل طائفة - على ثلاث خطوط مستقيمة ومتساوية حسب الترتيب الآتي:

الخط المستقيم أ ب عند الامامية
الخط المستقيم أ ج عند النصيرية
الخط المستقيم أ د عند الشيخية

وهي مستقيمات متساوية كما دللنا أعلاه (انظر الشكل رقم ١).

ثانياً:

نفرض أن كل مستقيم من هذه المستقيات يمثل قاعدة لمثلث. (انظر الشكل رقم ٢).

وعلى أساس هذا الفرض نرسم القواعد الثلاث بمستوى واحد لتكون خطاً مستقياً ممثلاً بالخط (ذ د). (انظر الشكل رقم ٢) ثم نقطع هذا المستقيم بثلاث مستقيات متوازية كل واحد يمر بالنقطة (أ) من رأس المستقيم الأساس الذي يمثل قاعدة المثلث. فيصبح لدينا ثلاث مستقيات متوازية هي كما يأتي:

المستقيم ط ص

المستقيم ك ل

المستقيم ن هـ... انظر الشكل رقم ٢

ثالثاً:

لماذا يجب أن تكون المستقيات التي قطعنا بها خط الايمان (ذ د) متوازية ؟

الجواب:

عندما مرت هذه المتوازيات بالنقطة (أ) من كل مستقيم أساس، وهي نقطة تمثل بدء حركة التوحيد حسب تسلسل قواعد الايمان الأربع فلا بد أن تكون ذات اتجاه واحد عند كل طائفة من الطوائف. إذ ان فكرة التوحيد جاءت نتيجة لوحدة البداية. فلا يجوز ان يكون هناك اكثر من مفهوم واحد للتوحيد عند الرسول محمد. ولهذا السبب الجوهري - مهما اختلفت ازمان ظهور الطوائف - تكون فكرة التوحيد متوازية المسار. فهي منبعثة من مصدر واحد نحو هدف واحد. وتأخر معرفة المصدر الالهي لا يعني عدم وجوده بالنسبة للايمان به.

رابعاً:

ولما كانت هذه المستقيات متوازية فانها تحدث عند تقاطعها مع الخط المستقيم (ذ د) زوايا متساوية على أساس منطوق نظرية هندسية تقول: (إذا قطعت الخطوط المتوازية خطاً مستقياً تكون الزوايا المتناظرة من جراء هذا التقاطع متساوية).

وعلى أساس هذه النظرية نحصل على الزوايا الآتية وهي متناظرة ومتساوية:

زاوية ب أ ص عند الامامية

زاوية ج أ ل عند النصيرية

زاوية د أ هـ عند الشيخية

خامساً:

وبما أن موضوعنا يتعلق بالامام محمد المهدي وابنه ابي الطيب المتنبي فاننا نرسم نقاطاً على المستقيمات المتوازية يكون البعد في كل منها من فرجة كل زاوية (أ) بعداً واحداً:

لماذا البعد الواحد؟

لأن هذه النقطة تمثل المسار الزمني وبما ان تاريخ انتهاء الغيبة الصغرى كمية رياضية معلومة عند الطوائف الثلاث وهي سنة ٣٢٩ للهجرة فلا بد أن تكون المستقيمات الممثلة لذلك المسار متساوية.

سادساً:

وبهذه العملية الهندسية نكون قد حصلنا على ثلاثة مثلثات هي:

المثلث أ ب غ
المثلث أ ج ع
المثلث أ د خ

أنظر الشكل رقم ٢

وهذه المثلثات تكون متشابهة ومتطابقة وذلك لأن النظرية الهندسية تنص على أن (إذا تساوى ضلعان وزاوية محصورة في مثلثين أو اكثر تكون تلك المثلثات متطابقة)

وقد لاحظنا أعلاه أن:

الضلع أ ب = الضلع أ ج = الضلع أ د
والضلع أ غ = الضلع أ ع = الضلع أ خ
والزاوية غ أ ب = الزاوية ع أ ج = الزاوية خ أد

وهذا التساوي يكفي للدلالة على تطابق المثلثات الثلاثة.

سابعاً:

وبما أن كلاً من زاوية (أ غ ب) و (أ ع ج) و (أ خ د) حصلت نتيجة لتقاطع المستقيمات:

أ ص مع ب ق

أ ل مع ج س
أ هـ مع د و

تكون الزوايا الحاصلة من جراء هذا التقاطع، كل زاوية مساوية للزاوية المقابلة لها، وذلك كما يأتي:

الزاوية أ غ ب = ق غ ص في المثلث الأول، عند الامامية
الزاوية أ ع ج = س ع ل في المثلث الثاني، عند النصيرية
الزاوية أ خ د = و خ هـ في المثلث الثالث، عند الشيخية

وهذا حسب النظرية الهندسية (اذا تقاطع مستقيمان فكل زاويتين متقابلتين تكونان متساويتين. (انظر الشكل رقم ٣).

ثامناً:

وبما أن الزوايا (أ غ ب) و(أ ع ج) و(أ خ د) تمثل تاريخ انتهاء الغيبة عند الطوائف الثلاث تكون الزوايا المقابلة لها تمثل الصلة المباشرة لولد الامام المهدي بعد الغيبة وذلك لاشتراك النقطة (غ) في الزاويتين (أ غ ب) و(ق غ ص) ونقطة (ع) في الزاويتين (أ ع ج) و(س ع ل) ونقطة (خ) في الزاويتين (أ خ د) و(و خ هـ). وقد ثبت وجود هذا الولد بناء على ما قاله (ابو سهيل اسماعيل بن علي بن نوبخت) وهو من كبار الشيعة المعاصرين للامام المهدي وأبي الطيب المتنبي وقد جاء قوله صريحاً بكتاب الفهرست لابن النديم. وإذا اردنا معرفة اسم الولد الذي حدثنا عنه النوبختي يمكننا اختيار المنطق الهندسي القائل ان (كل زاويتين متطابقتين تكونان متساويتين. فاذا كانت إحداهما مجهولة القيمة يمكننا معرفة تلك القيمة بدلالة زاوية تطابقها معلومة القيمة أو بتعويض زاوية ثالثة تطابق كلاً من الزاويتين وذات قيمة معلومة، فتكون الزوايا الثلاث متساوية ومعلومة القيمة.

وبما أن الامامية انقطعت عند الامام محمد المهدي ولم تقل بوجود ولد له بدافع عدم وجود امام ثالث عشر في صلب العقيدة تكون الزاوية (ق غ ص) مجهولة القيمة.

وبما ان النصيرية لم تنقطع عند الامام محمد المهدي واحتفلت بمولد أبي الطيب المتنبي بعد انتهاء الغيبة الصغرى ولا تزال تحتفل بذلك - باطنياً - تكون الزاوية (س ع ل) معلومة القيمة.

وبما ان الشيخية لم تنقطع عند الامام المهدي وقالت بوجود الامام غير المعصوم بعد انتهاء فترة الأئمة المعصومين تكون الزاوية (و خ هـ) معلومة القيمة .

وبما ان الزوايا الثلاث متطابقة ومتساوية تكون جميعها معلومة القيمة من جراء هذا التطابق وبتعويض بعضها البعض (حسب المنطق الهندسي) .

فلذلك يكون أبو الطيب المتنبي المتصل بالنقاط (غ) عند الامامية و (ع) عند النصيرية و (خ) عند الشيخية هو الولد الذي حدثنا عنه (ابو سهيل النوبختي) وذلك استناداً الى احتفالات النصيرية بمولده . وهو أيضاً في منزلة الامام غير المعصوم استناداً الى سلوك الشيخية الديني .

وأما ما قدر الصواب أو الخطأ في هذا البرهان الرياضي فاني أرجو أن اسمعه من الرياضيين . وليس من الأدباء والمؤرخين وأصحاب الملل والنحل .

شكل رقم (١)

	التوحيد	العدل	النبوة	الامامة
كميات أولى تمثل الامامية :	ـــــــ	ـــــــ	ـــــــ	ـــــــ
كميات ثانية تمثل النصيرية :	ـــــــ	ـــــــ	ـــــــ	ـــــــ
كميات ثالثة تمثل الشيخية :	ـــــــ	ـــــــ	ـــــــ	ـــــــ

مجموع عوامل الكميات الأولى = أ ــــــــــــــــــ ب

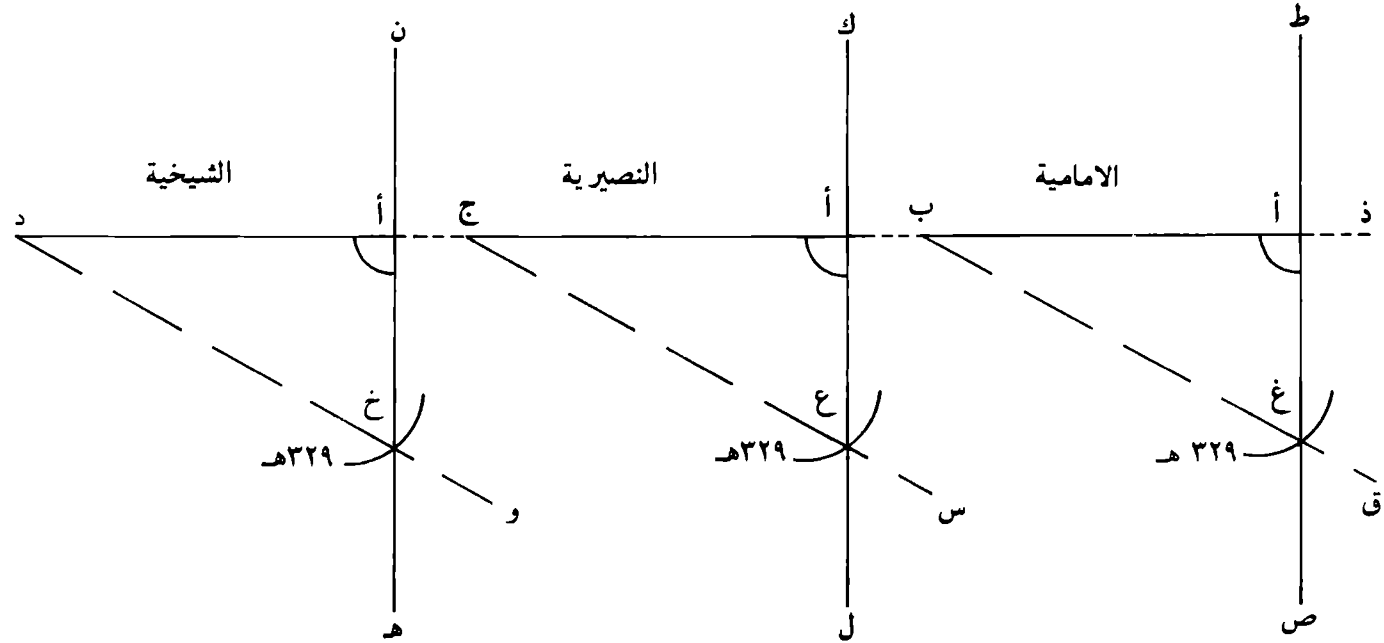
مجموع عوامل الكميات الثانية = أ ــــــــــــــــــ ج

مجموع عوامل الكميات الثالثة = أ ــــــــــــــــــ د

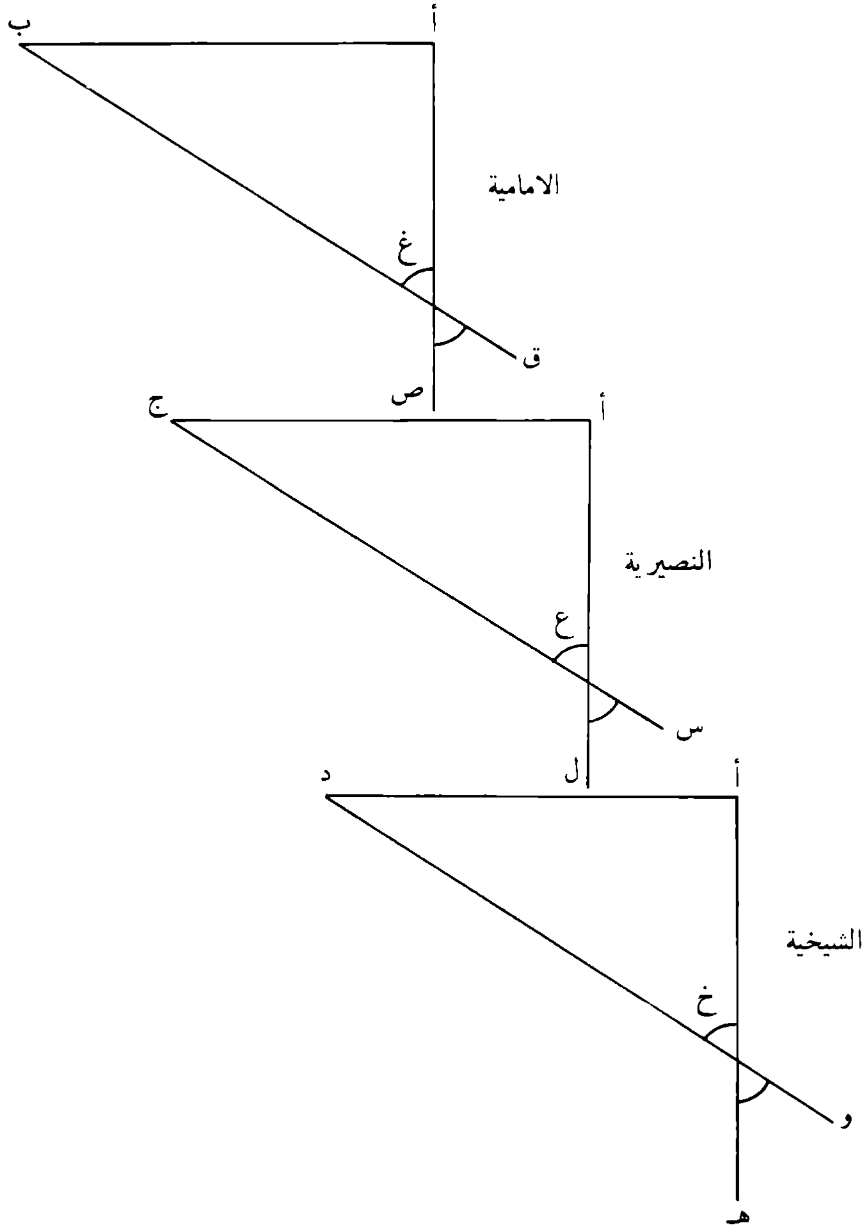
أ ب = أ ج
أ ب = أ د
أ د = أ ج

وذلك على أساس القاعدة الرياضية :
اذا جمعنا كميات متساوية مع كميات متساوية
تكون النتائج متساوية

شكل رقم (٢)


الامامية
النصيرية
الشيخية
ط
ك
ن
أ
أ
أ
ذ
ب
ج
د
غ
ع
خ
٣٢٩ هـ
٣٢٩هـ
٣٢٩هـ
ق
س
و
ص
ل
هـ

شكل رقم (٣)



صَدَر للمؤلف

١ – **مجد الزهور**: مغناة – دار الكشاف بيروت ١٩٤٩.
٢ – **أبو العتيق**: شعر باللهجة الموصلية ط اولى ١٩٥٢ مطبعة الاتحاد بالموصل ط ثانية ١٩٥٢ مطبعة الاتحاد بالموصل ط ثالثة ١٩٥٢ مكتبة الأمل بغداد.
٣ – **المعلم عبد القدوس**: مسرحية – مطبعة الاتحاد الموصل ١٩٥٣.
٤ – **خواطر حاج**: مذكرات رحلة الى الحجاز – مطبعة الاتحاد الجديدة – الموصل ١٩٥٣.
٥ – **الحان الماضي**: شعر – مطبعة الهدف – الموصل ١٩٥٥.
٦ – **التجربة بعد ١٤ تموز**: خواطر سياسية مطبعة معتوق بيروت ١٩٦٦.
٧ – **من كل بيدر حبة**: مجموعة خواطر – مطبعة الحوادث بغداد ١٩٧١
٨ – **المتنبي يسترد أباه**: ط أولى ١٩٧٤ دار التآخي
٩ – **المجتمع العراقي وتطور ظاهرة الانسان** – دار الوطن العربي – بيروت ١٩٧٥
١٠ – **شيء عن جريدة الأهالي ما بين عامي ١٩٣٢ – ١٩٤٦**: مستلة من مجلة الثقافة العدد العاشر تشرين الأول ١٩٧٢ بغداد.
١١ – **نزاع الذئاب**: مسرحية بثلاثة فصول منشورة في مجلة الثقافة الاعداد ٦ و ٩ ١٩٧٢ و ٢ ١٩٧٣ – بغداد
١٢ – **تاريخ الحركة الديمقراطية في العراق**: ج ١ – وزارة الاعلام ١٩٧٥.
١٣ – **رحلة حضارية ولمحات تراثية عبر الف ليلة وليلة**: مطبعة التايمس – بغداد ١٩٧٧

مؤلفات جاهزة للطبع:

١ – **المجتمع العراقي وتطور ظاهرة الانسان من خلال رسائل القراء الى مهذار – جزء. ثان.**
٢ – **من كل بيدر حبة** (الكتاب الثاني).
٤ – **تاريخ الحركة الديموقراطية في العراق** – الجزء الثاني.

الفهرس